عذراً سورية

عــذراً سورية
غسان كامل ونوس
ط١ : ٢٠١٣
عدد النسخ : ٥٠٠ نسخة
القياس: ١٥ × ٢٢

شرق وغرب للترجمة والطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - هاتف ٦٦٢٥١٩٤ - موبايل : ٠٩٩٩٥٠٦٤٣٩

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع - سوريا - دمشق
هاتف: ٦٦٦٠٩١٥، ٦٦١٨٣٠٣ (١١ - ٠٠٩٦٣)
ص.ب: ٣٤٣١٢ - فاكس: ٦٦٦٠٩١٥ (١١-٠٠٩٦٣)

البريد الإلكتروني : Alfarqad70@gmail.com
Alfarqad70@hotmail.com
Alfarqad70@yahoo.com
الموقع الإلكتروني : http://www.Alfarqad.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإخراج الفني وتصميم الغلاف: أحمد إسماعيل
لوحة الغلاف: الفنان م. غياث محمود

جميع الحقوق محفوظة. لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله، بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

شــرق وغــرب

غسان كامل ونوس

عذراً سورية

كتابات (٥)

الجرح الجرح..

الدم هو الدم، والنبض هو النبض، والجرح الجرح، والغصة والقهر والفقدان..

النزف مستمر، والجرائم تترى، والماشون في الجنازات يتشابهون ويتماثلون ويتواسون؛ لأن المستهدف واحد: الشعب السوري بمختلف شرائحه وأطيافه.

منذ بداية التحركات، كان جلياً أن المجرم يتربّص، يحرّض، يسدّد، يضلّل، يغطّي أفعاله بالشعارات المحببة والكلمات المسيلة للعاب؛ فيما اللسان يخون، والخنجر مسموم، والطلقة نافذة، والطبخة الشريرة تنضج، وقودها البشر وموادها، وبخارها واحد: آهات وولولات وحسرات ودعوات وابتهالات..

الأمر كان واضحاً منذ البداية لكل ذي بصيرة، يريد الخير لهذا البلد الصامد، ويرغب حقاً بالإصلاح، والتنمية، والعدل، والأمان..

الأمر كان واضحاً؛ فمن يقتلع حجر رصيف، لا يبتغي بناء وطن، ومن يرمي سيارة إسعاف بمقذوف، لا يمكن أن يتمنى الشفاء أو الحياة لأحد، ومن يقطع عمود كهرباء، ويلقيه في الشارع، لا يريد

للضوء أن يشع، ليعثر العابرون، أو يتوقفوا، ويتراجعوا إلى الكهوف المظلمة والأقبية العفنة!

ومن يخادع الرأي العام، ويدّعي غير ما يعرف، ويصف ما ليس في الواقع، ويهتف بما لا يعتقد أو يقتنع به، ويتهم من لا ذنب له، ويرفض السبل التي فيها أمن الوطن وسلامة مواطنيه وأرضه، وأهمها اللقاء والحوار، ويتمسّح بأعتاب الخارج، ويتقاوى بالأجنبي وغاياته المفضوحة، ويقدم للأعداء أوراق اعتماده المرفوضة من الشعب الأبي، ويتعالى على الأحاسيس، ويتنكّر للمعارف والجيران، ويتعامى عن الأحزان، ويستهين بالموت بعدما استخف بالحياة.. إن من تكون هذه مواقفه لا يمكن أن يكون صاحب مشروع وطني، أو رسالة إنسانية!

الدم هو الدم، والضحية ذاتها..

تنوّع الأسلوب: استغلال لمطالب محقة، تجمعات مصطنعة، واحتجاجات مدبّرة، وقاتلون مأجورون، تخريب للمؤسسات الوطنية، والأملاك العامة والخاصة، تفخيخ وكمائن، اختطاف وقتل وتمثيل، إثارة فتنة متنقلة، تهويل خارجي، وتضليل إعلامي فاجر فظيع، حصار ومقاطعة، مخيمات ونازحون بالقوة، معسكرات وتسللات عبر الحدود، وتأليب المؤسسات الدولية، والعربية..

فليهنأ أصحاب المشروع التدميري بإطلاقهم أفظع ما في جعبهم من شرور، وأقذى ما ترسب في حضيضهم من أحقاد سوداء..

ليهنؤوا بالمجازر التي لم تُبقِ ستراً لمقنّع، ولم تترك عذراً لصامت، ولم تدع ذا ذرة حياء وخجل، ومن به أدنى قدر من إحساس أو شعور، بلا حرج أو تأثر..

القاتلواحد، والمجرم نفسه، والجريمة فوق الوصف!

تبدلت المشاهد، وتقاطعت الجراح، وتكاثفت الدموع، وتعددت المواقع، وتغيرت الجهات، وما يزال القلب يتجرّع صنوف الألم النبيل بصبر وجلد ووعي.. يحول دون امتداد الجحيم، واجتياح رهاب الظلام، واقتلاع الجذور الراسخة، واكتساح الجذوع الرابضة، وتَقَصّفِ الأغصان السامقة، وإن تقطّع بعضها بفعل العصف المنظم، أو ذبل حزناً مع الفاقدين، أو انحنى تواضعاً وكبراً..

القاتل هو القاتل، في الخارج البعيد خلف البحار، والقريب المتاخم، الصديق غير الصدوق، والشقيق الذي لم يقدر حرمة صلة الرحم، والجار الذي لم يعترف بقيمة الخبز والملح..

القاتل ذاته، من نوى قاتماً، وصمم ذئبياً، خطط وحضر، خدع وغدر، جند ودرب.. وأرسل الكائنات الشيطانية، والطرود الجهنمية..

القاتل عينه، من فتح أبواقه بالضلال، وفتح منافذه للفجرة الفاسقين، والمدعين المنافقين.. المجرم نفسه؛ من أنكر الفعل الشنيع، أو حوّر التهمة، وأساء مرات للضحايا وذويهم والكائن الإنساني.

الشرير هو الشرير، الذي ما فتئ منذ أول جريمة بحق هذا الشعب الكريم المعطاء الصابر.. يولغ في غيّه، إنه السلوك الغابّي الذي يعود للظهور، رغم الحديث في المدنية، والتمنطقبالحضارة، والتشدّق بالحقوق، والتفاخر بالإنجازات الأرضية والفضائية..

ولكن..

الشعب هو الشعب، والصمود هو الصمود، الصبر والمصابرة والتحمل، والقدرة على المواجهة أشهراً وسنوات..

الشعب هو الشعب المصمم على الحياة، الوفي المكافح، من بنى وأنتج وتعلم وتسلح بالعزة والكبرياء..

الشعب بلوحته المتواشجة، وأطيافه الملونة وشرائحه المتنوعة، وقيادته التي تمثّلت تطلعاته وآماله ومساراته..

لن تزيده هذه الهجمة الدموية الوحشية الأخرى، حتى لو لم تكن الأخيرة، إلا قوة ولحمة وإصراراً على الحياة بشرف وعزة، في وطن حر مقاوم مصان..

***

مسؤوليتنا!

الألم جليل، والنّزف مجلّل بالأسى والحرقة، والفقد مرّ.. لأنّ ذلك في غير مكانه، وخارج الإطار المفترض، والمواجهة ظالمة مظلومة.

لا شكّ في أنّ المؤامرة كبيرة وواقعة وجليّة، وتستهدف سورية الوطن؛ الأرض والشعب والكرامة؛ الدولة والمؤسسات والمنجزات والإصلاحات؛ التاريخ والحاضر والمستقبل؛ الموقف المبدئيّ الحرّ المستقلّ المقاوم الرافض للاستسلام والتنازل عن الحقوق؛ الدور الفعّال، والحضور المشرّف على الساحة الإقليمية، وفي المجتمع الدولي.

وللمؤامرة مدبّروها وممّولوها ومسوّقوها وعناصرها وأدواتها في الخارج والداخل.. وهناك استغلال للحاجات والمشاعر والنوازع، وتجييش إعلامي وسياسي عربي ودولي. ولا شكّ في أنّ هناك مطالب مشروعة، وخطوات جادة، ونيّات صادقة؛ لكنّ هناك تخريباً متعمداً، وتضليلاً وفجوراً ودعوات ظلامية..

إنّ كلّ ذلك يجب أن لا يتركنا نهب الأعراض والمشاهد والتبعات.. لأنّنا لسنا خارج الحلبة؛ بل داخلها، مشاركين أو متفرجين فاعلين ومنفعلين.

ونتحمّل جميعاً المسؤولية بنسب متفاوتة ومتداخلة، وغير مفيد الاكتفاء بالندب واللطم والتأسّي وعدّ الضحايا، واتّهام الآخرين في الداخل والخارج.

والاعتراف بالمسؤولية، جزء أساس من الحلّ، الحلّ الذي لا بدّ من أن نشارك فيه. وعدم تحميل الآخرين أيضاً مسؤولية اقتراحه وبلورته..

ما جرى يخصّنا ويهمّنا، وما يجري يعنينا، وما سيجري مسؤوليتنا.. ومن سيجترح الحل ومناقشته، ويقرّه وينفّذه.. أناس منا، كانوا موجودين؛ شاركوا وشاركنا، قالوا وقلنا، أشاروا إلى الأخطاء وأشرنا، استجابوا واستجبنا أو تجاهلنا..

نعم منّا من أُهمل، وهُمِّش، وظُلم، وحوصر، ووُضع في غير ما يناسب إمكانياته وخبراته وأخلاقه..

ومنّا من غشّ وفسد وأفسد؛ تساهل وتجاهل وتغافل وسوّغ..

لن يتبدّل كل شيء بقانون جديد أو معدل، بإجراء صارم هنا، وحملة واسعة هناك.. رغم أن هذا ضروريّ ومطلوب..

لن يُستبدل الناس جميعاً، ولن تتمّ تنقية الأفكار والأذهان والنفوس جميعاً بلمحة عين، ولن يكون بالإمكان تنظيف المجاري التي ضاقت بالبقايا والخطايا والنوايا بنبضة رغبة وموجة إرادة..

ما الذي يجب أن يجري؟!

نعم يجب أن نتغيّر، نراجع طريقة عيشنا، ممارسة أعمالنا، مهماتنا وواجباتنا ومبادراتنا، علاقاتنا وعواطفنا، مفرداتنا وأحاديثنا، اهتماماتنا وانشغالاتنا..

فلن يغيّر الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم!

القضية كبيرة، والمسؤولية أكبر، والشروخ عديدة وعميقة، والترميم واجب ومحتوم وملحّ، من دون انتظار أو تلكؤ أو تأجيل.

***

سيّد الأدلة!

ليس الاعتراف سيّد الأدلة فحسب؛ بل هو الخطوة الأولى في البحث عن الحلول، للوصول إلى النتائج المتوخّاة، والظروف الأكثر سلامة وصحة وأريحية، بدل أن يتمّ التعامل مسبقاً مع النيّات أو النتائج المتوقّعة أو المتوهَّمة، أو التمترس خلف مواقف مسبقة، لا تسمح بالاستماع إلى وجهات نظر أخرى؛ بل إلى وقائع على الأرض، أو التثبّت من مرويّات ومسموعات.. والاعتراف بالمرض وقراءة أعراضه، أساس لا بد منه للبحث عن العلاج.

وليس المقصود بالاعتراف كلاماً عاماً لا يكاد يقوم على مستندات تُوازِن أو متكآت تفيد؛ إلا إذا كان الأمر يتعلّق بالثوابت الأساسية التي لا يجوز التفريط بها، أو المواقف التيّ لا يمكن قبولها.. وفي المواقف المأزومة، والأحداث المصيرية، وفي بداية البحث عن حلول، يبدو أنه لا بدّ من تأكيدها!

والاعتراف يكون من النفس أولاً، ما قصّرت به تفكيراً أو دراسة أو تخطيطاً أو إنجازاً؛ وما أخطأت بممارسته، أو تنفيذه، أو استثماره.. عن قصد أو من دونه.. والنفس هنا لا تعني شخصاً بعينه، ولا تخصّ (الآخرين) فقط؛ بل قد تكون فرداً مسؤولاً بأيّ درجة، أو جماعة

منظّمة أو غير منظمة، في الداخل والخارج، موالاة أو معارضة أو بين بين؛ ونحن جميعاً مسؤولون عما كان، ويكون، وسيكون!

فلا بدّ من الاعتراف مثلاً بأننا نحن (المثقفين) فشلنا في الوصول إلى الشرائح المهمّشة تعالياً أو تغافلاً، فهيمنت عليها فئات أخرى، وسادت لديها أفكار مختلفة، وكانت بعض طرق تعبيرها غير حضارية؛ فكان لزاماً معها استخدام (خطاب) غير ثقافي، لإقناعها بالعدول عن القيام بما هو غير قانوني أو غير مناسب.

وأن الحراك الثقافي لم يكن فاعلاً، رغم المقرّات والمؤسسات والإصدارات والنشاطات.. وبالتالي بدا ردّ فعله على الأحداث باهتاً أو مقصراً أو عاجزاً.

ولا بد من الاعتراف أن تهميشاً كبيراً لحق بالمثقّفين الحقيقيين، ولم يولَوا اهتماماً جدياً، أو احتراماً من الجميع مسؤولين وغير مسؤولين.

وأن من غير المنطقي اختصار الأوضاع الراهنة في سورية، في أيّ مناقشة (ثقافية)، إلى جملة قالها شخص لا نحبّه على قناة رسمية، أو آخر لا نثق به في قناة أخرى!

ولا بدّ من الاعتراف أن تضييقاً اقتصادياً قد مورس غلى الشريحة الأهمّ: الشباب؛ ولاسيّما المتعلّمين منهم، تعييناً أو توظيفاً أو قبولاً في ميادين العمل الشريف، وشمل ذلك المكان المناسب، والإمكانيات المنسجمة مع طبيعة العمل.

ولا بدّ من الاعتراف بالمطالب المحقّة للناس، وبالمتظاهرين الصادقين السلميين من أجلها مهما كانت نسبتهم.

وأن الاعتراف بأن هناك مؤامرة مستمرة، لا يكفي؛ بل لا بدّ من الدّلالة على أدواتها وعناصرها ومظاهرها، وضرورة التعامل معها بما يلزم من إضاءة وتوصيف وتصدّ وحزم؛ ومشاركة الجميع بذلك كلّ من موقعه.

ومن الضروري الاعتراف بأنّ هناك مخرّبين ومأجورين ومسلّحين أفسدوا تلك المظاهرات السلمية، وجعلوا الكثيرين ينفضّون عنها، وقاموا بجرائم فظيعة؛ وأن انتقال العنف من منطقة إلى أخرى مع التّركيز على إراقة الدّماء، ليس بريئاً.

وأن هناك ملامح فتنة مدمّرة ظهرت ظلاميتها في أكثر من مكان، وأصابت بفيروسها القاتل عدداً لا بأس به منّا، وما تزال مفرداتها بيننا بشكل أو آخر.

وأن من مهمّة القوى المسلحة الوطنية حماية المدنيين والمقرات والممتلكات والقانون، وفي جميع الظروف والمواقع.

وأن الاعتراف بالتقصير الإعلامي المحلي، لا يسوّغ التعلّق بالإعلام (الآخر)، وتبنّي مقولاته وفبركاته.

ولا بد من الاعتراف بأن ما يقوم به بعض المعارضين والمحتجين، يتماشى تماماً مع ما يريده الكيان الصهيوني والدوائر الغربية، وربما يستدعيها للانقضاض على الوطن.

وأن هناك خطوات إصلاح حقيقية بدأت، علينا مواكبتها وحمايتها وإنجاحها.

وأن الحوار ضروريّ للجميع وواجب على الجميع، وفي جميع الأوقات.

وأن هناك وجوهاً لا توحي بالطّمأنينة، كان لها أدوار في ما مضى، وربما جاءت نتيجة فساد قائم أو مطلوب، ولا بدّ من أن تغيب عن الساحة؛ وجوه حزبية ونقابية ومنظماتية وإعلامية وسواها، في هذا الموقع أو ذاك...!

إن من طبيعة الأمور أن تكون غائمة في خضمّ تغيرات عامة في المنطقة والعالم، وأن يسعى المرء، إذا ما رأى أن الفرصة سانحة، إلى الحصول على كل ما يريد، لكنّ الوعي يخفض سقف الأحلام، والواقع يعدّل في الكثير منها، من دون أن ننسى الجدلية المعقدة بين المجتمع ومستواه وخصوصيته وآلياته، والمطالب والأحلام والنوايا التي تسعى إلى تطويره.

***

خسارة أخرى!

أن يصمت الإنسان عن إبداء رأي، أو إعلان موقف، ليس أمراً بسيطاً أو عابراً، وله منعكسات ونتائج ليست عادية؛ ويمكن أن تكون له أسباب عديدة؛ فقد تكون المعطيات لديه لا تكفي، فينتظر معلومات أو بيّنات؛ وقد يكون حذراً متردّداً في انتظار آراء آخرين ومواقفهم، لكي لا يبدو مخالفاً لهم، فيفقد حظوته لديهم؛ وقد يكون خوفه نتيجة وجوده في محيط لا يرحم.. وهذه حالات يمكن تفهّمها، بصرف النظر عن تسويغ بعضها؛ لكن هناك الكثير من الأحداث والوقائع التي تبدو فاقعة في جلائها، وفاضحة في هويتها، ما يشير إلى أن فاعليها مزدرون لكل القيم، ضاربون بعرض الحائط بالقوانين والأعراف والعلاقات الإنسانية مهما كانت حادّة ومتنافرة؛ فحتى في زمن الحروب هناك حالات لا يمكن القبول بها، ويحاسب مرتكبوها؛إذ يُلزَم كل طرف بإجراءات لحماية المدنيين وإسعاف الجرحى حتى من المقاتلين الأعداء، والحفاظ على حياة الأسرى والإعلان عن أسمائهم وأوضاعهم..

فما بالك بالخطف على الهوية أو المهنة، وفي أماكن خارج حدود المواجهات، في الطريق أو البيت أو العمل؟!وما يتعرض

له المخطوفون وسواهم من تعذيب وتجويع وتعطيل وحصار وترهيب وتهديدوترحيل، أو استخدامهم دروعاً بشرية؛ ناهيك عن التقطيع والتمثيل والحرق والطمر حتى في المزابل..!فهل مثل هذه السلوكاتيمكنتحمّلها -أو تجاهلها-وفق أيّ سبب أو حجة أو غاية؟!

وإذا كان ذلك كله مرفوضاً ومداناً جملة وتفصيلاً، كائناً من كان المستهدف؛ فإن الأمر يتضاعف استهجانه واستنكاره، وتلحّ ضرورة مواجهته بأيّ شكل وطريق، إذا ما كانت الضحية عالمأ أو خبيراً أو صاحب اختصاص مميز.. يعدّ بأي معنى أو تأويل رصيداً مادياً ومعنوياً للوطن ومستقبله، بصرف النظر عن حاكميه ونظامه.. كما من المستغرب والمرفوض استهداف المنشأة والمشروع والمؤسسة التعليمية أو الإنتاجية أو الخدمية: الجامعة أو المدرسة أو المصنع أو مركز التحويل أو خط نقل النفط أو الغاز أو مركز البحوث أو الكرم أو البيدر.. إنها كوارث وطنية يفرح لها الأعداء، ويؤججونها، ويحرضون على استمرارها أطول زمن ممكن؛ لأنها استنزاف لمقدرات البلد بمختلف أطيافه وموارده وعناصره.. من دون أن يخسر الأعداء شيئاً!!وهي تعبر عن المستوى الأخلاقي المتدني أو المعدوم، والجهل والحقد والظلامية لدى الفاعلين؛وتحس بالمرارة تجاه موات الأحاسيس والمشاعر، وغياب الوعي والتفكيرفي من يقوم بذلك من المواطنين، ومن يحضنهم أو يغطي عليهم، أو يسكت عن ارتكاباتهم! وهو بذلك مشارك في الإثم، ومتضرر من النتائج مهما تكن! أما من يغبط إذا ما وقع حادث من هذا القبيل، حتى لو

كان تفجيراً إرهابياً يودي بالناس الأبرياء، ويسرّلسماع حجم الفواقد المادية؛ ناهيك عن الخسارات المعنوية والتصدعات النفسية التي تترددأصداؤها زمناً أطول،وتطال تبعاتها الجميع، ولا سيما الأجيال الجديدة؛ فذلك فاقد لأيّ من مميزات الكائن العاقل، ولا يكاد هذا الموقف يختلف عن الفعل الإجرامي ذاته!

ومن الممضّأن تتوالى الخسائر الوطنية، من دون أن تسمع الأصوات العالية التي ترفض وتستنكر؛ ولا سيما من المثقفين والمفكرين والإعلاميين الذين يفترض أن يكون لهم حضور ودور وموقف! وهل هناك ما يدعو إلى الانتظار، إلا من يرضى أن يولم على الأجساد، وينتشي بالمواجع والأنين!

لقد صمت الكثيرون، وما يزالون، -وربما فرحوا- إزاء عدوانية عقوبات ظالمة تطال المواطن السوري -قبل المسؤول- في لقمته ودوائه ووقوده وتنقلاته وأمنه، مع سخاء في الإمدادات المتنوعة للمجموعات المسلحة؛ وشمتوا -ربما- لإجراءات أظلم في مجال الإعلام الوطني الخاص والعام، وصولاً إلى الاعتداء المباشر على إعلاميين ومواقع إعلامية؛ لإسكات الصوت الصادق، وتغييب الشاهد الحقيقي والمشاهد الفاضحة..!!

وفي الوقت الذي يظهرون فيه حرصاً على حرية الرأي والتعبير من أجل أحداث صغيرة أو كبيرة تجري في أماكن بعيدة أو قريبة، تراهم يتصاممون عن وقائع تكاد تصيبهم شراراتها، ويتعامون عن فظائعوشنائع، ويتهرّبون من الحديث بها أو عنها، ولا ينسون أن

يسخروا من التحليلات أو حتى الاعترافات المعلنة التي تقدمها وسائل الإعلام الوطنية؛ فيمابعض الإعلام الأجنبي يؤكد ذلك!!

إنها الخيبة والمرارة والحرقة من جراء حالة بعض أبناء الوطن، ولا سيما المحسوبين على الثقافة والفكر والإعلام، الذين ما كانوا،في مثل هذا المفصل الهام على صعيد الوطن بمختلف مكوّناته البشرية والماديةوإشعاعاتهوظلاله،على مستوى المسؤوليةوطنياً وأخلاقياً وإنسانياً، وهي خسارة هامة أخرى!!

❋❋❋

وهو يعلم!

منذ تكوّن هذا المخلوق (العاقل)، لم يغب الشرّ عن المشهد الحيويّ حالاتٍ تنوس وتشتدّ، تتخفّى وتتفاقع..

ولم تستطع القوانين مع تطورها، والنظم الداعية بلطف أو الزاجرة بقسوة أن تخلّص البذرة البشرية من الشرور، أو تخفّف منها؛ إلا في حدود وفترات.. حتى الأنبياء والرسل الذين تتابعوا للهداية والتوبة لم يصلوا إلى نتيجة قاطعة؛ إذ إن الداء مستشرٍ!

وقد يكون من المفهوم، أن تنتاب المرء حال يفقد فيها أعصابه، وتكون الظروف والوقائع أكبر من قدرته على التعقّل أو التحمّل، فيثور، يشتم أو يضرب، أو يطلق النار.. حتى على نفسه! وقد كان العظيم، وما يزال، من يمسك نفسه عند الغضب.

ويمكن قبول فكرة أن هناك طاقة سلبية لدى المرء، يحتاج إلى أن يفرّغها بين فترة وأخرى، تختلف حدّتها ومدّة هيمنتها. ومن هنا تمكن ملاحظة أن الغاضب يهدأ بعد حين، ويندم حتى على رفع صوته، أو ضعف تحمّله، أو عدم انسحابه من مواجهة بلا طعم أو بلا معنى!

ومن الممكن تفهّم أن يغيب بعض الحقيقة عن المرء لقلة المعلومات أو تشوّشها أو انعدامها، وأن يتبنّى موقفاً مغلوطاً نتيجة ذلك، إضافة إلى إلحاح عاطفة أو إحساس.

لكن الذي يصعب تفهّمه، الاستمرار في الموقف ذاته بعد تكشّف الكثير من الوقائع التي تفنّد ما قام موقفه عليه! وليس هذا من ثبات الرأي في حمد، ولا ينمّ عن رجولة وتحدٍّ؛ بل يغدو الشخص مهما استطاع تلوين المشاهد، أو تزيين الأقوال، وترتيب المسوّغات.. هشّاً مدعاة للرثاء؛ وهذا ليس أقلّ قسوة من أن يكون متناقضاً صغيراً بائساً، أو مبتلياً بداء الحماقة!

وما لا يمكن قبوله، أن يكون هذا الكائن محسوباً على من تُدار البوصلة باتجاههم، ومصنفاً ضمن شريحة قادرة على تبيّن الحقّ من الباطل، ولا سيما إذا ما كان المقصود تضييع الجهات، واستغلال الظروف والقوى والحاجات..

والأنكى من كل ذلك، أن يتمّ التشاغل عن القضية الأساس، ويُماحَك في أمور ثانوية، ومقولات لا تغني ولا تسمن.. مع أن هذا يبقى ألطف من عناد وفجور ورغبة بالانتقام، رغم أن النتيجة واحدة. والأفضل من هذا وذاك، العودة عن الخطأ، والرجوع إلى الحقّ، واتّخاذ الموقف المتماسك؛ فمن منّا لا يخطئ أو يُشبَّهُ له؟! لكن الحال تختلف متى صار يعلم!

والأَمَرُّ من ذلك كله، أن يكون هذا ليس ناجماً عن قناعة، أو نابعاً من عجز عن التحليل أو فقر في القدرة على الفهم؛ بل بسبب أمر مطلوب، أو غاية مأجورة، أو دور مرسوم؛ فماذا يتبقّى لهذا الكائن القدوة؟! وماذا يترك للناس الذين يثقون به حين يكتشفون ذلك؟!

وكيف ستكون الأصداء لدى العامة الذين ينظرون إلى القيم بسموّ، ويتّخذون من المنادين بها المدافعين عنها، كما تشير سمعتهم ويدلّ تاريخهم، نبراساً وذراً يُسعى إلى الوصول إلى مقامها، أو التشرّف بالموت على سفوحها؟!

ليس المثقف ملكَ نفسه، وليس العالم محصوراً في حدود ملكاته وحيّزه، وليس المفكّر رهن منبره أو كوّته أو زمنه! وليست الخيبة التي يتركها أيّ منهم لدى معجبيه أو متابعيه، هيّنة أو محدودة الأثر أو راهنة..

إنه يسيئ بهوانه أو ممالأته أو قبوله التقمّص أو الاستزلام، إلى التاريخ والعصر والكائن العاقل!

والآثار الكارثية التي يتركها، إذا ما تجاوزنا الضحايا البشرية التي يمكن أن تذهب من جرّاء قول أو رأي أو تسويغ أو تعمية أو تضليل.. لا يمكن أن تقدّر بثمن، أو تُحَدّ بوقت.

وقد يسيئ الضالّ إلى نفسه وأسرته وجيرانه وحارته.. وقد يؤذي صديقاً أو معالقاً أو مصادَفاً؛ ومن المستغرب أن يعود إلى فعلته، حتى إذا أعلن توبته، أو أعفي عنه، كما يفعل أصحاب السوابق.

وهناك من تكون سوءاته مضاعفة الصدى والتأثير، ورأيه يكون مرصوداً أو متابَعاً أو منتظراً، أو مهتمّاً به على الأقلّ، نتيجة مواقف سابقة، وسمات ومقولات ونشاطات عامة وخاصة.. فإن كان لا يدري، فتلك مصيبة؛ أما إذا كان يدري أو صار، فلا شك في أن المصيبة أفدح وأعظم!

***

الحدّ الأدنى

بعد فترة عصيبة عبرتها سورية بنزف وألم وأرق وقلق، واهتزازات وتصدعات عميقة.. يبدو المشهد أكثر وضوحاً، على المستويات كلها، وبات الأمر يتطلّب وقفة جدّية مع الذات، ومقاربة جادّة ومسؤولة مع الواقع الراهن والوقائع المرتسمة على الأرض، حتى مع حركيتها المفهومة، إلا لمن لا يريد للأزمة أن تنتهي، وللأمان أن يعود، ولا يودّون الوصول إلى الخلاص الآمن.

لقد غدت سورية ورشة إصلاح حقيقية، موزّعة إلى ورشات.. ومن مصلحتنا، في أيّ ميدان كنّا، المشاركةُ في أيّ جدول يصب في نهر جريانها الرائق المأمول، ومن واجبنا أيضاً؛ حتى إن لم يعجبنا هذا العضو في هذه اللجنة أو ذاك، وحتى إن لم يشبعنا كلام هنا، أو لم يقنعنا إيقاع هناك.. فالقضية قضيتنا جميعاً؛ كانت كذلك، ويفترض أن تبقى؛ إلا إذا أردنا أن نظلّ خارجها، أو أن نسحب أنفسنا منها، عناداً أو عتاباً أو مناكفة، أو حرداً، أو عجزاً، أو تهرّباً، أو قنوطاً، أو انتظاراً لحال أخرى مفارقة.. لن تحدث!

لقد أطال الكثيرون منّا الانكفاء الراجف تحت وابل الضخّ القاتل والتّحريض الفاجر، أو التنقّل المتوتّر بين الشاشات، والانقباض من

المشاهد القاتمة، والتقلقل على وقع الشعارات القارسة، والاحتراق بشواظ الألسنة الحاقدة، والاكتئاب بتأثير التصريحات المسمومة، والامتعاض من التهديدات الموتورة في الخارج والداخل..

وبصرف النظر عن كون الكثير من ردود الأفعال تلك مسوّغة إنسانياً وواقعياً؛ فإن من المهم الآن الإقرار أن الاستمرار في ذلك، يضاعف الخسائر التي يمنى بها الوطن في مختلف مرافقه؛ وليس من المقبول أن نلقي المواعظ من كمين، ولا أن نرسل الإشارات عن بعد، ولا أن نملي الشروط من علٍ: إذا لم... لن نشارك حتى في الحوار!!!

فبأي حقّ يكون هذا؟! وبأية مسؤولية؟! وبأيّ ثمن؟! وبأيّ رصيد على الأرض، وفي الواقع؟! وبأية حسابات ومعايير ورغبات؟! وبأيّ روح إيجابية مرجوة ومطلوبة؟! وبأيّ وطنية؟!!

إن من واجبنا جميعاً أن نلملم أشلاء الفتنة من بين مفرداتنا ونظراتنا، وأن نزيل بقايا الوحل عن أرديتنا، وأن نلقي بأوهام الخراب من أذهاننا وتصوّراتنا، وأن نبرّد أطراف أصابعنا التي احترقت حين كنا ننقل النار من مكان إلى آخر، وإن كان في ظنّنا أحياناً أننا نطفئها!!

إن علينا، في أيّ منظار حضاريٍّ أو إنسانيٍّ، أن نحترم رأي الغالبية التي حسمت أمرها أولاً وآخراً، ولم تنجرّ إلى حيث أراد لها المغرضون ذلك، رغم إلحاحهم المدمّر، وهوسهم الدامي، وإصرارهم المحسوب، ونزواتهم المصعّدة، ورغباتهم التي لم

تعد مكبوتة.. بل نزلت هذه الغالبية العظمى إلى مختلف الميادين والساحات بكثافة وغيرية وعفوية وصدق.. في أوقاتٍ أرادتْها، وبشعارات تمثّلتْها، ومن أجل وطن لا يهون عليها هوانه، وعَلمٍ لا ترضى أن ينوس خفقانه!

إن القيام بالواجب في حدود الإمكانية التي يمتلكها أيّ منّا، أمر ضروريّ وملحّ للنفس إحساساً بالحضور الذي كاد لدى البعض يتلاشى، وشعوراً بالثقة المتبادلة مع الآخرين في الوطن، متوافقين أو متخالفين.. وهذا هو الحد الأدنى المطلوب؛ فالمبادرات والانطلاقات والحيوية أمور أساسية ومضاعفة الأهمية في مثل هذه الظروف؛ حتى لو لم تكن في المجال الذي نتواجد فيه، وربما كان ذلك منطلقاً لأفعال أكبر، ومدخلاً لمشروعات أهمّ؛ فالأوقات العصيبة تجعل الإنسان يجترح المعجزات، والأزمات تفتّق الأذهان عن إبداعات، وتساعد في إثبات الوجود لأناس لم يكونوا في الحسبان.. ربما، وفي اتجاهات لم تكن تحظى بالاهتمام المطلوب في أوقات التكاسل والتواكل والتنافس غير الشريف، والنتائج غير الواقعية، والمكاسب غير العادلة..

هي فرصة إذن، وهي ميزة أخرى تحفّز للقيام بالخطو فيها، وعدم الارتهان إلى النكوص والسُّبات والشلل الذي يفقد الكائن أيّ معنى لوجوده، أو لنهوضه.. أليس هذا جزءاً من الغايات السوداء الموجهة

إلى بلدنا العزيز، لكي يكون عاجزاً عن القيام بواجباته تجاه أبنائه، ولكي لا يظلّ عزيزاً حراً مستقلاً، محافظاً على نهجه القومي وحضوره الإقليمي والدولي؛ ناهيك عن شروط القوة التي تتيح استرجاع الأرض المحتلة، والاستمرار في النهج الداعم للحقوق المشروعة، المقاوم لكل احتلال أو عدوان أو تهديد..

***

فإلى أيّ جانبيك..؟!

بدا من بعض مظاهر الأحداث الأخيرة في بلدنا العزيز سورية، ومن خلال تغطيتها والحديث عنها، كأن هناك جهتين متمايزتين؛ الأولى تطالب، والأخرى عليها أن تحقق هذه المطالب! وقد روّج لذلك، وسوّق إعلامياً وسياسياً و(ثقافياً)!

لا شكّ في أن المطالب لا تنتهي مع جريان الحياة المتواصل بهديره أو نوسانه، باستقامته وتعرجاته؛ ويفترض أن تُعلَنَ المطالبةُ بالمحقّ منها، وتشرّع وتتواصل، وليس لها وقت محدد، ولا تخصّ مرحلة بعينها، مع اختلاف إيقاعها تسارعاً وضجيجاً؛ لكنّ الوقائع توضح أن هناك مشكلة في شكل المطالبة والطريقة التي تتم فيها، وهذا لا يقلّل من فحوى المطالب أو أهميتها أومشروعيتها..

ولسنا نحتاج إلى الكثير من الجهد، لنتبيّن أن هناك مشكلات في تحقيق المطالب؛ بل قصوراً وعجزاً وتشوّهاً، هذا إذا لم يكن تصامماً وإشاحة وإهمالاً وابتزازاً.. سواء في الشكل والأسلوب والمدى، أو في المحتوى الذي قد يقزّم أو يجيّر أو يسوّف.. من دون أن ننسى أن مطالب حققت أو هي في طريقها إلى ذلك، ومشكلات عولجت وتعالج..

ولكن..

ليس هذا هو المقصود من الحديث؛ لأن ذلك يبدو توصيف الموصَّف وتعرية المكشوف، وتفسير الماء بالماء!

إن في التقسيم ذاك بين مُطالِب ومطالَب، الكثير من الخطل والتشويش والتمييع، والغبن والظلم..

فالإصلاح مثلاً ليس مطلباً محدداً من قبل أشخاص محدّدين، يعني شريحة بعينها، موجهاً إلى أناس معينين عليهم القيام به؛ إنه مطلب الجميع ويعني الجميع وفي كل حين، ومسؤول عنه الجميع.

والإصلاح ليس كلمة أو محوراً أو جانباً من جوانب الحياة، أو غاية بحد ذاته؛ بل هو سبيل إلى غايات الكفاية والعدل والمساواة؛ أي الكرامة.

والإصلاح رؤية شاملة، ورغبة حقيقية، وهاجس ملحّ، وإحساس دائم بأهميته والحاجة إليه، وضرورة صيانته وتطويره..

ومع هذه الشمولية والتشعّب والأهمّية، تكون المسؤولية عامة، تصيب كلاً منّا بدرجات، تختلف باختلاف الموقع والمهمة والخبرة والكفاءة، والقدرة على الفهم والتفهّم، والاقتناع والإقناع، والمبادرة والاستعداد للتفاعل والمشاركة في الفعل وعدم انتظار ردّ الفعل؛ سلبياً للمسارعة إلى الانتقاد والاعتراض أو السكوت والاحتراق الداخلي..؛ أو إيجابياً للتمتع بنتائجه، والاستزادة مما هو أكثر منه!

والأهمّ من ذلك كله الإحساس بالمسؤولية في تنفيذ القوانين،

مهما كان ذلك بسيطاً، ويبدو غير ذي بال؛ الأهمّ من ذلك كله أن ينظر كل منّا إلى نفسه؛ ماذا كان عليه، وماذا أنجز؟! وما هو المطلوب منه الآن، وماذا يفعل؟! وهذا الأمر يشمل مختلف المواقع وجميع المواطنين؟!

فالبيت أساس، والبيئة عامةً: الحارة، القرية، المدينة، الطريق، الرصيف، الموقف، الساحة، الحافلة؛ المدرسة، الدائرة، المؤسسة، المكتب، العيادة، مقر الحزب، المحرس..

وابتداء من التعامل مع النفس، وأفراد الأسرة، والأصدقاء، والآخرين.. وصولاً إلى التعامل مع المراجعين أو الذين لهم علاقة معنا، ولنا علاقة بهم، وظيفياً ومهنياً..

أليس الكثير من هذا مشتركاً بين المطالِبين والمطالَبين؟!

ألا يتحقّق جزء هام من الإصلاح بقيامنا بما علينا؟!

ألا تغدو المسألة أكثر تفهّماً وأريحية وتقبّلاً وسهولة لدى الآخرين، إذا ما رأونا نقدِم على أن نكون قدوة في تنفيذ القانون، وعدم التساهل في ذلك لدى الأقربين منّا قبل الأبعدين..؟!

هذا لا يعني في حال من الأحـوال التقليل من دور الجهات المسؤولة في تأمين الأرضية القانونية، ورعاية تطبيق القوانين، والتشدّد في تنفيذ إجراءات المحاسبة على الجميع، وأن لا يكون المسؤولون من مختلف الدرجات خارج هذا النطاق، وأن يظهر ذلك على العلن، من دون أيّ حرج أو حياء أو تواطؤ!

وكما أن هناك من احتجّ صافي السريرة، وتظاهر صادقاً مع نفسه، متألماً مقهوراً؛

فلا بدّ من إضاءة أن هناك من لم يتوقف عن المطالبة بالإصلاح ومحاربة الفساد، في جميع الأوقات، وعلى رؤوس الأشهاد، وقد تحمّل الكثير من أجل نضاله في سبيل التصحيح والتقويم، ولم يهُن، ولم ينصع لكل محاولات الترهيب أو الترغيب أو التهزيئ أو التقريع حتّى من المقرّبين ربما، بسبب المعاناة التي أصابتهم بسببه، وقد كان (معارضة) بحقّ وشرف؛ ألا يظلم هؤلاء حين لا يُذكرون، أو لا يُحسب حسابهم، لأنهم لم يتظاهروا أو لم يحتجّوا؟!

لقد انكفأ الكثيرون عن الاستمرار في التظاهر، ممن خرجوا في البداية، ولم تنجرّ الغالبية إلى الساحات والشوارع، وحتى إلى الجوامع لأداء صلاة الجمعة والفرائض الأخرى، بعد أن صارت تُستغَلُّ الجموع الذاهبة إلى الصلاة أو الآيبة منها.. ألا يؤكد هذا أن هناك من هو غير مقتنع بهذه الطريقة، وهذا السلوك وفي هذا التوقيت، وتحت هذه الشعارات أو بعضها على الأقلّ، ومنها ما لا يمتّ إلى الإصلاح والوطنية والإنسانية والمنطق والواقع بصلة؟! ولا سيما بعد أن لم تتأخر أعمال التخريب والقتل الظلامي في الظهور الفاجر والفاجع! ولا بدّ من إخراج هؤلاء المخربين والمجرمين ومموّليهم ومحرّضيهم من أيّ حساب سوى الملاحقة والمحاكمة.

وهناك، للتذكير أيضاً، من قام يطالب مع المطالبين، أو تحمّس لهم، أو كتب أو وقّع من أجلهم، أو عُدّ من قادتهم أو مسيّريهم، في

الداخل والخارج، وهو من غابت قضية الإصلاح عنه قولاً وفعلاً في ما مضى، ويؤكد ذلك الكثيرُ من المظاهر التي تبدّت منه في السلوك والتصرف والقيام بالواجب أو المسؤولية!

ولا شكّ في أن هناك من يماثلهم مواصفات وسلوكاً ونفاقاً في من لم يحتجّ؛ بل إن من مصلحتهم إبقاء الأمور سائبة، والبيدر بلا حراس.. سواهم!

أليست هذه مشترَكات بين الجهتين المطالِبة والمطلوب منها؟! أليس هناك الكثير سواها؟!

إذن..

أليس في الحديث عن جانبين منبتّين مفترقين في الواقع والحقيقة، بصرف النظر عن نسبة هذا الجانب أو ذاك، ما يشوّش ويضلّل، ويجافي الواقع، ويجانب الحقيقة؟!

***

نجوم الظهر!!

ليس من حقّك أن تمنعني من الكلام، أو تتكلّم باسمي، أو تقرّر عني؛ سواك يسمح لي أن أقول ما أريد.. حتى أن أشتمك! بل أن أفعل ما هو أكثر من ذلك، كي ينال منك أيضاً؛ بسببي، بسببك، من أجله، أجلي.. لا يهمّ؛ فأنا حرّ لديه، وأنت تمنع حرّيتي! وتمنع حرّية الآخرين، أو تضيّق عليهم؛ فلا تصل حجارتهم إلى الحارة الأخرى.. إلا إن كانت الطريق آمنة!

ولا تصل هتافاتهم/ هتافاتنا إلى الآذان التي لا تودّ أن تسمعها، لأنّ الوقر أهون من وقعها، فتتلاشى بعد أن تكتفي بتمزيق هدوء الأمان القريب الذي كان.. أو قد تصل عن طريقي إلى الفضاء البعيد الذي ينتظره بلا صبر، كرمى لنا!

أنت غير حضاريّ أو مثقّف.. فلا تحبّ اللوحة التي سنرسمها.. ولا تدع الآخرين يرسمونها، وتصرّفك غير مسؤول، لأنك لا ترضى أن ترعى معرضاً لها، تموّله وتفتتحه وتسوّقه..

إنك تخسر؛ لأن رسوماتنا تزيّن المعارض الأخرى على الشاشات

الفضية؛ لو لم نكن مهمّين، مبدعين، ولو لم يكن فنّنا الأرقى والأحدث، هل كانوا يمنحوننا كل هذه المساند، والوسائد، والتكايا، والتحايا، والأوقات، والأضواء، والمقرّظين..؟!

فاتك الكثير من العلم والمعرفة والرضا والسعادة والسيادة؛ لأنك لم تترك لنا فسحة لنريك حتى نجوم الظهر؛ فنحن نرى ما لا ترى، ونظرنا يسبق زرقاء اليمامة؛ وها نحن نخبرك أنهم قادمون! وستخسر أكثر، إذا لم تتركنا نمهّد لهم السبيل، أو تترك ممثّلينا على الأرض هنا أو هناك ليفعلوا ذلك! لا.. لا تحتجّ بالطرق التي قطعناها بركام عنفواننا، ورماد حرائقنا؛ فهم يستطيعون العبور حتى على الجثث؛ بل يستطعمون ذلك، ويستعذبونه؛ لا.. لا تتّهمْنا بأننا لذلك نصرّ على الإكثار منها، وتركها في الطريق، أو طمرها في مقابر مكشوفة، لأن أصحابها ينتحرون، أو ينحرون بعضهم بعضاً، كرمى لأعينهم التي لا تخطئ الصّيد والقنص من أبعد المسافات.. وليسوا في حاجة إلى كرمنا؛ ولكننا نحاول أن نردّ شيئاً من جميلهم السابق واللاحق، ونعوّض بعضاً من فضائلهم المتواصلة علينا وعلى أشقائنا وحلفائنا غير بعيد عنّا؛ فلماذا تضيق عينك من ذلك؛ هل تريدنا أن ننكر ذواتنا، ونلغي سماتنا، ونفرّط بأدوارنا بأيّ ثمن، حتى لو كان ذلك عل حساب جيراننا وأبناء حارتنا، زملائنا في المدرسة والمؤسسة

والدائرة والسوق.. ورفاقنا في الدرب والرصيف والهواء والشمس والظلال..؟!

هذا لا يعني أننا مغلقون أو أنانيون أو معنيون بشريحة واحدة، أو منطقة واحدة.. معاذ الله؛ نحن منفتحون حتى على القادمين من شتّى بقاع الأرض ليستوطنوا أرضنا، ويلوّنوا حاضرنا، ويبدّلوا مستقبلنا.. وقد تعبوا وجهدوا لتشذيب تاريخنا أيضاً، وتخليصه مما فيه من عراقة وريادة ونصاعة وكرامة.. وشهادة في مواجهة حضورهم الدامي، ووجودهم الظالم؛ ألا يستحقّون الاحتفاء بسعيهم لنجدتنا، ولهفتهم على كرامتنا، وحرصهم الهائل على مصيرنا؟! ألا يستحقون أن نبذل في سبيل حضارتهم، وديمقراطيتنا.. أرواحكم وأرواحنا، وأمانكم/ أماننا..؟! ألا يليق أن نقدّم الضحايا: فتياناً مغترّين، وعاطلين مكدودين، ومحتاجين مأزومين، وناقمين حاقدين، وعقائديين مكفّرين.. وأبرياء عابرين أو قانطين أو ذاهلين أو صابرين، أو طالبين الإصلاح ومطالبين بلا غضب أو حماقة.. وهل كثير من أجل ذلك أن نحسن وفادتهم باستخدام الأسلحة التي يؤمنونها بلا ثمن، وإغراق المتجاوبين بأموال لا يبخلون بها علينا بلا منّة؟! ألا يليق بنا أن نبيع على شرفهم، شرفنا، وأن نقيم لهم الولائم على بساط محمرّ من دماء ضاقت بها الطرقات والمفارق والساحات..؟! وعلى وقع أنّات أُشرعت من مسامات أحبائكم وأدواتنا، ودموع أهرقت من عيون فقدت مرأى أعزاء كثر؟!

فكيف تلوموننا على ما سعينا إليه ونسعى بلا هوادة أو يأس، لأن وراءنا من يخطط، ويدعم، ويرغب، ويتوعّد؟! ولماذا تصمّون أسماعكم عن مطالبنا بالحرّية التي تسمح لنا بتصيّدكم وإلغائكم وإفنائكم، أنتم ومن معكم ومن تمثّلون، ولو كنتم الغالبية العظمى!!

***

حـــــوار!

يمكن أن أفكر بالحوار معك.. لكن بعد أن تعترف بأنك المسؤول الوحيد عن كل ما جرى، منذ وقت طويل، ليس في حيّزي فقط؛ بل في الأحياز كلها؛ وأنت المسؤول عما أصاب البلاد والعباد، من فقدان للقيم وإشاعة مفاهيم الفساد، وما أحدثته العولمة والأتمتة، والحداثة وما بعدها في الإعلام والثقافة والاقتصاد!

وعليك أن تعتذر، لأنك لم تؤمّن لي سبل التحرّك السليم، والتفكير المنطقي، والبحث المشروع لتأمين الحاجات، والسعي الجادّ لتحقيق الذات..

وأنت لم تجعلني بارّاً بوالديّ وأجدادي، ولم تترك لي مجالاً لأتعلّم أكثر، أو أتحصّن أكثر في مواجهة عاديات الزمان؛ فبسببك لم تقبل بي من أردتُ تملُّكَها، ولم ترضَ عني من خدعتُها واستغللتُها؛ وبسببك تتابعت فصول الجفاف؛ لأن الأقدار غضبت عليك من أجلي ربما؛ الأقدار السماوية أو الأرضية، لا يهمّ!

ولا أستبعد أنك وراء ثقب الأوزون، وأنك تتحمل وزر سقوط المعسكر الاشتراكي.. رغم أني لم أحزن لذلك؛ لأن علاقتك به لم تكن تريحني؛ أما علاقاتك الأخرى مع القريبين والبعيدين فلا تصبّ في مجال رغباتي!

وعليك أن تعتذر لأنك تحركت فمنعتَني من أن أصيبك في مقتل، أو تحصنتَ أو تنبّهتَ، فأفسدت عليّ الجاه الذي أنتظر، وفوّتَّ عليّ المكافأة التي كانت في الطريق؛ وعليك أن تأسف، لأنك لم تصادق حلفائي أو متعهّديّ الذين يتمّنون لك شيئاً آخر سوى الكرامة، سوى الحياة؛ وأنك لم تعادِ خصومي، أولئك الذين لم يفرشوا لي الدروب إلى كرومهم، ولم يتركوا لي سلالم إلى قاماتهم، ولم ينحنوا ليسمحوا لي بأن أنال من هاماتهم!

وعليك أن تعتذر عن كل عاصفة مرت، أو كان يمكن أن تكتمل، وأن تعوّض عن كل الأضرار التي وقعت أو لم تقع!

وقبل أن أقبل بالحوار معك، لا بدّ من أن تعفو عن كل جرائري، وتتجاوز عن كل حماقاتي؛ لأنك المسؤول عن عدم هدايتي، رغم أني بلغت من العمر عتياً؛ ولأنك المسؤول عما فعلتُ في أوقات الغفلة؛ فلم تنبّهني، ولم ترشدني، رغم أن العالم لم يبخل عليّ

بالتعليمات؛ وأنت المسؤول عن سوء التفاهم بيني وبين الحياة، وانسداد الآفاق في وجهي؛ فلجأتُ إلى من يشغلني أو ينسيني، أو يمتّعني، أو يرعاني أو يحرّضني.. أنت لم تحمِني من نفسي، ولا من الآخرين، ولم تسلّحني لأرميَك، ولم تسمح لي باستخدام السلاح الذي زوّدني به سواك؛ أعداؤك أو خصومك، أشقاؤك أم أصدقاؤك..

لم يكن من حقّك أن تطلب مني الخطو وفق مبادئك، والإسهام في مشاريعك التي لم أقتنع بها، لأني بعيد عنها، أو لم أفكر بها، لأنها مشاريعك؛ ولا يمكنني موافقتك على أهدافك التي لا تهمّني، لأنها تهمّك!

لم أصفّق لإنجازاتك، ولم أفرح لأفراحك، ولم أحزن لأحزانك؛ فعواطفك لا تعنيني، ومشاعرك لا تحرّك لديّ شيئاً؛ لم أعد أحسّ، أو أشعر!

كان عليك أن تحقق أحلامي أو أطماعي.. أن تتحمل رغباتي أو نزواتي، حتى لو تطلّب ذلك اللعب بعناصرك، وتخريب ما بنيتَ..

عليك أن تعترف بي ندّاً، وأن ترحّب بي، وتفسح لي حيّزاً مهمّاً، حتى لو كان ذلك على حساب مكانك!

عليك أن تقبل بما أريد، وتوافق على ما أقول، حتى لو خرجت من جلدك..

حينئذ لا يغدو مفيداً أن نتحاور أو أن نلتقي!!!

❋❋❋

الشيء بالشيء يذكر!

ذات مناسبة سبقت لانتخابات المجالس المحلية، وقبيل انتهاء المدة المحددة

لانسحاب المرشحين أو اعتماد ترشيحهم، لوحظ أن أحد الذين ترشحوا إلى أحد المجالس لم يراجع في هذا الأمر، ولم يستكمل الثبوتيات المطلوبة لتحديد الشريحة التي سيمثلها؛ فئة العمال والفلاحين، أم باقي فئات الشعب.. فتوجّه إليه من يسأله حول ذلك، بعد التأكّد من أنه ما يزال مستمراً في ترشّحه، أم آثر الانسحاب، ولا سيما أن في بقائه إقامةً لعملية الاقتراع، مع ما يتطلبه ذلك من إجراءات: لجان، وصناديق، وقائمة، وناخبون، واتصالات وتحركات..

ولدى البحث المضني عن الرجل في إحدى القرى النائية والاجتماع به، استغرب المرشّح الموضوعَ من أساسه، وظنّ أن في الأمر مزحة سمجة، ثم سأل بغضب وحنق عن الجهة التي ورطته في ذلك. وكان هذا الشخص محسوباً على إحدى التنظيمات المشروعة التي تفتقر إلى الكثير من المنتسبين! وقد قام المسؤول المزمن عنها بزجّ اسم هذا المرشح المزعوم في هذه الموقعة أملاً في أن يكون له حضور، مع احتمال أن ينال حصة حين يُقسَمُ (البيدر)، وتُوزَّعُ الغلة

على المحسوبين والمنظورين والمسجلين.. حتى لو كان في الأمر عدم واقعية، وبصرف النظر عن الرصيد والقامة والفاعلية والجدوى!

تذكرت هذه الواقعة، ولا أحسب أنها يتيمة في المنطقة ذاتها، أو في المناطق الأخرى، حين بدأ الحديث عن الحال الأفضل المرجوّة في المرحلة القادمة، وفكّر الكثيرون قناعة أو مجاراةً أو تأثراً بالرياح التي تجري بما لا تشتهي السفن أحياناً، بضرورة المشاركة الأوسع لمختلف شرائح المجتمع أو فئاته في الحوار حول ذلك.

ومن الطبيعي؛ بل المطلوب أن يكون الحوار مع الآخر الذي لم يكن مشاركاً فيما سبق بأية درجة مناسبة نائياً بنفسه أو مُنأى بعيداً أو قريباً، بغض النظر عن الأسباب والدوافع حالياً على الأقل؛ فالأهم الخروجُ من الأزمة بأقلّ الخسائر على الوطن

-وهي غير قليلة حتى الآن- والحصولُ على العنب، بدل أن نصرف الوقت والفرصة بالشتم والندب والاتهام، ونتلهّى ونتشفّى بقتل الناطور، ولو بمعونة الشيطان!

واصطدم طالبو الحوار والراغبون به والداعون إليه رسمياً بردّ فعل سلبي من غالبية المعارضين، الذين رفضوا المشاركة حتى في اللقاء التشاوري من أجل مؤتمر الحوار الوطني، فتمّ الأمر في حده الأدنى، وصار البحث (بالفتيلة) عن المعارضين الذين يقبلون الدعوة للقاء حتى من خارج الجهات المسؤولة. وحظي البعض بلقب (معارض)، حتى لو لم يكن له هذه الميزة الملتبسة أصلاً؛ ليس معروفاً عنه ذلك

سماعاً أو عياناً قبل الآن، وليس من الأسماء التي برزت حماستها فجأة حتى في هذه الفترة؛ ناهيك عن تلك التي توزّعت الشاشات والمنابر الإعلامية في وقت واحد ونبرة واحدة، كأنما تلقّت أمر اليوم! وهناك من تقدم لاكتساب هذه الحظوة من جهات (موالية)، وزُجت أسماء آخرين لزيادة الفريق الآخر، ومنهم من لم يعارض قبل ذلك، ولم يعترض؛ ومنهم من سكت بلا موقف، منتظراً جلاء الوقائع على الأرض. أما من دعا إلى الحوار بلا شروط، وله مصلحة بإقامته، (وللجميع مصلحة في ذلك!) فكان يهرع إلى أيّ من هذه الأسماء فرحاً بلقياه، يدعوه ويلحّ في دعوته إلى إحدى جلسات الحوار الذي سيتباهى بإنجازه إعلامياً على الأقل؛ ومنهم من رفض، أو اعتذر بلا سبب مقنع، وآخرون تحججوا أو تدللوا، ومنهم من حضر لقاءات حوارية مفتوحة أو محدودة أو سعى إليها، من دون القبول بإدراجها تحت هذا المسمى؛ فلو كانت حواراً لما حضرها!

الحادثتان تدلان بلا شك على واقع غير صحي للعمل السياسي الحقيقي!

وإذا كان البعض راضياً فيما مضى بنصيبٍ مهما قلّ، لأن حجمه على الأرض لم يكن أفضل، فإن على من يطلب الكثير الآن أن لا يبالغ أيضاً في تقدير فاعليته، من دون أن ننسى الآخرين كل الآخرين ومن يمثلون. ولكن السلبية لا تفيد، واللعب على الوقت والظلامة والجهالة والدماء.. دمار مطّرد؛ فلكل دوره، وليس يصح مبدأ (أنا أو لا أحد) لا الآن ولا في وقت، وعلى الجميع التحلي بالمسؤولية

الوطنية التي تعني الإيجابية في التعامل مع المفهومات والإجراءات الواقعية الصحيحة، من دون الركض وراء أوهام ونزوات ورهانات خارجية لا تستبعد (بل تستدعي) ضرب الوطن وكيانه وتاريخه، وتخريب حاضره ومستقبله، ولن يكون في وسعها تحمل تبعات ذلك أمام الضمير والأخلاق والناس والمستقبل.

***

شـــباب!

ليس مهماً عنوان المحاضرة أو الندوة؛ العولمة وصفاتها ومُضافاتها، الثقافة ونعوتها والمضافة إليه، اللغة وكبرياؤها وقيمها واشتقاقاتها وتاريخيتها.. الأحداث الراهنة وتحليلاتها وأسبابها ومفرزاتها..

ليس مهماً جنس الأديب ذكراً أو أنثى؛ بل للأنثى حظوة ذكرين أو أكثر! ليس مهماً جنس المواد المقدّمة في الأمسية أو الأصبوحة، شعرية كانت أو قصصية أو أدبية مختلطة!

وليس مهماً موعد النشاط، ولا أن يتأخر قليلاً أو كثيراً، حتى يحضر آخرون فيزداد العدد، أو يشرّف الراعي؛ فالرعاية هي الأهمّ، تروّس بها اللافتتة أو بطاقة الدعوة، من دون ضرورة حضوره؛ هو المشغول دائماً برعيته التي لا ترعوي! ولا ضرورة للحوار فيما قُدّم، لأن فيه وجعَ رأس، أو تسارعَ نبض.. والناس في عجلة من أمرهم!

وليس مهماً شكل المُحاضر ومقدرته، ولا خبرة المنتدين وتجاربهم البحثية أو الميدانية، ولا مستوى إبداع الأديب وأدائه ولغته وإقناعه واستمالته للمتلقين..

المتلقون؟! ليس مهماً من يكونون ولا عددهم ولا مستواهم الثقافي ولا أعمارهم..

المتقاعدون هم الأكثر حضوراً، فهم فارغو الأشغال والانشغال، ربما تدفعهم زوجاتهم ليتخلصن من تعليقاتهم، أو يهربون من نقّهن وطلباتهن وتبرّمهن..

المهم أن يقام النشاط الثقافي، ويُسجَّل ذلك في جداول الإنجاز، وتُوَقَّع جداول المكافآت حتى من دون تثبيت قيمة المكافأة؛ لا مشكلة.. ستملأ لاحقاً، أو تُستَوفى الملحقات على المكافأة من فاتورة الغداء أو العشاء..

المهمّ أن تلبّى رغبات طالبي (الظهور) على هذا المنبر، الجوّالين القوّالين المعروفين المكرِّرين المجمِّعين المسجَّلين في سجلات الاتحاد أو المركز أو المديرية، أو المطلوبين من جوار أو (فوق)!

ليس مهماً عدد الحضور، ولا نسبة الشباب فيهم؛ لا يحضرون، ما علاقتنا في ذلك؟! الذنب على التلفزة والشابكة (الانترنيت) والألعاب الحاسوبية.. ولماذا نذهب إليهم؟! المركز الثقافي معروف، والمقرّ.. هناك لافتة تدلّ عليه، والقاعة تقام فيها كل النشاطات الأخرى: الحزبية والنقابية والفنية.. وتكاد تغصّ بهم!

أخي.. الثقافة صوفها أحمر، غير مرغوبة، وغير (بياعة)، والأدب للنخبة، والحوار للمتخصصين.. والكرام قليل!

لا يأتون إلينا.. معشر الشباب؛ ماذا نفعل لهم؟! لا نقصّر في الإعلان.. نطبع المئات من البطاقات، نوزّعها على جميع الدوائر والمؤسسات ومكاتب المسؤولين.. عنّا!

أمّا الصحف.. فمحرروها مقصّرون، لا ينشرون أخبار نشاطاتنا؛ حتى إن نشروها؛ من يقرأ؟! صحفنا لا تقرأ؛ ليس فيها ما يُتابَع سوى التسالي؛ وثمنها.. آ.. عفواً ليس السبب ثمنها.. ولكن.. بطاقات كثيرة تبقى لدينا نعطيها لمن يحضر، لمن يراجع، وللمشاركين في النشاط.. للذكرى!!

الأهمّ أن يقام النشاط، أن يُذكر أنه أقيم.. في القاعة الرئيسية، في قاعة المدير لقلة العدد، على الورق.. لا يهمّ، لم يحضر أحد.. بسبب الوفاة، الطقس، الامتحانات، المواصلات..

ليس مهمّاً حضور الشباب؛ الشباب الذين يحضرون الآن بشكل أو آخر في الساحات؛

الغالبية منهم تحمل الأعلام، والصور، واللافتات، متحمّسين للوطن، مندفعين لدرء الفتنة، والحفاظ على المكاسب، والمطالبة بالمزيد؛ ولا تغيب عنهم المؤامرة وفصولها التي تتكشّف، ويواجهونها حتى إلكترونياً بجيش من إبداعهم!

وشباب آخرون يحملون الحجارة و..السلاح أيضاً؛ غُرِّر بهم، اُستغلت حاجاتهم، مُلئت فراغاتهم بما يريد (الروم) سِوانا؟! الأهل لم يسألوا عنهم، مسؤوليتهم كبيرة؟! لا شك في ذلك! وماذا عن

مسؤوليتنا نحن؟! هل خرجنا إلى الأرياف.. حتى القريبة منها؟! ما عذرنا في هذا؟! الكلفة، التّعب، العذاب، الوقت، الجهد، التواصل..! أم الشحّ في أشياء أخرى:الهمّ الحقيقي، الهاجس الثقافي، المبادرة، الشعور بالمسؤولية..

معلوم لدى كل من له علاقة بالقضايا الثقافية، أن الحضور الإنساني في الأرياف، والتفاعل، والحيوية، والتقبّل.. أفضل منها في مراكز المدن.

كنّا نقرأ لبعضنا بعضاً، ومنّا من لا يحضر إلا نشاطه.. وحين أتينا لنحلّ المشكلة، ها نحن نحاور بعضنا بعضاً، نكتب له، وندعوه للحوار من دون أن نسأل ما رصيده على الأرض، ماذا يمثّل لدى الشباب الذين نزلوا إلى الأرض.. من سمع به من هؤلاء الشباب؟!

الكرام قليل.. كنا نفتتح بها أيّ نشاط، أو نختتم؛ مواساة أو تسويغ للعجز والتقصير والإهمال. سوانا استطاع جذبهم بالأفكار الظلامية، بالعادات الانعزالية، بالمقولات الإقصائية..

فشلنا في إقناعهم أو جذبهم؛ لا لأننا نخبة، ولأنهم جهلة؛ بل لأننا نرجسيون أنانيون.. مصلحتنا في إرضاء من هم فوق، وليس في من هم في عمر الورود كراماً.. غير قليلين، لو كنّا أو نكون كراماً بحقّ، أو نودّ أن نكون!

***

المثقف والحدث

كلما وقع حدث جلل، واهتزت الأركان قريباً أو بعيداً، وزلزلت الأرض زلزالها، ارتفعت الأصوات بإلحاح: أين المثقف؟!ولا تقتصر هذه الأصوات على من هم مسؤولون؛ بل ينتفض الكثيرون من الشرائح كافة للإجهار بذلك.

وليس مهماً إن كانت النوايا صادقة، والغايات نبيلة من وراء هذا الطرح؛ فالسؤال مسوّغ ومطلوب حتى من المثقفين أنفسهم.

لا شك في أن هناك من يسارع إلى القول: الآن تتذكرون المثقف؟! هل تركتم للمثقف دوراً تطالبون به؟! وربما يتردد في النفس: «وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر»!

وإذا كان في الأمر إيجابية لا يمكن تجاهلها، تتمثل في أن هناك من يذكر -ما يزال- المثقف، حتى لو جاء ذلك في باب العتب والاتهام.. ربما!

فإن مثل هذي الحال تستوجب أسئلة أخرى؛ فلا بدّ من أن نسأل أنفسنا نحن المثقفين أو المعنيين بالسؤال على أقل تقدير:

أين نحن؟! وما هو دورنا؟! وماذا نمثل؟!

يمكننا أن نقول مسوّغين، أو قاعدين عن الفعل، أو عاجزين: لم يُفسح لنا في المجال، لم تُنظر إلينا نظرة اهتمام، لم يُفكّر بنا، لم تُقدّر قيمتنا..

و«العبد لا يكرّ»!

ولعل في هذا الكثير من الصواب، ولكن كثيراً من الصواب أيضاً، يكمن في أسئلة أخرى علينا أن نواجه أنفسنا بها:

أين كنا؟! بماذا صرفنا الجهد والوقت في ما أتيح من فسح (ليست كافية ولا مناسبة)، وفي ما شغلنا من مواقع (بصرف النظر عن طريقة الوصول إليها)؟! وما هي رؤانا الاستراتيجية، وخططنا لتحقيقها؟!

أين مبادراتنا للحصول على نوافذ أوسع، وأحياز أكثر إضاءة وحيوية وفاعلية؟!

أم أننا انشغلنا بمكاسبنا الآنية، وبخصوماتنا الصغيرة، ومصالحنا الذاتية؟! واستخدمنا ما لدينا من إمكانيات في حروبنا الداخلية، وغاياتنا القاتمة؟!

هذا ليس جلداً للذات، في الوقت الذي تتطلب فيه الأحداث الإسهام في رفع الصوت، وإسماع النبض، وإعلان المواجع، وإشهار المعاناة لشرائح تخصنا، تعنينا، تأمل منّا..

وهذا ليس جديداً، والشرائح ليست وافدة أو مستجدة.. ولا سيما الشبان منها!

هل أفسحنا المجال للأصوات الجديدة المبدعة في الفضاءات التي قيض لنا أن نصول فيها؟!

هل تركنا كوّة لأعين تبحث عن ضوء، ونحن نشغل الأبواب والنوافذ جميعها؟!

حين يتطاول وجودنا في المهمات الثقافية، والمنافذ الإعلامية (القليلة أصلاً) سنوات، من أين سيطل الشباب؟! حين نستوطن المفارق، والمفازات والجسور، كيف ستعبر الخطا الواعدة؟!

حين نفعل المستحيل لنبقى في مواقعنا، ونستمر في استئثارنا بسرّ(المغارة)، حتى لو أدى ذلك إل التغيير في الانتماءات، والولاءات، والقوانين، والأعراف.. كيف ستتقدم الأجيال الجديدة؟!

حين نتسابق إلى ظلال السلطات، وفتات النافذين، ورنين المتخمين، وأعطيات أصحاب المشاريع التي يفترض أن نكون في مواجهتها.. كيف سنكون المثال الذي يحتذى؟!

الوقت ليس للنعي، والوقوف على الأطلال، وقد شاركنا في الرجم بما هو أكثر أذى من الأحجار، رغم أغلاطنا، من دون التأكد من هويتها وعدم براءتها!

الوقت ليس لتبادل الاتهامات، ولا للتسويغ، والتنصل من المسؤولية؛ «فليس هناك من هو غني بما يكفي لشراء ماضيه»!

وليس من المقبول أن نقف عند: «العبد لا يكرّ..»

بل من المفيد أن نردد: «إذا القوم قالوا من فتى...».

***

من المواجع الثقافية

من المواجع العديدة التي أفرزتها الأحداث الأخيرة في بلدنا العزيز سورية، الحال الثقافية التي بدت واهنة غائمة.

وإذا كان من غير الدقيق الحديث عن الثقافة كوحدة مميزة، فإن هذا يأتي في حيّز المجاز لا الواقع؛ حتى إن الكلام عن المثقفين كجماعة لها ما يميزها، يندرج في إطار المجاز أيضاً.

ومع أنه من المفهوم أن الثقافة غير معنيّة بردٍّ فعل سريع للأحداث أياً كانت، لأنها ليست راهنيّة، أو طارئة، حتى لو كانت الأحوال ملحّة أو ضاغطة؛ فإن الحديث عن دورها في الفعل ذاته؛ أيّ فعل، قبل الحدث، أو تنبئها به، أو تحذيرها منه، أو تشذيبه وتوجيهه وتصويبه، أو استثماره، أو حتى الإشارة إلى أية علاقة لها به، يبدو في واقعنا غير واقعي؛ والنتيجة لا تسرّ ولا ترضي.. ولا يتسع المجال هنا للوقوف على الأسباب التي يتعلق الكثير منها بالمثقفين أنفسهم، وصولاً إلى المؤسسات الثقافية، والأخرى التي لها هيمنة مباشرة عليها أو غير مباشرة، والبيئة والعناصر والإعلام والمؤثرات والظروف والموارد والمخارج..

ولكن يجب القول إن من غير اللائق أن تغيب الثقافة أو تُغيَّب في أي وقت.. ولا يجوز أن تصمت؛ حتى إن كان ذلك أحياناً أهون من الموقف غير الثقافي والحديث غير الثقافي الذي يتولاه (المثقفون)!

والثقافة ليست راية تميل مع النسيم، أو غصناً تكسره العواصف.. إنها، أو يفترض أن تكون، المنارة التي يهتدي إليها من يضيع الجهات، والجذع الذي يتكئ إليه من يبحث عن مسند أمين؛ إنها، أو يفترض أن تكون، الكتلة التي تضمن الاستقرار والتماسك وعدم الانفلات والتشرذم حين يميل المركب تحت وقع تقلّبات الموج؛ والمادة الحافظة التي لا تنحلّ أو تذوب، حين تتعكر السوائل أو تتلوث أو تنسكب؛ والحصانة غير القابلة للاحتراق، حين تصل الشعلة إلى خزائن المؤونة أو خزان الوقود!

فهل تختلف العدالة بين زمن وآخر؟!

وهل يتبدل الحقّ مع تبدّل القاضي؟!

وهل يشوّه الوطن أو يُستبدل أو يتنكّر له بمواقف ثقافية؟!

وهل يتحور مفهوم الوطنية حسب مراكز القوى وهبوب العواصف؟!

وهل من المقبول لدى الثقافة أن يتحول الشارع الهادئ المتنوع إلى شوارع متصادمة، وأن يكون التعرّف القاتل على الهوية بديلاً عن التعارف الفكري؟!

وهل من المنطقي أن تسدد خطابات محرضة أو مهددة أو شامتة في أي اتجاه؟!

وهل تتوه ابرة البوصلة عن الشمال إذا ما تغيرت وضعية حاملها؟!

لا شك في أن من ينحني طويلاً حتى في الأيام العادية لن يكون بمقدوره أن يستقيم أيام الشدة، وإن من يمد يده طويلاً باسطاً كفّه، ليس من السهولة أن يرفعها، ولن تحترم مهما حيّت أو اعترضت!

إن من ينتظر انقشاع العجاج ليحدد موقعه لا مكان له. ومن ينتظر الرياح أن تهدأ ليحدد وجهته لا مكانة له.ومن يتربص بالآخرين، حتى لو كانوا زملاءه وأصدقاءه، ليتّهم الظرف والحالة والتشوّش، لا يستحق أن يقدره الآخرون.

إن (قاطع الطريق) الثقافية لا يمكن أن يغدو حارساً لها، حتى لو انكفأ الحراس أو تواطؤوا أو.. غابوا!

إن من لا يقبل رأياً آخر، أو وجهة نظر مغايرة، أو كلمة مرادفة، أو ينفر من أية رائحة أخرى، لن تكون دعوته إلى الحوار مقنعة، مهما ترافقت مع صفات مرغّبة!

لقد كان واضحاً غياب الخطاب الثقافي أو ندرته خلال المرحلة التي تنقضي.

وليس ذلك دليل صحة، من دون الادّعاء بأن العافية كانت قبل ذلك تكتنف الحال الثقافية؛ كما ليس صحياً أن يهيمن خطاب آخر،

حتى لو كان مفيداً في وقت محدد، لأن منعكسات ذلك لن تتوقف، وهذا يؤكد أن الجسد يشكو والروح تئنّ!!

وحين يقوم آخرون بما يفترض أن يقوم به المثقفون، بلا تنسيق أو ترتيب أو تفاهم، يكون العطب جلياً، حتى لو حاول البعض الاتهام أو التسويغ بأية أعذار؛ فالجزء لا يغني عن الكل، وفي الأوقات العصيبة يظهر الضعف الذي لم يكن من الصعب تمييزه في ما سبق، لمن يريد أو يستطيع أن يرى بموضوعية..

أعود إلى القول: لا يليق بالثقافة أن تُفاجَأ، لأن من المفترض أن تحلل وتستنتج وتتنبأ وتنبّه، وتحصّن..

يفترض أن تقرأ وتفهم وتتفهّم.. يفترض أن تواجه أو تقاوم، أو تقوِّم..

لا يليق بالثقافة أن تُفاجَأ، أو تتفرّج، أو تختبئ، أو تحتار، أو.. تنتظر!

***

السكوت المثقف!

ربما بدا أن في الحديث بعض التكرار والإعادة؛ لكن الأمر يستحق التأكيد والتجديد؛ فهو تعبير عن موقف، والموقف المبدئي لا يتغير، ولا سيما أن الوقائع على الأرض تثبت صحته، والأحداث تؤكد، والاجتماعات والأقوال والقرارات.. والنوايا العدوانية والرغبات القاتمة!

كما أن الظاهرة ما تزال مستمرة؛ أقصد موقف الكثيرين من المثقفين الذين ما يزالون غائبين عن مجرى الأحداث في سورية؛ مع أن شرائح الشعب العارمة استطاعت منذ البداية فهم ما يجري وقراءة ما يراد، رغم إغراء العنوانات ورخامة الدعوات، وها هي يوماً بعد يوم أوضح تعبيراً، وأكثر حماسة في الدفاع عن الوطن والكيان والإنجازات ومسار الإصلاحات الجادة..

ومع حسن النية، كان يمكن أن يُتَفَهَّمَ ذلك في الأيام الأولى، لأن تشويشاً في المشهد العام قد يكون أثّر على البعض، رغم أن ذلك لايمكن أن يكون مفاجئاً لمن يمتلك أدنى قدرة على الاستقراء والتحليل والحضور، وهذا أضعف الإيمان لدى من يدخل حيّز مسمى المثقف، قياساً لما يجري في المنطقة، وما يضمر حيناً، ويجهر

بإعلانه أحياناً عن استهداف سورية الدائم، ومن الطبيعي أن يأخذ هذا الاستهداف أوجهاً متعددة ومتجددة. ربما كان علينا الاعتراف أن المكيدة هذه مدبرة بخبرة وشمولية وحنكة ودهاء وخبث وتقنية ودعم وتمويل.. وتم تمويهها بمسوح عسلية وأساليب مغرية؛ مع وضوح العرض الذي قدمه مسؤولون أمريكيون في وقت مبكر بأن الأزمة في سورية يمكن أن تنتهي إذا ما فكّ التحالف مع إيران وتوقف الدعم للمقاومة في لبنان وفلسطين؛ وهذا موقف معلن وصريح وواضح، كما هو معلن دعم أمريكا وأعوانها وأدواتها لـ(المعارضة)، وتوافق أهدافها مع أهداف العدو الصهيوني وهو ما يعبر عنه باستمرار، إضافة إلى الامتداح الذي نالته هذه (المعارضة!) من رئيس الكيان الغاصب وسواه من المسؤولين الصهاينة.

وإذا كان السكوت (المثقّف) قد ساد طوال ما مضى، فهل يمكن استمرار السكوت بعد ما صدر من عقوبات على شعب سورية الصامدة من الجامعة العربية، التي اندلعت فيها الحماسة (الإنسانية) بلا جمرة حياة أو حمرة حياء، واجتاحتها الغيرة بلا سابق إحساس؟!

وإذا كان البعض من المثقفين ما يزال يجد مخبأ له أو ركناً قصياً، يسكت فيه عن قول الحق، أو يقوله لنفسه أو لقلةٍ بعيداً عن الآخرين؛ أو يقول ما يجانب الحق ويوائم رغبة لديه في الإقصاء والانتقام، حتى لو جاء عن طريق الأعداء التاريخيين أو الرجعيين أو الإرهابيين والخارجين على القانون، منتظراً أن يكون له موقع آخر، فيما لو تغير الواقع.. فإن هناك من يتجاهل ما يجري تماماً، ويكتب في أشياء

أخرى، ومنهم من استشاط غراماً، وكتب ونشر غزلاً صرفاً، أو يكتب في العموميات أو الهموم الصغرى أو المتطلبات الدائمة. صحيح أن الرؤيا لا تتوقف على واقعة، ولا تقف عند حدث، ولا تنحصر في موضوع أو مجال، وأن الحياة تستمر؛ لكن الصحيح أيضاً أن ما يجري في سورية يؤثر على مختلف القطاعات والموضوعات؛ فكيف يمكن لمن يكتب أسبوعياً، أو استلم أو يستلم منبراً ثقافياً أو إعلامياً في ظل (النظام القائم!) أن يتفادى كتابة كلمة واحدة عن الأحداث في سورية، بصرف النظر عما يمكن أن يقول ومستواه وجدواه؟! والسؤال يبقى ملحاً: كيف استطاع أن ينأى بنفسه عن ذلك؟! وأسئلة أخرى: ألم يسمع بالشهداء الأبرياء؟! ألم يقدم التعزية بقريب أو صديق؟! ألم يتحسس لعويل أم وندب زوجة، وصراخ ولد، وحزن والد أو شقيق؟! ألم يحس بالخسران لدى منظر تخريب أو حرق أو تعطيلٍلمجاري الحياة؟! وهل يظن أحد أنه بمنأى عن النتائج السلبية التي حدثت، أو ستسببها العقوبات الاقتصادية مثلاً وما قد يتلوها؟! وهل يستطيع التحليق في سماء سورية إذا ما منعت الرحلات الجوية منها وإليها؟!

لا شك في أن من غير الطبيعي أن يتجاهل المثقف العدوان على سورية أو ينكره، ويتصامم عن أنين الأبرياء، أو يتعامى عن قطاع الطرق وقاتلي ركاب الحافلات المدنيين والعسكريين، المهنيين والعلماء والمدربين، أو يتخلف أو يعجز عن التحرك مع نبض المواطنين الرافضين للإملاءات والحصار والعقوبات، ويتشاغل عن حملات التحريض الإعلامي والكذب المفضوح، وينظّر في الفكر

والثقافة والأخلاق، أو يتحدث عن بطولاته الوهمية، أو أدواره غير المسبوقة في تغيير مسارات الثقافة والتاريخ والحياة..

هل ماتت الحواس أو تبلدت المشاعر، أو تشوهت مستقبلات الاستشعار، أو أظلمت نوافذ الرؤية، وسدت مسامات الرؤيا؟!

وهل اكتفى الساكتون بما يقوله أولئك المجاهرون بالرغبات القاتلة، أو ارتضى ما يفعلون، أم أن السكوت المتصل استحال إلى سبات أو موات؟!

فماذا تبقى من هذا الكائن (العاقل)؟! وما الذي بقي فيه ينبض؟! وما الذي تبقى من قيمته مهما كانت الأحوال، وتغيرت الظروف، في نظر الغالبية الذين يعرفون ويقرؤون ويقدرون ويحترمون من يستحقّ؟! بل كيف ينظر إلى نفسه على أقل تقدير؟!

***

ما أقسى!

يحدث أن تمر الكبائر أمام من يفترض أن يكون لهم إزاءها موقف أو رد فعل على أقل تقدير، بلا اهتمام منه أو تأثر، أو تحسس؛ وهذا ما يظهر بلا كبير عناء؛ لأن الحارة ضيقة، والمنابر مكشوفة!

ويحدث أن يستمر التجاهل أو التعامي أو التصامم زمناً مهماً، يلغي عذر التقري والتحليل وعدم التسرع والارتجال والانفعال، رغم تطور الأحداث الفاجعة، وتكشف الأيدي العابثة، والكثير من أدوات المؤامرة ومخططيها ومتعهديها، وتوالي الوقائع التي تستوجب التوقف عندها والتحرك ربما..

وفي الوقت الذي يتوقع أن يكون السلوك القادم الذي سيحدث، متوائماً مع الحد الأدنى مما يعرف عن هذا الكائن (المنتمي) إلى طليعة أو نخبة أو شريحة متميزة، أو جهة مقدرة.. يستعر «النشاط» في أشياء مبتذلة، وتتوفز الحيوية في قضايا هامشية، ويجود الكلام في حديث عام، وأفكار معوّمة ومصطلحات حيادية، وقد يتبدى الاهتمام بالتعليق تسفيهاً أو تسخيفاً أو تمويهاً أو تمييعاً.. بما يشبه شغب الأولاد الذين يحاولون لفت الانتباه بأي طريقة؛ هذا إذا ما حاولنا أن ننظر إلى الأمور بحسن نية ليست في مكانها؛ لأن البراءة مفتقدة،

واللهو في الوقت الضاري جريرة، والاستخفاف إهانة، والاستهتار بالمصائر والأحزان تحدّ وعدوانية!

ويمكن أن تكون في الأمر غاية التشويش والإلهاء والإشغال بمعارك جانبية، كما يمكن أن يكون في ذلك تسجيل مواقف (عظيمة) مجانية، في الوقت الذي تضيع فيه المواقف المطلوبة والمتوقعة والمؤثرة والمعبرة عن شعور أو قناعة أو رؤيا!

ولا يفيد التساؤل الملحّ، وإن كان مكروراً، عما وراء ذلك: الضحالة أو القصور أو العجز أو الهروب أو الجبن أو الانتظار!!

كما قد لا تفيد الأماني بأن تكون الحادثات قد أظهرت الغثّ والسمين، على الرغم من أن الحال لم تكن مخادعة كل هذا المقدار؛ فقد كان معروفاً -وما يزال- أن من يطفو في الواجهة ليس ثقيلاً؛ كما كان مقروءاً أن من وصل ليس بالضرورة صاحب السبق الحقيقي؛ ففي الطريق ناقلات ورافعات ودافعات و«منشطات» تمنح لهذا، وتمنع عن ذاك!

ولعل الكثير منها ما يظهر الآن، أو تبدو آثاره، بما هو محزن وكارثي، يصل درجة الاتهام بلا ذنب وإقامة الحدّ..!

ولعل ذلك أيضاً ما يمنع هذا أو ذاك من الحديث في العمق أو التبصّر في الجوهر، أو التصرف بمنطق، واتخاذ المواقف المسؤولة!

وهذا ما يثير حالات يصح الكثير منها، ويفرض نفسه!

فما أقسى أن تجد الكبير -كما كان يبدو- في موقف الصغار، وما أصعب أن ترى من كانوا معاً في الحارة أو الصف أو المعمل، أو المؤسسة، أو المنظمة، أو الرأي -أو هذا ما كان يبدو- يتخاصمون بلا سبب مباشر؛ وما أفظع أن يكون الحكم الفصل للهراوة والسلاح «الأسود» والرؤوس الفارغة، أو المحشوّة أوهاماً وأقوالاً قاتلة وإدانات مسبقة!! وهل يمكن أن يقوم الحوار بين القلم والعصا، أو بين الكلمة والحد الأعمى، أو بين المنطق والفتاوى الظلامية، أو بين العبور والحاجز، أو بين الخطوة والحفرة؟!

وما أمرَّ أن تجد من كنت تنتظر دفاعه عنك، ووقوفه إلى جانبك إن احتجت إلى نصير، في موقف الشاهر عليك جميع الأسلحة المدعمة بما يعرف عنك، وما استقاه منك طوال مدة الوصال.. وما من سبيل إلى العتب أو اللوم، لأن الفاجعة تكبر، والوقت لا يسمح.. وهل من فائدة في البحث عن المرتجى ممن كان -ما يزال- يحمل لقباً مميزاً حصل عليه في ظل ما كان، وتسنّم بوساطته المهام، وتربّع على المواقع، وصال وجال.. وتنكّر وتبجّح وتعارض؟! وهل من جدوى ممن كان يوسَم بما أمّن له الحضور والظهور والدلال والاحتفاء، والأمر بما رغب، والنهي عما كره.. وقد صار، بين رنين وأنين، في موقف مغاير، وشكل مختلف، وقول مقلوب وممارسة منكرة.. وصار دفئه برودة، والقرب منه خطراً، وكلامه تسويقاً للجهالة، وتسويغاً للضلالة، وتعمية عن الحقائق بعد عماء أو استعماء؟!

وتزداد المرارة حين تجد نفسك في معركة كنت تظن أن زمانها فات، وأدواتها صدئت، و»فرسانها» ارعووا.. وقد كثر الغاوون وقلّ الرشد، وغزية عادت غزية التي كانت!!

وتتضاعف الحسرة حين يكون أناس منذورون لموقعة أكبر، وهدف أغلى، ومناسبة أعظم، مهيئين لها ومستعدين لخوضها في مواجهة أعداء معروفين متربصين مجاهرين.. فتجدهم يسقطون بسلاح أقرب، وغدر واستباحة وخسة..!!

الكبير لا يصغر، يظهر ذلك في الملمات، والعزيز لا يهون؛ فالشدائد مختبر، والمثقف والمتعلم والتقي والمفكر، المكبّر والواعظ والداعي والمفتي.. لا يسقطون لدى أول هزّة، ولا يشاركون في الجهالة، ولا يصمتون!

والتاريخ لا يرحم، والإنسان لا ينسى، والضمير لا يرتاح، والصدق والموضوعية والأخلاق الكريمة..

***

سنوات..

سنوات وسنوات تمضي، وأنت تمضي في طرقاتها المشرعة، بين مدنها ومناطقها، بلداتها وقراها بلا تردد ولا فتور، تندم إذ تغفو عيناك نهاراً بتأثير ساعات السفر أو السهر، لأنك ستفوّت مشاهد من البساتين والغابات والصحارى، والبيوت المتنوعة مواد وأشكالاً، والبشر المنثورين على المفارق والطرقات، في الحقول والحواكير، أو السارحين مع الهموم والأماني والقطعان..

سنوات وسنوات، وأنت تتوقف في المحطات المكتظة، وتنزل في الاستراحات العامرة بالحركة والناس في أي وقت، لا الليل يحدّ منها، ولا النهار يكفي..

أمسيات أدبية، وندوات فكرية، مهرجانات ومسابقات؛ نشاطات ثقافية متواصلة فصولاً ومواسم.. والدعوات تترى، وأنت تلبي بحماسة؛ فهذا معناه أصدقاء قدامى ومستجدون ومعارف جدد، مثقفون وأدباء ومتابعون، من مختلف الشرائح والأطياف في الجهات المتواشجة، والأركان الدافئة، روح عليا وحيوية وإنسانية؛ مراكز ثقافية، ومقرات اتحاد الكتاب العرب، ومواقع عديدة أخرى..

سنوات تمضي، وخطوك لا يتباطأ أو ينقطع، حتى صار لك في كل مدينة بيوت، وفي كل قرية أخوة لم تلدهم أمك؛ لم تسأل عن

هوية، ولم تقف على حاجز، ولم تشعر بخوف، ولم تقلق.. تنطلق فجراً أو مساء، تصل في الصباح أو في الهزيع الأخير من الليل؛ لن تنقطع، ولن تحس بالوحدة أو بالغربة.. هناك من يستقبلك، هناك من يودعك، يوصلك، يدلك.. ولا تحتاج إلى دليل؛ فأنت في سورية وطن الودّ والأمان، الألفة والرحابة، السماحة والثقة والعنفوان.. العراقة والتاريخ والسلوك الحضاري الأصيل، معتق نخبه في الحاضر، رُقيٌّ وأنفة واعتزاز! هكذا كنت تحس مثلاً وأنت تقف في الثالثة فجراً في محطة هنا وأخرى هناك، قادماً من أقصى الشمال الشرقي إلى تخوم البحر، أو مغادراً إلى أقصى الجنوب الغربي.. وغير ذلك كثير؛ فلم لا تسارع إلى المشاركة والحضور إلى بيادر الثقافة، وموائد المعرفة؟! ليس من شروط ولا مواصفات مطلوبة، لا يهمّ عدد الحاضرين، وإن كان في ذلك كلام قيل ويقال في مناسبات أخرى، لكنه ليس شرطاً؛ فالهاجس والمسؤولية والحماسة وحب الالتقاء والتوادد والتراحم.. أهم وأقوى.

لا شيء يمنع سوى انشغالات ملحة، ودعوات أخرى.. لا أمر يحزنك إلا تَرْكُكَ أناساً كنت معهم ساعات أو أياماً، ولا بدّ من الرحيل.. لا شيء يقيّد إلا أوقات النشاطات ومواعيد الرحلات.. آناء الليل وأطراف النهار..!

اشتقت إلى تلك الحالات..

ما للدعوات قليلة، بلا إلحاح، ومالك لا تلبي بلا عتب؟!

ما الذي حدث؟! ولماذا تقطعت السبل، وقلت المناسبات، وتباعدت المسافات، وابتردت حرارة الاتصالات.. إلا للاطمئنان

على السلامة! السلامة التي باتت هي الهدف الأكبر، بعدما افتقدنا ما كان تاجاً على رؤوسنا جميعاً، وكنا نراه، ويراه سوانا المبتلون بداء فقدانه، الحاسدون والأعداء الذين سعوا لأن نصاب بالعدوى.. فاتفقوا علينا، وهم يعلمون أنهم لن يشفوا منه!

من أين جاء كل هذا الحقد؟! كيف أنبت كلّ هذا الشر؟! ومن رعاه وسقاه وجناه وسوّقه؟! لماذا تحركت هذه النوازع المدمرة، وسادت هذه السلوكات الغابية؟!

الناس هم الناس، والمدن هي المدن، والبيوت والطرقات والحارات والجيران.. لم يتغيروا، ولكن تغير ما بأنفسهم؛ وليته لم يحدث!

لماذا هذا القتل المقصود، والرمي الغريزي؟! لماذا التمثيل والتقطيع؟! لماذا هؤلاء الضحايا: العامل العادي، والموظف الصغير، والطالب والتلميذ، ذلك الطبيب وذاك العالم، الأستاذ الجامعي، والمدرّسة، الجندي والضابط..؟!

لماذا هذه المدرسة وذاك المصح، هذا الجسر وذاك الدوار، هذا الخط النفطي، وذاك الغازيّ؟!

أيّ انقضاض همجي على كل شيء مشرق، لماذا يُستهدف كل ما هو واعد؟! لماذا هذا الانحدار والتقهقر والسقوط المذل؟!

أمن أجل حفنة من الأموال، أو غندرة ببارودة ليست للصيد الطائر؛ بل للقلب المطمئن، أو تمنطق بسيف ليس ذا نخوة؛ بل للغدر والنذالة؛ وأين العفو عند المقدرة، وإكرام الضيف، ومساعدة الملهوف، ونجدة المستغيث، واحترام الجيرة حتى المرتبة السابعة؟!

ومتى كان منا من يحاكِم غيابياً، ويتّهِم بالانتماء، ويدين بالشبهة، ويقضي بالحكم المبرم، وينفذ الحكم بأبشع صورة؛ يعذب ويشوه ويسمل، ويمثل حتى بالجثث؟!

أي دين، وأي ثقافة، وأي عقيدة، وأي فكر، وأي رسالة، وأي عهد، وأي مرجع، وأي فتوى أو أمر أو قرار..؟!

ومن المستهدف، ومن المستفيد، وكم هي الخسارة، ومن الذي سيدفع، وكيف سنشفى من الصدوع والكوابيس والاكتئاب والحمى؟!

أسئلة توجه أولاً للمثقفين، والمتعلمين، والساكتين عن الحق!

أسئلة توجه أيضاً للقادرين على الفعل الطيب في أي موقع وموقف!

وللمنخرطين بلا تبصر، المتحمسين بلا أفق، المتحفزين بلا رؤى!

وللمسؤولين عما جرى ويجري بلا قصد لئيم، أو غاية سوداء، أو نية قاتمة!

أما الفاعلون ومن وراءهم ومن مولهم وساعدهم وأيدهم علانية أو خفية في الداخل والخارج؛ فلا كلام لهم أو معهم، ولا لقاء!!

***

ما يزال..؟

الوقت لدنٌ والأوقات شوكية، رغم أن في الآفاق آمالاً، وفي الرؤى إشراقات؛

فالأصوات تعلو، والخطو إلى اتساع..

تستطيع أن ترفع الصوت والراية، بإمكانك أن تمضي أسرع، وتخطو أكثر فأكثر..

فهل ستضيع نبرتك في الضجيج؟! وتتلاشى أصداء أقدامك الهدارة؟!

أنت تعرف أن إيقاعك واثق متوازن مضبوط، وليس وليد اللحظة أو الفورة.. لكن الإيقاعات غزيرة، والنبرات متشابكة..

أنت تعرف أن مسارك واضح، عريق، والجهة بيّنة، والغاية نبيلة.. لكن الكثيرين يزدحمون في الطريق، يسابقون ويتسابقون، في السمت عينه!

لا شك في أن الغبطة تُنديك، والسرور يراودك، والتفاؤل لم يبرح تفكيرك، والوصول لم يقصّر عن خيالك، والحماسة لم تفتر، والتحفّز لم ينُس... رغم كل ما مرّ من فصول التنكّر والتضليل، والضّيق

والتضييق، والتيئيس والتحسّر، ورغم طقوس التقريع والشماتة والهجران.. لكن قلقاً لا يخفى، يصل إلى ملامحك، وحذراً مشاكساً، يظهر في حركاتك؛ فالقوّالون تعرفهم بعلاماتهم الفارقة، وقد ازدادت بروزاً من خلال مسيرتهم الضاجّة وسيرتهم الفاقعة؛ وأصواتُهم التي تعلو مبحوحةٌ من التصويت في مناسبات أخرى مختلفة، أو مناقضة، ومن الطبيعي أنك لم تكن فيها! والمتدافعون تتبيّن ملامحهم التي تلهث من الجري إلى جهات أخرى، لم تخطر في بالك، رغم التلويح والتجريح، ولم تعرفها بوصلتك رغم تكاثف المرغّبات، ولم تشر إليها قرون استشعارك، رغم الرّوائح النفّاذة، والألوان الأخّاذة!

أنت تعرفهم حقّ المعرفة.. وتعرف مدى قدرتهم على التحوّر والتغيّر، وتعرف إمكانياتهم في التضليل والتسفيه والتقنّع؛ وهمْ كثيرٌ، وهي فرصتهم لينالوا منك بسلاحك ذاته؛ وهي أدوارهم لحصارك بما أنت تدعو إليه؛ وهي أساليبهم للحصول على «الحمّص من جميع الموالد»..

أنت تعرفهم، وكثيرون يعرفونهم؛ لكن للضجيج صوتاً غالباً وآثاراً مصمتة، وللزحمة فصولاً غائمة وآفاقاً مغبرّة..

المشكلة ليست في الخطوات المشروعة والأقوال المشرعة، ولا في الشعارات النبيلة، ولا في المسارات المقدرة، ولا في الأهداف المعلنة.. ومن يحاسب على النيّات ليس في الأرض!

المشكلة ليست في التوقيت، ولا في التلميح أو التصريح، وليست

في الوسيلة ولا في الآلية، رغم أن لديهم القدرات والطاقات..

المشكلة أن هذه شعاراتك، وتلك أفكارك.. ولن تتخلى عنها.

والخوف من البثور التي سيتركونها على المَشاهد، والتشوّه الذي قد يظهر على اللوحة، والحفر التي سيخلفونها في الطريق..

من المؤكد أنك لن تتراجع، ولن تبدّل، أو تتبدّل؛ فالأمر بالنسبة إليك ليس عارضاً أو مرحلياً، وليس نزوة عابرة، ولا رغبة تنقضي..

الأمر ليس مكابرة أو معاندة أو انتقاماً، وليس مساومة أو مزاحمة، أو مناورة..

ومن المفروغ منه أن الغاية ناصعة وقيّمة، ولن يتغير السمت، ولن تخف العزيمة، ولا تضعف الثقة، ولا تتردد الخطا، ولن تنشغل عن القصد بمن يدّعون؛ ربما يكون هذا مقصوداً؛ ولن تضيع عن الهدف لأنهم إليه يصوّتون؛ فقد يكون هذا هدفاً آخر!

لكن الوقت لدن والأوقات شوكية، والتفاؤل ما يزال..!

***

الحقّ والقاضي!

أن تغمض عينيك فلا ترى المشهد قصداً أو عفواً، لا يعني أنه غير موجود، ونكرانك وجود العناصر فيه والكائنات، لا يلغيها؛ أما أن ترى غير ما هو كائن، فذلك لعلة في نظرك أو وعيك أو إرادتك!

قد تَظلم التوصيفات المتداولة ما هو قائم، وتُضلِّل التقويمات المتوارثة ما يحدث، وتُفسد المراهنات المسبقة السباقَ الذي قد لايكون لنا فيه خيل ولا بيداء، وتَستغل الادّعـاءات اللاحقة النتائجَ، وللفوز -كما هو معروف- عدد لا يحصى من أولياء الأمر! ولسنا معشرَ المثقفين أصحابَ النفوذ، وإن ادّعينا ذلك أو توهمنا، وصدقنا! ولسنا أصحاب الحقّ الوحيدين في التحليل والتشخيص والتقويم، وإن كان ذلك من واجبنا دائماً، ومسؤوليتنا لا تتوقف على زمن وأحداث ومشاركين ونتائج؛ ودورنا ليس إسعافياً؛ بل هو تراكمي، تظهر أهميته وتتأكد جدواه في أوقات الأزمات التي تصيب المجتمع بمختلف شرائحه وعلاقاته؛ وهو قد يكون مدمراً إذا كان تدخّلنا قاصراً استفزازياً محرضاً انتقامياً؛ وليس حضورنا طارئاً، وهو ضروري في كل وقت؛ وليست الثقافة خاتماً يطبعنا فنشهره آناء العبور الاضطراري أو المصلحي، أو الانتهازي أو الهروبي.. وليس خطابنا

الوحيدَ الذي يُسمع، إذا ما كان يُسمع في الواقع إلا إذا وافق وتوافق وسوّغ وأيّد وصفق!

إن للآخرين حضوراً ودوراً ورأياً وتأثيراً.. بصرف النظر إن كنا أقصيناهم من تفكيرنا ورؤانا ومشروعاتنا ترفعاً أو تعالياً أو تغافلاً أو تجاهلاً..

فكما كان لبعض الخطاب الديني تأثير تهييجي تضليلي فتنوي، تماهى مع خطاب سياسيين و(مفكرين) وإعلاميين و(مثقفين) في الداخل والخارج، كان لبعضه الآخر إضاءة وتفنيد وتصويب وتحذير وتنبيه من مؤامرة مدبّرة ومخططات محضّرة أو خرائط مرسومة.. يقف وراءها الأعداء التاريخيون للأوطان والشعوب الحرة، ولبلدنا بالذات، والعملاء المحرضون والمروجون والمزيّنون.. أدوات لها!

وقد تماهى هذا الخطاب العقلاني، رغم الضغوط والآلام والحيثيات، وتساوق مع خطاب المثقفين والمفكرين والسياسيين المخلصين للوطن والأخلاق والمنطق والمشروعية والإنسانية في الداخل والخارج أيضاً، ومواقف أبناء الشعب على اختلاف أطيافهم وظروفهم وبؤسهم وتضحياتهم..

ومن الناس من تحمّل العبء في محيطه وبيئته، ورفض الانقياد القطيعي والانسياق المأجور، فخُطف وأهين وضرب وعذب وقتل.. وكبريات ذنوبه أنه دعا إلى المصالحة ونبذ الفتنة، ورعاية حق المواطنة والجوار، وسعى إلى ذلك حتى بالقول ناهيك عن الفعل؛ ومن

الضحايا من كان لسكوته عقاب، ولقناعاته المغايرة ثمن، ولانتماءاته التي لا يملك حيالها رأياً أو مشورة أكثر من أذية.. وصلت على حد الاغتيال، حتى لو كان مستخدماً أو طالباً أو معلمة، أو صاحب بقالية أو عابراً، أو طبيباً أو أستاذاً جامعياً أو عالماً أو مخترعاً!

في الوقت الذي وقف الكثيرون خلف شعارات براقة ومصطلحات مخاتلة، عبارات وتنظيرات وتحليلات تصح في الأذهان، وتشرع في الشاشات والمنابر الإعلامية المتوفزة والمستنفرة، وتُستغل في الميادين التي تمارس فيها أبشع الأعمال، وتنفذ فيها أفظع الوقائع.

وكما أن لهذه التنظيرات مراجعها ومنظريها ومفكريها، كما أن لها مستغليها ومشوهيها وأصحاب الكلام الحقّ الذي يراد به باطل، فإن لأصحاب الخطاب الديني القاتم مرجعياتهم وفتاواهم وتأويلاتهم.. التي تتناقض مع السماحة والاحترام والتقدير والسمو.. الخصال التي يكنّها الدين للإنسان العاقل الذي خلقه الله على مثال صورته!

وبدلاً من أن تكون المعرفة والعقيدة والثقافة والطلاقة والسمعة والخبرة سبيلاً إلى الوعي والتقدم والتحضر والتشارك والتعاضد لبناء الإنسان والوطن، فإن من المفارقات أن تستخدم كل تلك الإمكانيات لدى أصحاب النوايا الخبيثة لغايات شريرة، فيقدمون أدلة وأمثلة ومرويات قد لا يعرفها العامة، يجترّونها ويحوّرونها أو يحرّفون معانيها، ويفبركون أخرى أو يتبنون ما لا يثبت، ولا يدققون في صحته، فتنطلي المسألة على البعض عجزاً وقنوطاً وصَغاراً، والأنكى أن يكون من بين متمثّلي ذلك بعض المسؤولين وأصحاب المواقع

في مختلف المجالات الثقافية والدينية والسياسية والاجتماعية؛ كما قد يربح محام بارعٌ في اللغة والفصاحة والنبرة والإيقاع دعوى باطلة، لأن خصمه أخفق في إثبات حقه، وسكت القاضي عن القول العدل، في الوقت الذي تقود السليقة والمنطق العام والوجدان والضمير والإنسانية.. كائناً عادياً إلى الخيار الصحيح، مترفعاً عن فوائد آنية ومصالح شخصية وأهواء ونوازع وقبليات، ومتحملاً في سبيل ذلك العناء والأذى..

تُرى.. ألا يعرف الحقّ غير القاضي؟!

***

الشعب المثقف

نعم..

كان هناك نقص في المعلومات والتفاصيل، وما يزال.. ربما!

كان هناك غموض في بعض ما يجري على الأرض، وما يزال.. ربما!

كان هناك شائعات ومبالغات وتشويش وعدم وضوح في بعض المواقع، ربما!

نعم..

هناك وهنا.. فساد وهدر، وممارسات غير حضارية وسلوكات غير مسؤولة، أسهمت في وصول الأمور إلى هذي الحال التي آلمتنا!

لكن..

هل يؤثر هذا على الموقف الوطني؟!

هل يتعلق هذا الموقف بما يجري الآن، وما يُشاهَد الآن، وما يُعرض في هذه الأوقات، فحسب؟!

هل ينتظر هذا الموقف اعترافات وبيانات وانسحابات وشروحات

وتفسيرات، وانجلاء الغبار غير الكثيف في المواجهة المكشوفة، ومواقف الآخرين.. ولو بعد حين؟!

ألم تتردد شعارات سوداء لدى المتظاهرين في وقت واحد وأماكن متعددة؟!

ألم تظهر دعوات جهادية وأمارات الظلام وأدوات الجاهلية وعلامات المُريب؟!

هل نحتاج إلى أن تتناولنا الفتنة وقوداً لنستشعرها ونستنكر؟!

أليس في استطاعة المتابع المثقف أن يكتشف مَنْ وراء وما وراء، وكيف ولماذا، وإلامَ؟!

وهل هناك حيادية في القضايا التي تمس أمن الوطن وحياة المواطن وكرامته؟!

تـرى.. ألم يكن خلال سنوات في المنطقة أحـداث كبرى، ومواجهات مصيرية، وضغوطات ومساومات ورهانات..؟!

تـرى.. ألم يكن خلال سنوات في المنطقة أحـداث كبرى، ومواجهات مصيرية، وضغوطات ومساومات ورهانات..؟!

تـرى.. ألم يكن هناك موقف؟! ومتى يمكن أن يكون هذا الموقف؟!

و..

لماذا لم ينتظر الشعب السوري الكثير حتى يُظهر هذا الموقف الوطني النبيل؟!

لماذا حسمت الغالبية الساحقة من الشعب السوري الأمر مبكراً، ولم تنجرّ إلى الشارع، تلبية لدعوات وتعليمات وأوامر قريبة وعابرة للقنوات والترددات والشبكات؟!

كيف اكتشف الشعب بغالبيته زيف الإعلام الخارجي، وخبث أساليبه، ولؤم عدوانه؛ وأحجم عن متابعته، رغم عدم كفاية الإعلام الوطني؟!

لماذا استطاعت الشرائح المتعددة المتنوعة المتواشجة تجاوز الفتنة المدمرة، وموقظيها الملعونين، وروائحها النتنة، ودخانها القاتم، ونيرانها الشاحبة؟!

وكيف تنادى أهالي الشهداء من مختلف الأطياف، ومن بين الدموع، ورغم الدماء والتمثيل بالأعزاء، إلى الاعتزاز بالشهادة، والاستعداد لتقديم المزيد فداء للوطن؟!

هل الثقافة قراءة وكتابة ومنابر وأناقاتوحماسات وانفعالات آنية، أوقاتَ المكافآت والدعوات والمناسبات والنشاطات والمهرجانات والولائم.. فحسب؟!

هل الثقافة نشر وزوايا وإصدارات وسلاسل ومهمات وموسوعات.. فحسب؟!

هل الثقافة تدليس وتلفيق ومحاباة ومدائح، أو منافسات ومناكفات وخصومات وأحقاد..؟!

هل الثقافة إطلالات مضاءة ومحسوبة وموصوفة، وعروض

وفروض وطقوس موسمية أو حسب الفصول؟!

وأين الوعي من الثقافة هذه؟!

أليس في المواقف الشعبية الغالبة ثقافة ونبل، وإحساس عال بالخطر الداهم، والمؤامرة المعلنة؟!

أليس في هذه المواقف المسؤولة وعي ذاتي، وقدرة كامنة على الاستشعار والاستكشاف والتبيّن، وإيمان بالله والنفس، وتقدير للإمكانيات والقيادة، ورسالة إلى الصامتين، والغافلين والمخربين والقاتلين..، والمخططين والممولين والمضللين والمتآمرين.. واعتزاز بالدور والحضور والفاعلية، وعزيمة على المقاومة والصمود مهما بلغت التضحيات..؟!

لم يحتجِ الأبناء الشرفاء الطيبون إلى بيانات، ولا إلى خطابات، ولا إلى توجيهات، ولا إلى دعاة.. فقد كانوا الداعين والمدعوين، في الدفاع المشروع عن النفس والممتلكات والبيوت والأهل والتاريخ والمنجزات.. لأن الوطن مستهدف، والمصير على كف شيطان؛ فلم يبخلوا ولم يتبلدوا!

نعم..

الشعب أسقط القناع، وأحبط المؤامرة، وصدّ العدوان، ووأد الفتنة!

التحية والتقدير والعرفان والعزة.. للشعب المثقف!!!

***

الأوفياء!

.. وما يواسي أن من بني البشر أناساً أشقاء وأصدقاء، صدقوا حقاً ويصدقون، خبروا ما تعرضت له سورية، البلد العزيز المقاوم، عبر السنين، وعرفوا حقيقة ما تتعرض له بشكل مباشر ومفضوح، ويدركون مدى الظلامة التي يتحملها أبناؤها، وحجم الضلالة التيتضخّ ضدهم..

فقاموا، كما في كل وقت مضى، ومنذ الأيام الأولى للتحركات المخادعة، والشعارات المناورة، يقولون قولة الصدق، ويقفون وقفة الواجب والمسؤولية، لا لمنفعة شخصية، ولا لمكتسبات آنية؛ بل قراءة للواقع القريب والمحيط والبعيد، ورصداً للمواقف والمواقع والأحـداث، وانتصاراً للحقّ، وتنبيهاً لمن يرى ويسمع ويحس، وتحذيراً مما يكيده الكائدون، وانسجاماً أولاً وأخيراً مع كياناتهم، تكاملاً بين المبدأ والممارسة، ومواءمة بين القول والفعل، والفكر والسلوك..

لو كانوا منافقين، كما العديد حتى من أبناء البلد، لتربّصوا على الأقل،في انتظار سقوط سورية، ولأفتوا، أو صدّقوا الفتاوى التي تنهمر على السوريين.. أحقاداً وفتناً وحصارات ومقاطعات؛ لو كانوا

أدعياء أو شامتين، أو منتقمين، لقرؤوا الفاتحة على سورية، كما فعل سواهم في الداخل والخارج، تمهيداً لاقتسام الغنائم، حتى لو ترافق ذلك مع أنات وزفرات، وأشاعوا ظلاميات وجهالات..!

لو كانوا تجار مواقف وسماسرة جثامين، لانضموا إلى أعضاء الجوقة، الذين بدؤوا بالندب والنواح على ما كان ويكون، وهم يمشون في الجنازات التي شاركوا في تسييرها، وتباكوا على الضحايا ممن كان لهم في دمهم نصيب؛ ها هي المنابر الإعلامية العديدة المتشارسة، والمواقف المشرعة، السابقة واللاحقة، عداء وظلماً وافتراءات..

لكن الأوفياء من العرب وغير العرب، أبوا إلا أن يكونوا بارّين ومتوازنين وجادّين ومضحّين، ومخلصين لتاريخهم ونضالاتهم وكراماتهم التي تشهد لها سورية، كما تشهد لها ساحات أخرى، ومناسبات كبرى.. وقد تحملوا فيما مضى، وتحملت سورية معهم، ومن أجلهم، الكثير من المواجهات القارسة..

وها هم يتحملون الآن من أجل سورية، كما تتحمل، هذه الهجمة الأشرس والأوسع والأشمل، والأكثر افتئاتاً ودموية ووحشية!

الشرفاء من العرب وغير العرب، مثقفين ومفكرين وأدباء وفنانين وإعلاميين وسياسيين ومحامين وتربويين واقتصاديين وعلماء اجتماع ومحللين.. لم ترهبهم الأنواء، ولم تغرهم كل الأضواء، ولا شغلهم الرنين عن الحنين إلى الألفة والصدق والنبل والوداد..

لم تشغلهم كل مرغبات الدنيا عن اتخاذ الموقف الحقّ،ورؤية المشهد الحقّ، والتمسكبالمبدأ الحقّ، ولا شكّ في أن ما يتعرضون له مضاعف القسوة بالغ الأذى، يتناسب مع قوة الخيار، وشدة تأثيره، وعمق فحواه، وأصالة معناه؛ لأنهم يقفون في الجانب الذي اقتنعوا بصوابيته، هذاما أملاه المنطق والتفكير، الإحساس الصادق والعقل الخيّر؛ لأنهم يُعثرون الخطو (العالمي) الجموح للتخويض العكر في أرض الشهامة والكرامة؛ ولأنهم فضحوا الساكتين المنافقين الناكرين.. عرباً وغير عرب، حتى من أبناء البلد نفسه، فانزعج منهم من انزعج وأشهر ذلك، ومنهم من اكتفى بمحاولة النيل من المواقف الشريفةلهؤلاء الذين يُحبطون، مع أبناء سورية الأباة الكرام، المخطط الذي تعب أعداء الإنسانية كثيراً، وصرفوا الجهد والمال، وبذلوا ماء الوجه، وأساؤوا للأعراف وانتهكوا المبادئ، كي تكون الضربة قاضية!

ومن الشرفاء من تجشّم عناء الوصول إلى سورية، رسل ثقة وتفاؤل وأمان، فيما وصل الآخرون عبواتٍمتفجرة، ومقاتلين مرتزقة، ومهربي سلاح ومخدرات، ومثيري فرقة وفتنة سوداء..

الأوفياء الشرفاء الذين لا يملون ولا يكلون، على الرغم من استمرار الأوضاع القلقة، وتنوعها، واشتداد العواتي من الرياح، لم يسكتوا، ولم يترددوا، ولم يكسلوا، ولم يتبلدوا، ولم يقنطوا.. وهم عارفون بقدرة سورية المتماسكة رسمياً وشعبياً على تخطي المحن، لأنهم يدركون تمام الإدراك، ويشعرون بسلامة الحواس والإحساس،

ووفقاً لغايات الأعداء الشريرة السرية والعلنية، ونواياهم القاتمة الموجهة إلى الموائل والموارد والأجيال، ودرءاً للكارثة التي تحيق بالمنطقة العربية وشعوبها، وصداً للهجمة المدمرة.. يؤمنونأن في خلاص سورية خلاصاً لكل المناضلين المقاومين المدافعين عن حقوقهم في هذا العالم، الذي تتمادى فيه أذرع الأذى، وتتغول فيه الأهداف والمصالح، يحاصر البريء، ويفلت زمام المدان، ليحكم ويتبغدد..

الأوفياء الذين نعرفهم، والذين لا نعرفعم، لن ننساهم، ولن ينساهم التاريخ، وسجلات الشرف والكرامة والإباء..

***

عذراً سورية

«عذرا يا حضن العروبة في زمن النفاق والعمالة والشقاق ومساوئ الأخلاق.. عفواً يا أرض الحضارة والمقاومة والممانعة والمجابهة في وقت التطبيع والخنوع والخضوع وعناق الصهاينة..أي صديق لسورية هذا الذي يكذب ويضلل ويحرض إعلامياً وسياسياً ودبلوماسياً على دمشق، والذي يمد يده لإسرائيل، ويعلن جهاراً نهاراً تحالفه الاستراتيجي مع تل أبيب، ويدعم معارضين سوريين مسلحين يقاتلون نيابة أو وكالة عن الصهاينة..؟!»

هذا بعض ما كتب الأديب التونسي أمين بن مسعود، ألماً مما جرى على أرض تونس من اجتماع عدائي تجاه سورية، ومعبّراً عما يُعتزّ به من نفس أبية، وروح أخوية، وأحاسيس إنسانية؛ ومُظهراً ما يُحترم ويُقدّر من الوعي والفهم والقراءة الحقيقية للأحداث في سورية، وخلفياتها التآمرية، وأدواتها التخريبية، والأموال التي دفعت وتدفع ثمناً للنفوس والرؤوس والمواقف والسلاح في سورية وخارجها، لدول ومسؤولين وعصابات ومخططين ومتمرّدين، والكثير ممن تداعى إلى ذلك المؤتمر/ الفضيحة، الذي شرّع التسليح للإرهابيين في سورية، وحاول تمهيد الطريق لاستدعاء المدمرين الخارجيين!

وقد تصادى ذلك الصوت النبيل مع أصوات الوطنيين من الشعب التونسي، الذين تنادوا من مختلف المناطق، وحاصروا المتآمرين في محفلهم، وعكّروا أنخابهم، وأفسدوا عليهم طقوس الوقت»الثمين» تحضيراً للانقضاض على الشعب السوري في الوطن الصامد المقاوم السائر إلى الإصلاح بخطا أسرع، ورؤى أكثر إشراقاً وتصميماً على المضي في مواجهة العدوانات المتواصلة منذ أكثر من عام الأحداث الحالية؛ بل خلال عقود.. بكل أشكال المواجهة!

ولم يكن هذا الموقف الصادق الوفي الواعي وحيداً، بل كتب مثقفون آخرون في تونس وسواها من الأقطار العربية في المعنى ذاته والتوجّه عينه والوضوح والحماسة والجرأة، قبل هذه المناسبة وفي أثنائها وبعدها.. ومازالوا يكتبون ويعبرون –مع آخرين من الشرفاء في العالم–من خلال إطلالاتهم الإعلامية وحضورهم الجميل.

وليس غريباً أن يكون للمعتدين «ندماؤهم» ومريدوهم من الأدباء العرب، الذين خبر الكثيرون منهم دمشق وحواضر البلد الحاضنة الأخرى، ومنهم من التجأ إليها وأقام، أو «ناضل» وحاضر وخطب وامتدح!وتعرفوا إلى التاريخ الوطني والمواقف القومية والمبادئ الإنسانية لهذا البلد العريق..

وإن كان لا بدّ من عتب –لا يعادل الجرح والغصة– على مثقفين يفترض أن لا يُؤخذوا بالشعارات والأوهام والشبهة وأنباء الفاسقين، وقد ظهر بعض مما وراء الأكمة، ويشي بما هو أعظم..

فـإن العتب الأكبر على أدبــاء سوريين ينفذون من منابر التحريض،وينفثون الأهواء والأحقاد من كوى الغدر والوشاية والنميمة مسايربن متواطئين ومساومين!

وإذا كان غريباً أن يكون الكثيرون من أبناء البلدالمثقفين ما يزالون غائبين أو صامتين، فإن الغرابة أن يكون التردد في الحدّ الأدنى مما على أصحاب الرأي الحر والشخصية المستقلة اتخاذه:النبذ للعنف، والتنصل من أية سبل أو دعاوى للفتنة، ورفض الاستقواء بمن لا يعرفون أياً من المصطلحات المرفوعة يافطات وأهدافاً»إنسانية»، والنأي بالنفس عن الإرهــاب الفكري والـمـادي، واستهجان التسلّح»السلمي»، والتنديد بالقتل العشوائي، أو الاستهداف الانتمائي أو الاعتقادي أو الانتسابي..وقطع الطرق وترصّد الضحايا في الحافلات أو البيوت أو المؤسسات؛ ناهيك عن التماهي مع العدو الصهيوني غايات وعلاقات واتصالات!

فهل مثل هذا كثير على أصحاب الفكر والرؤى والأحلام؟! وهل هذا يستغرق كل هذا الوقت من التفكير والتروي؟! وهل يحتاج إلى كل تلك الحسابات والمماحكات في جعبة من سيصب ذلك، ومن المستفيد، وماذا ستكون النتيجة، وأين ستكون الكفة؟! وهل يستوجب حصول كل هذه الخسائر من الدماء والخراب والصدوع النفسية، قبل أن يظهر موقف أو رأي؛ ناهيك عن التغيير في الرأي والموقف والتقويم؛ أم أنهذايؤدي إذا ما _حصل- إلى «معارك جانبية» تؤثر على الغاية «العظمى»؟! أم أن ذلك يشوّش على المشروع العدواني

الخارجي، ويبطئ السعي الحثيث لاستجلاب قرارات دولية لا تبقي ولا تذر؟! أم أن هذي حال «القاعد الطاعم الكاسي»؟!

عذراً سورية!!

هل تكفي كلمات اعتذار للبلد الذي ربّى وعلّم وأمّن ونهض وابتنيوقاوم، وبقي عزيزاً كريماً؟!

إن الاعتذار يأتي ممن أخطأ واكتشف مقدار خطئه، ندم، وتحسر وخاب!

إن الاعتذار من طبيعة الطيبين، الذين ما كانوا يقصدون الأذيّة لأحد، ولا يضمرون الشر لأحد، ولا يرضون بأن يكونوا مسببين الإساءة للآخرين أو مشاركين فيها غفلة أو سهواً، ولا يقبلون بتسهيل الدمار أو تعميم الخراب، وبثّ أسباب الفرقة والفقدان والخيبة والخسران..

شكراً للأشقاء الذين وعوا ويعون، وعبّروا ويعبّرون، وفهموا واحترقوا ولو ظلوا صامتين..

أما أبناء البلد، فلابدّ من القول إن العقوق والنفاق والسمسرة والسكوت عن الحقّ لم تكن يوماً من أدبيات الأدباء ولا أخلاق المثقفين!!

❃❃❃

الكبار

يستطيع من يستقنص عذراً للتقاعس عن القيام بالواجب، أن يجد مثل ذلك العذر في أيّ وقت، وبإمكان من يجهد في البحث عن حجّة أو سبب للقعود عن طلب المعالي، أن يحصل على ما يكفيه عناء الجدّ، ومتاعب السموّ، وأعباء المجد..

وفي الطارئات من الحالات، والمغبرّات من الأوقات، الكثير من هذه العلل والمسوّغات التي تأتي، وينتظرها على أظلم من عتمة، أو أقذى من مائدة قتام! فيفرّ إلى دركه الأسفل، او يُستنقَع في حضيضه الآسن.. ومثل هذه الأيامالمأزومةكاشفة فضّاحة!

أما من لم يهن في عهد ترغيب أو عسف تهديد، ومن لم تسقط من قامته الراية مهما أظلمت الدنيا وأدبرت، فله محفة في كل هودج، وتاج في كل علاء، وهم كثر، ومعدنهم أثمن، ورؤاهم نبراس، وصمودهم متكآت، وصبرهم ركائز للوطن والإنسان والتاريخ..

وليس هذا الكلام إنشاء، ويستحقّون الإبداع كله، وليس منّة،

وهم لا يُقْدِمون للمنّة، وليس عطاؤهم جنى موسمياً، ولا اتقادهم مباهاة، ولا ائتلاقهم مفاخرة.. وهم يستحقون؛ فهل أشقّ على الروح من أسرٍ في سجون جلادي الكيان الصهيوني أكثر من ربع قرن؟! وهل أقسى على الحياة من أحكام بمئات السنين؟! لأنّ المناضل الباسل الشريف صدقي المقت قاوم احتلال الجولان العربي السوري، وواجه المحتلين الصهاينة، ورفض تنفيذ إجراءات الاحتلال بحقّ الأرض والناس، وما إن خرج من الزنازين المعتمة، وقبل أن يبرحْ قواهم وسطوتهم وأمام عدساتهم، صدح صوته بالعنفوان، وعلت نبرته المقاوِمة، وصرخ مجدداً في وجه الظلم والجوروالاحتلال والعدوان، وأكد أن لا سبيل إلى تحرير الأرض وطرد المحتلين إلا المقاومة بكل أشكالها..والأسير المقت الخارجُ إلى فصل جديد من المواجهة، قرأ الأحداثَ في سورية برؤيا ثاقبة، وأحاسيس واعية للغايات الشيطانية والأعمال العدوانية التي تَستهدف الوطن بكل عناصره وأطيافه وشرائحه وأركانه.. الوطن بعراقته وبنائه وأمانه، بنهجه المقاوم لكل السياسات الغربية الاستعمارية النهبوية، وكلّ محاولات التجزئة والتفتيت والتذويب والتتبيع والتفريط.. من قبل الأعداء والخصوم من أبعدين وأقربين..

لم يهن المقت، وسواه من أبناء الجولان العزيز، وأبناء

الأراضي العربية المحتلة الأخرى، ممن تعرّضوا لأذى المحتلّين وظلمهم ووحشيتهم، من ما يزالون يقيمون، أو هجّروا من أرضهم وقراهم، والتجؤوا إلى بلدان أخرى، ومنها سوريّة، وهم يعيشون فيها كأبنائها تماماً بأفراحهم وأحزانهم، ويتعرّضون معهم ومثلهم لإرهاب من صنف ذلك الإرهابالصهيوني، ومن فصيلته، ومدعوم منه ومن رعاته، ومنفّذوه من تلامذته، وغايته واحدة: تدمير البلد الصامد المقاوم،القومي الروح والأهداف، الساعي إلى الإصلاح والبناء، وردّ الظلم وتحرير الأرض والدفاع عن الكرامة، وارتفاع الهامة..

إن المناضل المقت وأمثاله الجبابرة هم كبار النفوس،كغالبية أبناء سورية والأخوة العرب فيها، الذين ما ارتاعوا وما انصاعوا وما باعوا، رغم المحاولات الدائبة المرغبة أو الدامية لاستجرارهم إلى أتون المهزلة، أو رصيف الفرجة أو قيعان الاستسلام والخيانة.. أما من سهل الهوان عليه، وأنكر العهود، وتنكّر للأخوّة والعشرة والجيرة، وغدر ويغدر، وطعن ويطعن بالفعل والقول بما يرضي الأعداء، ويحاول النيل من عناصر القوة والمنعة، ومؤسسات الحصانة والعزّة..هؤلاء هم المهزومون في نفوسهم، المتخاذلون في الدفاع عن قضاياهم، المتوافقون في المواقف والسلوك والطروحات مع المعتدين؛

بل إنهم أشدّ خطراً وصغاراً.. لكن هذا ليس جديداً على بلدنا العزيز، فقد تكسرت النصال على النصال، ولا مفاجئاً، وإن كان مرّاً ومؤسياً، ولا يفت في عضد المناضلين، كرام النفوس، طلاعي الثنايا، الكبار الذين ليس في أعينهم سوى العظائم!

***

في الخارج أيضاً!

يسعى المرء طويلاً حتى يبتني سمعة إيجابية تشكل صدى طيباً يرافق ذكره، أو يستدعيه في مناسبات وأوقات يُستذكَر فيها الطيبون، وليال ظلماء يفتقد فيها البدر،

ويتشكل ذلك مع الزمن بالسلوك الجيّد، والأداء المقدّر، والاهتمام الجدّي، والسعي إلى المعرفة والتحصيل، وتحقيق الطموحات التي يتوق إليها البشر المخلصون لآدميتهم وجنسهم العاقل، وتشكل الغالبية التي تتميز بذلك، وينتمي أفرادها إلى بلد معين، رصيداً مهماً وتاريخاً مضيئاً، وحصانة ضرورية تقي المجتمع من عوامل التقشّر والتميّع والتآكل والتهرّؤ.. التي يتعرض لها بين زمن وآخر بحكم فساد وإفساد وضغوطات وأوبئة وحصارات وتهديدات وعدوانات قائمة أو وشيكة..

إن مثل تلك السمعة الحسنة كانت تواكب أبناء سورية في الداخل والخارج، تميّزهم عن سواهم، وتضاف إلى خصالهم العريقة، وتغني وجودهم، وتشكل رافعة دائمة مهمة.. وقد انعكس ذلك لدى الكثيرين منّا في أسفارهم القريبة أو البعيدة اعتداداً بالنفس وشعوراً

بالأنفة والاعتزاز، حين ينظر إلى السوري بإعجاب واحترام وتقدير. وما من شكّ في أن أبناء سورية المنتشرين في الخارج تحديداً، وهم كثر ومتنوّعون، للدراسة والتحصيل، أو للعمل وكسب العيش والخبرة، كانوا يؤكّدون في كلّ مرّة الحقّ بذلك الرصيد، ويضيفون إليه المزيد.. وما من شكّ -مع الأسف والمرارة- في أن ما يجري في سورية منذ أكثر من عام ونصف العام، أصاب تلك الصفحات الناصعة بالبثور، ولطخ الرداء الزاهي بالبقع السوداء، وهذا ما بتنا نحسّه بأنفسنا وفي أنفسنا، مقيمين ومرتحلين، خيباتٍ وغصاتٍ وتشوهات وأسئلة قارسة وتساؤلات..

ويدركه المسافرون في محطاتهم، والمغتربون في أماكن تواجدهم ونشاطاتهم، ويفاقم ذلك ما يبثه المتورطون في العدوان على سورية كياناً وشعباً وأرضاً ومؤسسات.. تاريخاً وحاضراً ومستبلاً ودوراً ونهجاً قومياً إنسانياً مقاوماً عزيزاً.. وما يسببونه من انقسامات يثيرها العملاء والمحرّضون، ويُدفع من أجل إزكائها ومضاعفتها الكثير، بطرق مباشرة أو غير مباشرة، فِتَناً وتضليلاً وتهديداً وترغيباً..

لنعترف..

إن هذه الكتلة الهامة من أبناء الوطن -على الرغم مما تقوم به بحكم الواقع والفعل من تمثيل للبلد، ودعم لحضوره العالمي، ورفد لاقتصاده، وإشعاع ثرّ متنوّع الإيقاع والأصداء في الجهات كلها والبقاع جلّها..- لم تحظ بالرعاية والاهتمام خارج حدود الوطن، ولم تتابَعْ بجدية، ولم يُعتنَ بظروفها وأحوالها وأوضاع أسرها، أو

تراعَ مشاعرها ومصالحها كما يجب؛ ولم يُستفد مما أنجزته؛ ومنهم من عادوا ممثلين مميزين لجهات أجنبية، شركات ومؤسسات ودول! وقبل ذلك، هل دُرست الأسباب التي دفعت بالكثيرين منهم إلى الخروج الشارد، والبحث المذلّ عن فرصة أو «وكيل» أو كفيل؟! وحين تقع الواقعة من يدافع عنهم، ويطالب بحقوقهم، ويعيدهم مكرّمين إلى الأحضان الدافئة؟! ربما كان لبعض شرائحهم بعض الاهتمام؛ لكن بأية نسبة وأيّ مجال وموقع؟!

لنعترف.. هناك من انحرف منهم، واستغَلَّ تغرّبَه لطعن وطنه، وهناك من اُستغِلّتْ غربته، وهناك من اتّخذ من هذه النوافذ المشرعة في الدخول والخروج ميداناً لأفعال منكرة وأهداف سوداء!

لقد أبدت غالبية الجاليات السورية في أركان العالم وطنية عالية، وغيرية صادقة، ووعياً مغبطاً، وفهماً متقدماً لحقيقة ما يجري في سورية من عدوان، استشعرهالعديدون منهم، ونبّهوا إليه، وعانوا من جرائه وتبعاته العذابات، ويعانون، ويتحمّلون بثقة وأمل وتفاؤل، كما الشرفاء المخلصين الصابرين المصابرين في ربوع الوطن العزيز المفدّى..

فالحصانة الذاتية والموضوعية ما زالت تفعل فعلها، ولا يزال في الرصيد مقدار مهم رغم تآكله واستنزافه.

إن البكاء والتباكي، ومبارزات الندب والاتّهام حول الأسباب والمسؤوليات، واصطراع الشعارات والمصطلحات، لا يفيد في

رأب الصدوع العميقة، وردم الهوّات، والتخفيف من المرارات والانكسارات؛ ولا بدّ من العودة إلى ما كان، للوصول إلى الأفضل، وليس من الممكن أو المقبول انتظار الخلاص من الخارج المخطِّط والمموِّل والمسلِّح والمحرِّض، ولا ممن هم في الغواية والضلالة ماضون، وفي العمالة والإجرام والتخريب والإرهاب والغون..

وإن من يريد أن يَنهض من الكبوة، وأن يُنهض معه المجتمع والبلد، يستطيع أن يقوم بذلك بلا انتظار أو تسويف.

والرصيد ينتظر أن يعود إلى الارتفاع، والمنعة تتوق إلى الترميم، والسمعة تحتاج إلى إعادة التألق؛ وليس هذا سهلاً؛ لنعترف.. لكن العراقة والإرادة والتصميم والعزم والحيوية هي الأساس لدى الإنسان العاقل المخلص الشريف الذي يُنتظَر في الليلة الظلماء..

***

مفكرون!

يُغبَطُ المفكّر الحقّ على هذا اللقب؛ فهو صاحب إمكانية تخوّل فكره المميز أن يجول في موضوعات وقضايا وميادين يختارها أو تستهويه.. محللاً، ورابطاً، ومستنتجاً خلاصاتٍ تخصه وتهمّ المنشغلين بهذا المجال، ومتوصلاً إلى قناعات.. قد تحسب له، أو تضاف إلى ما كان فيه فائدة؛ إضاءة أو تفنيداً.. ومن الطبيعي أن يعتمد المفكر على معطيات ومعلومات يبحث عنها أو يُزَوَّدُ بها، ويَتبع سبيلاً مطروقاً وطرقاً يشقّها بنفسه..

ومن المعروف أن المقدمات الصحيحة تؤدي إلى نتائج منطقية؛ هذا إذا كان المفكر حراً بفكره، ومخلصاً لقناعاته، قادراً على التخويض في عوالم الفكر، مطلعاً على تجارب الآخرين، مكتنزاً عناصر وعوامل وعللاً وأسباباً.. تحفزه على أن يغير في ما كان، إذا ما أحس أن هناك خللاً أو عجزاً أو نقصاً، ويسعى إلى أن يكون له موقف يُستذكَرُ، ومقام يُقدّر، ورأي يُسأل عنه..

وتختلف حدة الذهن في التنبّه والمقاربة، ومقدرة المَلَكات على الملاحظة والمحاكمة، وسرعة التجاوب والتفاعل؛ فتحتاج –ربما–

إلى شحذ ودربة وخبرة حتى تستطيع أحياناً، وفي حال التوقّد، أن تخترع أو تجترح أو تسبق، ترهص، تنبئ.. وتلك خصال يستحقّ أصحابها الاحترام والتقدير.

وفي أية حال، صحت المقولات أم خابت، فإن للمفكر الجاد أجراً على الأقل، وحضورًا.. يمكن أن يتألق أكثر، أو يحافظ عليه في حدود مقبولة؛ لكن عليه ألا يجازف بهذا الموقع فيزيد من ظهوره على المنابر الثقافية والإعلامية بمناسبة ومن دونها، ويؤثر في ذلك انتماءاته وارتباطاته وأهواؤه..

ولا شك في أن الأمر يتفاقم، حين يفكّر (المفكّر) بتوجيه، أو يستنتج بأمر، أو يتكهّن بأجر، أو يسعى بقرار، أو يظهر بسياسة..

صحيح أن ليس المطلوب من المفكر أن يعيش في عوز، وأن يستمر في حاجة، وليس مطلوباً منه أن يكون بلا رغبات ومشاعر وأمنيات.. أو يعيش منبتاً عن كل شيء غيرَ صاحب موقف! لكن المشكلة تكمن في انصياعه إلى إشارة وارتهانه لمشروع، وتكريس وقته وجهده لجهة أو فئة أو سلطة.. وليس هذا الكلام من دون أساس؛ فهناك مفكرون يشكلون نظريات، ويطلقون شعارات.. تسويغاً وتحريضاً وتزييناً!

وهذا يختلف عن صاحب فكر يؤسس لانطلاقات ومسارات وإشعاعات تغير في وجهة التاريخ.

المفكر بكيانه المتماسك وعقله الرصين وحكمته الرشيدة ليس ملك نفسه وزمنه ونزواته وحاجاته؛ إنه مسؤول أخلاقياً وتاريخياً

أمام مريديه ومتابعيه.. والفكر نفسه. وليس من طبيعة المفكرين أن يبقوا أسيرين لمقولات مزمنة، وأحكام جامدة؛ فمن علامات الفكر السديد التجدّدُ والتحرّك الذاتي والحيوية ومراجعة المواقف وتدارك العثرات..

أما أن يُستدعى المفكّر إلى منابر الإعلام المرتهن لاتجاهات أو أشخاص أو أغراض أو أحقاد.. فيردد أقوالاً مبرمجة، أو يُستنطَق ساعاتٍ مرصودة، يصول ويتمدد، وقد يلوي أعناق الأفكار، ليمررها ضمن مجار محددة، ملونة كما يشتهي أصحاب هذه المواقع؛ فهي سقطة مصيرية، وميتة جاهلية؛ ناهيك عن المفكرين (الوطنيين) الذين يتجاهلون الأخطار الخارجية، فيتماهون مع أهدافها، ويغضون الطرف عما يجري على الأرض، ويحلقون مع الأفكار المجردة، ويرفضون الحوار في الداخل، ولا يترددون في المشاركات في أيّ نشاطات خارج الوطن، من أجل الوطن!

المفكّر ليس شاهد عيان، ولا ناشطاً حقوقياً أو سياسياً، وليس محللاً عسكرياً أو مراسلاً ميدانياً في ساحة حرب حتى لو كانت إعلامية! وهو ليس متنبئاً جوياً يخرج على الناس يومياً، وليس قارئ فلك أو طالع لا يحتاج إلا إلى الاسم والبلد وملامح الأشرعة ليبشر بجهة الرياح، أو يوصي بإلقاء المراسي!

الأفكار يفترض أن تكون فوق ذلك، مترفعة عن السقوط في تفاصيل الأحداث والتعليقات على الصور التي ربما تكون مفبركة، فأين تذهب الأفكار التي بنيت عليها، وما مصير مفكّرها؟! إلا إذا كان

لا يرى إلا ما يرغبون، ولا يسمع إلا ما يريدون، ويتجاهل الوقائع التي يمكن أن يتوصل إليها لو أراد، ويصمّ حواسّه وقواه العقلية عما لدى آخرين، وهم معنيون وكثيرون ويعانون.. بل هو يعلم ما يقوم به، أو يريد، أو يتمنى، ويكون أسير العيون التي في طرفها حَوَلٌ، والمحطات التي غدت مراصد للرمي الغريزي، ومكامن لاصطياد الكرام بكائنات «بشرية!» ارتضت أن تكون الأداة، وانحدرت إلى درك الوسيلة؛ لأنّ من غير المقبول تخيُّلَ أنّها لا تعرف ما يجري، وهي ما هي عليه من شهرة وتاريخ، وما يعرف عنها من معارف وعلوم، وهي ما لها أو ما كان لها من حظوة لدى الناس؛ ومن غير المسوّغ قيامها وقعودها ودعاؤها وتعاليها وتحذيراتها وتحريضها وتلمّظها وشماتتها.. فرائضَ مستجدةً في أوقات غير محدودة، وأماكن ليست للتقوى الفكرية ولا المعرفية ولا الأخلاقية ولا الحضارية ولا المدنية ولا الديمقراطية!

***

الحوار الديكي!

ما تزال تدور -ربما- في بعض مناطقنا مباريات لها طعم خاص، وتجتذب الكثير من المشاهدين المستمتعين بالدماء التي تبدأ بالسيلان من ديكين غاضبين متناقرين، بوجود من يحفز ويشجع، من صاحبيهما، ومسؤولي الحلبة أو المتفرجين المتحمّسين! وفي الغالب يخرج الديكان منهَكَين داميَيْن منكَّسي العُرفَين، ويغادر الجمهور منفعلاً منتشياً!

وليس من الحكمة السؤال عن الفائدة المجتناة؛ فأصحاب الديوك قد نفشوا ريشهم، وحاربوا بالواسطة، وانشغل النظّارة بالفرجة، أضاعوا وقتهم، وتركوا أشغالهم، واستثيروا بالأصوات التي تختلف عن الصياح في الصباح، وانفعلوا بالإقدام والإحجام، ونتف الريش وهتك الأعـراف، والنقر الذي يقترب أحياناً من العض! وأشبع الساديون منهم نهمهم لمرأى الدم والجراح!

ومن دون إغفال الأصل الجيني والمرجع الغابيّ والبعد النّفسي لدى المحافظين على هذه العادة وما يشابهها من مباريات تعويضية أخرى، قد يأخذ بعضها جهة الرمز أكثر من الفعل المباشر، لا

يمكن إبعاد التشبيه بين صراع الديوك المدبر هذا -وهو يختلف عن الصراع العادي الذي يمكن أن يجري في أية حظيرة بأهداف غير مبيتة ومشاهدين غير عاقلين!- وعراك حواري نتابعه بكامل ساديتنا وغفلتنا واستثارتنا منذ سنوات على الشاشات العديدة التي تكاثرت في فضائنا المحدود؛ مع اهتمام خاص بأن يكون المدعوون من متطرفي كل رأي، مجهزين سلفاً لمثل هذه المنازلات، مشحونين بكل دوافع الحقد والكراهية والانتقام تجاه الآخر، ومزوّدين بجميع مصطلحات الإقصاء والتقزيم والإلغاء، وبلا كلل أو ملل، يتنقلون بين شاشة وأخرى، وبرنامج وآخر، ومذيع وسواه من المحرضين، وحين يحتاج الأمر إلى تأجيج النار أكثر، تفتح المستقبِلات للنافخين المعروفين المحضرين في الغالب، الذين لا يقلون حماسة وفجوراً وإهانة! ومن الطبيعي أن تختلف درجة الحدة والانفعال بين المنابر؛ إلا أن منها ما هو أكثر إثارة وإحماء منذ أكثر من عقد ونصف! والسؤال الذي لم نكن نتوقف عند مجرد طرحه: ما هي الغاية التي تتخفى خلف هذه البرامج الحوارية؛ بل الشجارية الصاخبة؟! وهل يمكن تصوّر أن الهدف الوصول إلى قاسم مشترك أو قواسم؟! أم أن وراء (مقولة الحوار والرأي الآخر) ما وراءها من مفاقمة للخلاف، وإثارة أجواء غير صحيّة لا تساعد على الحوار، وتعويد الأجيال الجديدة على نموذج فظّ لعرض الأفكار، وأسلوب فجّ في المناقشة، وطريقة شائكة في التواصل والتعبير عن الرأي؛ وقبل كل ذلك وبعده عدم احترام الآخر، وبالتالي عدم احترام رأيه أو تحليله بشكل

موضوعي، وتفنيده ومعارضته؟! ولو كان الأمر بريئاً والنية صافية، لكان دور الداعي أو المحاور أو المحفز أن يقترح حلولاً وسطاً، أو آراء معتدلة أو أفكاراً أقل تطرفاً، ويطلب من المدعوين البحث فيها؛ كما يفترض من البداية أن يتحلى المدعوون بالهدوء والتعامل الحضاري، لا أن يكونوا من كتلتين تسيران في اتجاهين متعاكسين، لا تستطيع أي منهما –وغير مطلوب– تعديل وجهتها أو حتى التخفيف من هديرها، حتى إن رغبت بذلك؛ بسبب الشحن المسبق المتعلق بهذا البرنامج أو ذاك والطريقة التي يدار بها، والسرعة التي يحملها كل فريق، والتسارع الذي يضخه المحمّس بطرح أكثر الموضوعات تعارضاً، وأكثر الفقرات تناقضاً، ويبالغ في النبرة والاستفزاز، مقدِّماً هو الآخر مبالغات وتوصيفات وإشاعات، ويتبنى مواقف إعلامية غير موثقة، وألفاظاً ناتئة أحياناً، ملحاً على الإسراع في الإجابة، منعاً للهدوء الذي قد يوصل إلى تحكّم بالفكرة واختيار ألطف للكلمات وتعبير أفضل عنها؛ فيما المطلوب استغلال الوقت الضاغط أيضاً بالإثارة والضجيج، حتى إنه يستشيط غضباً من تقارب وجهات النظر بين المدعوين للحوار!

لا شك في أن البرامج الحوارية الحقيقية عبر الفضاء المفتوح تطور هام؛ لأنه يتيح الفرصة أمام المشاهدين والمهتمين البعيدين للاطلاع على حيثيات الآراء المختلفة والمتباعدة، وتكوين رأي خاص فيها وحولها يمكن عرضه أيضاً؛ لكن مثل تلك الطريقة تدفع في اتجاه الصدام وبثّ الفتنة والفرقة والتصدع في المجتمع، وتعطي

دروساً قاتمة في أساليب المعارضة، وتسوّق العنف بشكل غير مباشر، وصولاً إلى الإرهاب المباشر الذي بتنا نعاينه جهاراً، ونعاني من آثامه أجسادًا ممزقة وأرواحاً مزهوقة، ونفوساً قلقة، وتبعات كارثية، وأسهم في ذلك ما اتخذته بعض الشاشات عبر البرامج إياها، وعبر برامج أخرى وبثّ متواصل، وضيوف أكثر شراسة وعكراً وبذاءة، من سياسة تحريض وتضليل، وتأكيد على عنف حاصل من جهة واحدة، لتسوّغ عنفاً آخر قائماً فعلاً، بتنسيق مفضوح، وترتيب وإعداد امتد سنوات، ولم تكن تلك الحوارات (الديكية) والمعارك الإعلامية المشرعة إلا تمهيداً وتدريباً لما يفيد المشروع الغربي العدواني المتواصل بأشكال ومواقع ووجوه وأيد وأشداق متعددة ومتجددة.

***

استقراء!

يستطيع المرء، بعد استعراض الأحداث العالمية واستقرائها منذ ثمانينيات القرن الماضي، أن يستنتج بلا كبير جهد، أن هناك مخططاً يهدف أصحابه إلى تفكيك الاتحادات والكتل الكبيرة، وبثّ الفتن بين مكوّناتها، لتسود الخلافات والمواجهات والصراعات التي تدوم من أجل ضمان عدم العودة إلى التجمّع مجدّداً، فتبقى ضعيفة مشغولة منهكة لاهثة لترميم كياناتها المضعضعة، وتسارع لطلب المساعدة من الدول التي بقيت كبرى في تحالفات عظمى، بشكل مباشر، أو عن طريق الهيئات والمؤسسات الدولية التي تعمل على حساب هذه الدول الحاكمة بأمرها.. ولاسيما الولايات المتحدة الأمريكية وحليفاتها الغربيات..

ولعلنا نستذكر بدايات ذلك التحرك في بلدان المنظومة الاشتراكية، بعد زيارة للبابا إلى بولونيا، وهي أوّل زيارة من نوعها إلى بلد شيوعي -تلتها زيارات أخرى إلى بلدان مشابهة- وليس أيّ بلد؛ إنه مقر حلف وارسو بزعامة الاتحاد السوفييتي، الخصم العنيد لحلف الناتو بقيادة أمريكا؛ وبدأت تلك التحرّكات مطلبيّة عن طريق حركة التضامن العمالية التي برزت مع نجومية رئيسها ليخ فاليسا، مدعومة

بإعلام غربي مركّز، وسوى ذلك من أشكال الدّعم المعلن والخفيّ. ثم توسّعت دائرة التحرّكات (الشعبيّة) في مختلف الدول الاشتراكية: بلغاريا وهنغاريا ورومانيا.. وتشيكوسلوفاكيا التي انقسمت إلى دولتين، والمانيا الديمقراطية التي انضمت إلى المانيا الغربية بعد سقوط جدار برلين في مشهد دراماتيكي، ومن ثم بدأ انهيار الاتحاد السوفييتي الذي بدأ بالتفكّك، مع انسحابات متتالية لدول عديدة من الاتحاد السوفييتي وإعلان استقلالها عنه، مع تبعات غير ودّية بين روسيا الوريث الأكبر للاتحاد السوفياتي والدول المنفصلة ولاسيما جورجيا واوكرانيا، رغم التحوّل الذي حدث في روسيا نفسها وانهيار النظام الاشتراكي! إلى أن جاء الدور على الاتحاد اليوغسلافي فتفتّت إلى ستّ دول، لم تلبث أن اشتبكت قواها الداخلية طائفياً وإثنياً، وتدخّل الناتو عن طريق مجلس الأمن ومن خارجه للدفاع عن الأقليّات، وملاحقة زعماء صربيا الدولة الأكبر والأكثر عناداً حتى المحكمة الجنائية الدولية!

بعد تبدّل عميق في أنظمة الحكم في تلك البلدان، وانحيازها إلى المحور الغربي، مع اختلاف الإيقاع، تزعّمت أمريكا العالم.

الطريقة ذاتها، والأدوات عينها، تلك التي استخدمت في منطقتنا العربية؛ حيث نلاحظ:

- استخدام الدين وفعاليته وحساسيته لإثارة المشاعر، واستقطاب أكبر قدر من الناس، عن طريق الفتاوى من رجال دين معروفين، واستغلال المساجد وأيام الجمعة والصلوات الجامعة.

- الاعتماد على الناس العاديين متوسطي التعليم من الطبقات المهمّشة: العمال وأصحاب المهن الحرة، والعاطلون عن العمل حتى من أصحاب الشهادات، والمطالبة بما هو حقّ: تأمين سبل العيش، وتحسين مستوى المعيشة، وشعارات أخرى شهية ومحبّبة على الأسماع القريب منها والبعيد!

- ضرب الرموز والقادة التاريخيين، ومطاردة الرؤساء واصطيادهم وإهانتهم بالقتل أو بالمحاكمة.

- الإعلام الموجّه والمركّز والدعاية المكثفة والواسعة لمفاقمة الأوضاع.

- استخدام بعض المثقفين والمفكرين في الدعاية المضادة، واستغلال انتقادهم حالات غير مقبولة في البلد كالفساد والحزب الواحد والمطالبة بالحريات وسوى ذلك، واستمالتهم وتجييرهم لصالح أعداء البلد التاريخيين.

- استخدام الدول المجاورة ومصالحها وخصائص علاقاتها التاريخية مع الدول المستهدفة في الدعم المباشر ميدانياً ومالياً.

- التبنّي الواضح من قبل الدول الغربيّة للجماعات التي تقوم بالتحرّكات، رغم التخفّي وراء الحقوق الإنسانية، والتردّد في بعض الأحيان، والاندفاع أحياناً أخرى وفق البلد وموقعه وموقفه من الكيان الصهيوني، الذي يمثّل البوصلة التي تتحرك وفقها الدول الغربية!

- استغلال التنوّع الديني والإثني في أسوأ صورة، بما يكفل

استمرار الهشاشة والتصدّعات التي يصعب ترميمها، مع التخطيط والسعي إلى تفتيت الدول إلى دويلات بناء على ذلك.

- الدّعم المالي السخيّ للمجموعات المخرّبة وضعاف النفوس من أبناء البلد، والمرتزقة الممولين والتكفيريين من فصائل إرهابيّة معروفة.

- استخدام الهيئات الدّولية، ولا سيما مجلس حقوق الإنسان والجمعية العامة، والجهاز التنفيذي لرغبات الكبار مجلس الأمن، وذراعه العسكري حلف الناتو.

- استخدام الحركات الداخلية لإسقاط الأنظمة، وحين يفشل ذلك، يتم اللجوء إلى التدخّل المباشر، مع إيجاد الذرائع الواقعية أو المفبركة.

ولما كان المخطط قد نجح في البلاد التي كانت اشتراكية، فقد تشجع أصحابه على الاستمرار في مناطق أخرى.

وعلى الرغم من أن منطقتنا العربية لم تكن بعيدة عن بعض مظاهر تلك التحركات، ولا سيما في لبنان، والعراق الذي قام بغزو الكويت ما استدعى حرباً وحصاراً قارساً دام عقداً ونيّف، فغزواً فاجراً بذرائع أخرى ملفقة، عبر تحالف من خارج مجلس الأمن؛ لكن الحالة لم تكن واضحة المعالم كما هي عليه الآن، وكان لوجود الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية أثر كابح، وقد تُركت الساحة بعد ذلك لهيمنة رأس الحربة الغربي المتقدم (اسرائيل)، مع تهيئة الأجواء

المبطّنة من عملائهم في دول الخليج ودول أخرى على رأسها مصر، التي قيّدت نفسها بمعاهدة كامب ديفيد مع الكيان الصهيوني، وانتقلت إلى موقع آخر، حتى أنها شاركت في حصار لغزة، وارتبطت الاردن في معاهدة مماثلة «وادي عربة»، ثم سقطت السلطة الفلسطينية في اتفاقية «اوسلو»..

وهذا لا يعني أن القوى الخيّرة استسلمت؛ بل كانت تستقرئ وتتحصّن وتُفشل المخططات والغزوات، كمحور المقاومة الذي تشكل سورية مركزه مع إيران وقوى فاعلة في لبنان، ونهوض دول عديدة في الحديقة الخلفية للولايات المتحدة الأمريكية في أمريكا اللاتينية..

وعلى الرغم من أن الخطط التي بدأ تنفيذها منذ مستهل العقد الثاني من الألفية الثالثة، مضت قدماً في بعض الأقطار العربية، بسرعة ويسر في تونس ومصر، وصعوبة وبطء في اليمن، وبغزو أطلسي عسكري لليبيا بغطاء عربي سياسي وتمويل ومشاركة، مع تصامم عن الحالة في البحرين، فإنها تتعثّر في سورية؛ بل هي في طريقها إلى الهزيمة، وذلك بسبب وعي الشعب، وقدرة الجيش العربي السوري، وحنكة القيادة، وتنبّه قوى عالمية عظمى أهمها روسيا والصين، إلى ضرورة وقف هذا الزحف الشرّير والآفة السرطانية التي تستهدفها هي الأخرى بعد حين.

لكن الغريب في الأمر أن كثيراً من السياسيين والمفكّرين والمثقّفين العرب لا يرون هذه الوقائع، أو لا يريدون أن يروها، ويتحسسون

من كلمة مؤامرة التي أضحت عدواناً مفضوحاً، ويندغمون في هذا المشروع الكارثي بما يشبه الانتحار الفكري والعقائدي..!

وما زلت أستذكر تلك الأديبة البلغارية التي شهدت ذلك التحوّل في بلدها الذي كان آمناً ومكتفياً، كجميع البلدان المشابهة له وقد نالها ما ناله، في إحدى زياراتها إلى سورية بدايات هذا القرن، حين قالت بحرقة: أرجوكم لا تدعوا ذلك يحدث في بلدكم!

***

شاهد من أهلها!

جاء في مقدمة الكتاب ذي العنوان: «الامبريالية بقناع إنساني» لمؤلفه أستاذ الفيزياء النظرية في جامعة لوفان في بلجيكا جان بريكمون، المنشور عام ٢٠٠٥م، والصادر عن اتحاد الكتاب العرب، ت: عبود كاسوحة- ٢٠٠٩م:

«واقع الحال أن حقوق الإنسان، وواجب التدخل بنزعة إنسانية، والكفاح ضد الإرهاب، يجري التذرع بها اليوم لتبرير التدخل باتجاه أحادي، يمضي حتى الدعوة إلى حرب وقائية. والحال أن التستر وراء حجج أخلاقية، إنما هو تمويه لالتزامات سياسية واقتصادية تتستر وراءه... أما بصورة عامة أكثر، فالامبريالية هي التي تدير هذا النمط من المبادرات.» فرانسوا هوتان ص٧.

ليس في الأمر تهمة أو تجنّ أو تكهن، حين يقال: إن وراء ما يجري في سورية جهات خارجية لها مآرب أخرى؛ إنها الوقائع التاريخية التي تتكرر منذ عشرات السنين، في مختلف مناطق العالم، الذي أضحى قرية صغيرة بمختار وحيد، يتصرف بلا خجل أو خوف أو تردد. والأمثلة كثيرة يعددها الكتاب الهام لشاهد من أهلها، ويحللها

ويفندها، ولا تكاد تنساها الذاكرة المرة، ولا الحواس التي ترى وتسمع وتعاني من فصولها الحاضرة.

وإذا ما كانت المسألة غير مستغربة من قوى امبريالية تلك سياساتها وغاياتها وعلاقاتها، ولم تحد عنها أو تتراجع، حتى إن واربت قليلاً، فإن الغريب أن يُقْدِمَ أحد من أصحاب الحقوق والمصالح والشعارات على أن يضع أحلامه في أيدي تلك الدول الغربية الاستعمارية، وأن يعتقد للحظة واحدة أنها ستحقق له أمنياته؛ إلا إذا كان في الأمر سذاجة وغفلة وشبهة، وفي هذه الحال لا يكون من المناسب النظر إليه قيادياً أو ريادياً أو مثقفاً أو مبادراً، أو صاحب مشروع يستحق الاهتمام أو الاحترام، من دون أن ينال هذا الكلام من المبادئ والأخلاق والمفهومات التي يتبناها، وقد تكون صحيحة ومقدرة.. أما إذا ما كانت الحال تنطلق من قناعة وحماسة واندفاع، ويقوم البعض بالارتماء في أحضان تلك الدول المعادية موضوعياً لمصالح الشعوب، أو المتوحشة في طلب مصالحها على حساب الآخرين؛ ويستدعيها للـ«المساعدة» في الوصول إلى مآربه السلطوية في الغالب؛ بل يتم الطلب إليها حتى لتتدخل عسكرياً، من دون النظر إلى الخراب الذي يلحق بالوطن والمواطنين من جراء حضورها بأشكال مختلفة في الجرائم التي تحصل؛ ناهيك عما سيحدثه عدوان مباشر تحت أي مسمى؛ فتلك عمالة وخيانة وخروج سافر على الوطنية والإنسانية.

ويبقى أن يكون البعض رافضاً لهذا التدخل الكارثي، ولكن سلوكه وأداءه ومواقفه.. تصب جميعها في المجرى الذي يتيح وقوع مثل ذاك التدخل، أو يمهد له، أو يسوغه بشكل أو آخر؛ وليس في صالحه ولا من المنطق القول بأنه لا يدري، ولا يفيد ذلك، وليس في صالح أحد السكوت عما يجري من أحداث عاصفة، وما تسببه من خسائر مادية ومعنوية، آنية ومستتبعة، لا تستثني أحداً، وليس في صالح الوطن والشعب، في الحاضر والمستقبل، الاستمرار في التمترس خلف قناعات تثبت الوقائع سلبيتها، أو تخلفها أو عدم صلاحيتها لهذه الحال وهذا البلد.. ويحتاج الأمر إلى رؤيا وفكر ووعي وتبصر وإحساس وأثرة وأخلاق.. كي لا يكون القادم أعظم!

ولا يمكن القبول بالاستسلام للأعداء، والاستباحة التي يريدونها، والتبعية التي يسعون إلى فرضها على وطن سيد مستقل مقاوم ساع إلى الكفاية والعدل والعلم والسلامة والسمو!

وليس من العسير على كل ذي لب أو اهتمام أن يتوقع أو يتنبأ!

يقول المؤلف جان بريكمون في الكتاب ذاته، مستقرئاً مسلسل الأحداث التي تنتظر الدول التي لا تنضوي تحت السياسة الامبريالية:

«ما الذي سيحدث لو طبق بلد ما أفكاراً «مدافعة عن عولمة بديلة» أو رفض تسديد الديون، وقرر العودة إلى استملاك الموارد الطبيعية، وبناء خدمات عامة قوية أو إعادة بنائها، وفرض نظام ضرائب أكبر على الأرباح.. سيكون الرد كما كان على أييندي وكاسترو ومصدق

ولومومباوأربنتزوغولارت وغيرهم كثير. وسوف يحصل الرد في أوقات متعددة: سيبدأ أول الأمر بتخريب اقتصادي، قد يكون سريعاً إلى حدّ ما: هروب رؤوس الأموال وتوقف توظيفها ثم وقف «المساعدات» .. وإذا ما تبين عدم جدوى ذلك كله، فسوف يكون هنالك تشجيع على قيام تمرد داخلي، تثيره مجموعات داخلية اجتماعية أو عرقية أو دينية، تكون لها مطالب نوعية تصعب تلبيتها. إن كل قمع لهذه المجموعات، حتى لو كانت نشاطاتها غير شرعية، وكانت مثيلاتها عرضة للقمع في أمكنة أخرى، سوف تدان باسم حقوق الإنسان. إن التعقيد الاقتصادي والسياسي للوضع سوف ينسى. لكن سوف يوازيه تهديد دائم بوقوع انقلاب عسكري، انقلاب قد يقابل بالتأييد من جانب قسم من السكان، الذين قد ضاقوا ذرعاً بالفوضى. وإذا لم يجدِ ذلك كله نفعاً فسوف يقع تدخل عسكري مباشر من قبل الولايات المتحدة أو من حلفائها. ينبغي أن نفهم حق الفهم أنه ما لم يتم اتخاذ هذا الإجراء الأخير على الفور حيال الأزمات كافة، فسوف تشكل على الأقل خلفية للإجراءات الأخرى كافة. إذا لم تكن العقوبات الاقتصادية أو القلاقل الداخلية كافية، فعندئذ سيكون هنالك خليج خنازير جديد، أو فييتنام جديدة أو كونتراس جديدة.» ص ١٢٠ .

هل يحتاج مثل هذا الكلام إلى تعليق؟!

***

يسار يمين.. دُرْ!

منذ تفكّك الاتحاد السوفييتي، بداية تسعينيات القرن الماضي، وانهيار المنظومة الاشتراكية، شهد (اليسار) العالمي (مع الإشارة إلى أن لفظة اليسار فضفاضة وإشكالية أحياناً)، و(اليسار) العربي التابع بدرجات مختلفة، تصدّعات وانهدامات لم تقف عند حال الخيبة وعدم التعيين، والانسحابات من الأحزاب (الحمراء) وأخواتها؛ بل وصلت إلى حدّ الكفر بكلّ مبادئها، والتنصّل من تاريخها، والتشكيك بإنجازاتها؛ ومنهم من بالغ في الطعن المبرّح في الصدر والظهر لعلمه بمواقع الإيلام، ولافتقاده الإحساس بالمواجع التي تعتري الضحيّة، بسبب كثرة السكاكين التي تنهال عليها، والضغوط الهائلة خارجياً ومحلياً؛ وما يجعل الأمر أشدّ إيلاماً ومرارة أن هؤلاء (المرتدّين) هم الذين كانوا يشرعون تلك الأفكار والمقولات وأصحابها ورموزها.. مقدساتٍ في وجوه (اليمين) الذي تتعدد جبهاته، وتصطلي نيرانه، وتزداد شبكاته، وتنشط رغباته، ويؤكّد أن لديه نهاية التاريخ دنيا، وجنان الخلد آخرة، بشكل متناغم ومنتشٍ وبطر، بعد أن فعلت سهامه فعلها في القامة المغترّة، وأوغلت في الجسد المتهالك للإجهاز وإعلان الإنجاز.

وكان من بين المنتسبين (المناضلين) الحاصلين على الامتيازات من تنكرّوا واستكبروا، وانسلخوا عن أبناء جلدتهم، بعد أن تنكّبوا، في ما مضى، عبء الثورات التي أوصلت (الجماهير) إلى السلطة، ونكّلوا بخصومهم في (الثورة المضادة) أعداءِ الشعوب، عملاءِ الرأسمالية والامبريالية العالمية.. وها قد عادوا ليتحدّثوا عن الأغلاط والخطايا ومخالفة قوانين الطبيعة والحدّ من المبادرات والإمكانيات والحريّات التي كبّلت الطاقات، وأدّت إلى أن تركد الأنهار التي كانت تجري دفّاقة، وتأسنَ السوائل الرقراقة، وتتعفّن الزوايا التي كانت تضاء بالحماسة، وتتلبّد الساحات التي تتوهّج باليقين، وغدت الجباه تتقوقع من تعب وحاجات، وتتكوّر الأجساد حول رماد ومدفأة توقد فتائلها في رؤوس مؤدلجة، وعقول محنّطة وكراسٍ منبتّة؛ وقد تعبوا -كما يؤكدون- وهم يتحدّثون عن ذلك، ولم يكن ليسمعهم أحد في الزمن البائد، لبُعدِ المزار وارتفاع الأسوار حتى في البلد الواحد. وبصرف النظر عن الكلام الحقّ، وما وراءه من نوايا نقيّة أو خبيثة، فإن من غير المنطقيّ رؤية أمثال هؤلاء (الثوّار) في ركاب (الثورة المضادة)، ببذلات مختلفة ونياشين معاكسة، ومن غير المقبول متابعتهم وهم يركَبون رأس المال الذي طالما أهانوه وقذفوه، وقد أصابهم هذا (المال) أو تعرّفوه في سلال ذهبيّة مخبأة في «مغاور علاء الدين والنصابية الذين لا يعدّون»، أو فارت عليهم (الحظوظ والجوائز واللّقى) من آبار سوداء، ظهرت فتحاتها من (دشداشات) لا تستر عوراتها، أو أبواق لا يقاوم فحيحها.. ويسارعون لـ (شهامة

ونبالة ووفاء!!) إلى إنقاذ البلاد (بلادهم) من شفا الكارثة (الإنسانية)، وأحزمة الفقر، ومهاوي المفاسد، ومستنقع الإيديولوجيات التي فات زمنها، وبهتت ألوانها، وابتردت جمراتها.. بتنظيرات وتوجّهات وتحالفات ومشروعات ومساعدات ومناقصات و»مزاودات».

ولكن العجيب الممضّ أن يسود فيهم التّقى، ويعمّ الورع والزهد، ويصبح الدنيوي أخروياً، والمادّي مثالياً، والشعاراتي داعية، وموقظ الوعي منوّماً للعقل، و»المسهّراتي» «مسحراتياً»..

حدث مثل هذا في التاريخ، وفي مختلف أركان العالم، وحدث قبل التغييرات الكبرى في (المعسكر) الاشتراكي، بأعداد محدودة ربما.. فللمؤلّفة قلوبهم حضور ودور في بلدان العوالم المختلفة درجاتها، وصولاً إلينا.. وهاهم اليوم في سورية في ظلّ الأزمة؛ بل في صميمها، نافخين النار، مثيرين الغبار والضجيج، شامتين نهّازين، منفّذين للأوامر العابرة لـ (الحدود الشرعية) أو غير المشروعة علناً أو خفية.. وهم شرائح وأشخاص يفترض أن يكونوا الطليعة والنّخبة والبوصلة والـ قربان إذا جدّ الجدّ.. ولعلّه عنوان مهمّ، ينبغي أن يؤخذ في الحسبان لدى النّظر في أيّ تحوّلات مدروسة أو عارضة، مخطّطة أو عفويّة، منظّمة أو «فوضويّة هدّامة»!!

***

واليسار العالمي أيضاً!

«كان ماركس يعتقد بأن النضال السياسي ضد القهر سوف يؤدي إلى تراجع الظلامية الدينية. لكن ها نحن نشهد منذ عشرين سنة، حركة معاكسة: فكلما فقد اليسار شيئاً من أرضه، ازدادت الظلامية قوة، وليس ذلك في العالم الإسلامي فقط. ويعود هذا في قسم كبير منه إلى أنه أصبح الوسيلة الوحيدة للاحتجاج الممكن ضد ذلك «الوادي من الدموع» الذي آلت إليه الأرض». جاك بريكمون في «الامبريالية بقناع إنساني» ص٢٠٦ –اتحاد الكتاب العرب_ ٢٠٠٩م ترجمة عبود كاسوحة.

ليس اليسار العالمي واحداً؛ لم يكن كذلك؛ حتى في ذروة الحالة السوفييتية، وبين أقطاب متقاربين؛ وكان هناك التباس –وما يزال– في التسمية أو المصطلح –اليسار– ؛ فليس كل يسار يناضل ضد القهر، أو يكون مع حقوق الشعوب المظلومة بإطلاق؛ فالاشتراكية الدولية كانت تضم فصيلاً من الكيان الصهيوني، وهذا يكفي دليلاً؛ ناهيك عما يعرف من أن الحكومة التي كان يشكّلها ذاك الفصيل كانت الأشدّ فتكاً بالفلسطينيين، (تكسير العظام)! كما تضمّ تلك الاشتراكية الدولية فصائل عربية بزعامات طائفية إقطاعية، وأحزاباً من اليسار الأوروبي،

الذي لم تكن حكوماته أقلّ دعماً للكيان الغاصب في فلسطين، من اليمين المعروف تاريخياً بذلك الدعم. وبالتالي فإن هذا اليسار الباقي، بعد انهيار المنظومة الاشتراكية، لا يتورّع عن دعم الولايات المتحدة متزعمة الامبريالية العالمية في محاولة فرض هيمنتها بالقوة الناعمة أو الوحشية في أيّ مكان من العالم، ترى أن ذلك يخدم مصالحها، حتى لو أدّى ذلك إلى مئات آلاف الضحايا، بحجة التدخّل الإنساني؛ وهي مفارقة غريبة فاقعة:

«حين بدأت حرب كوسوفو، وجدتني في عزلة تامة. كان ما يزال في صفوف اليمين بعض السياسيين الواقعيين الذين ما كانوا يستوعبون لمَ كان على فرنسا أن تشن الحرب على صربيا، لا سيما إرضاء لالمانيا والولايات المتحدة. أما في صفوف اليسار فإن مفهوم الحرب ذات الصبغة الإنسانية كان عملياً يحظى بالإجماع، حتى داخل التنظيمات التي حافظت على شعارات ثورية من التروتسكيين والشيوعيين والفوضويين، وهي التنظيمات التي تحاشيت على الدوام الانتماء إليها شخصياً». المرجع ذاته ص١٦

وليس هذا فحسب؛ بل إن الكثير من القوى اليسارية العالمية وبعض العربية والمحلية، لا تكتفي بتأييد مثل ذلك التدخّل؛ بل تسوّق له، وتشرعه، وتلوم القوى الغربية على تقاعسها في ذلك، إن تلكأت أو أجرت حساباتها التي لا تتعلق بهذه القوى أو سواها؛ بل بما يحقق غاياتها القاتمة وأهداف حلفائها والجدوى التي لها معاييرها الخاصة.

«إن اليسار الذي ينشد المصداقية يؤدي دوراً عظيماً في شرعنة

هذه المسيرة، لأنه هو الذي يركز النقاش بصورة عامة، على النمط الأول من المسائل (جدوى المسائل) ويهمش النمط الثاني (طبيعة الأهداف وشرعيتها). الآلية الأخرى التي يستخدمها اليسار المحترم، هي التنديد المنهجي بأنظمة التلقين «الاستبدادية»..» الكتاب السابق ص٣٦

والأنكى من كلّ ذلك أن أصحاب اليمين واليسار يتبارون في دعم القوى الظلامية بالإعلام والمال والدعم الديبلوماسي في المنظمات الدولية، بوصفها حركات تنشد الخلاص من الاستبداد، وتهدف إلى التحرر والعدالة والديمقراطية! في حين أن منطق هذه الجماعات إقصائي، وتفكيرها وأدواتها وممارساتها وتاريخها وحاضرها.. كل ذلك مناقض تماماً لهذه الشعارات؛ إضافة إلى أن متبنّيها وداعميها بالمال والسلاح وسواهما، بعيدون كل البعد عن ذلك!

وفي الوقت الذي تدّعي هذه الجهات العالمية القادرة محاربتها للإرهاب، ورفضها للأحادية، وتنكّرها للعنف المسلح، وتهاجم دولاً، وتحاصر أخرى، وتحظر مؤسسات ومقاومات وأحزاباً وتدعو إلى تجفيف مواردها وقطع (الهواء) عنها.. بهذه الدعاوى؛ ها هي تغضّ الطرف عن جرائم العصابات المسلحة والقوى التكفيرية بحقّ أبناء الشعب في سورية، وتخريبها للممتلكات العامة والخاصة؛ بل تحميها وتدعمها وتسوّقها بدائلَ (حضارية!) من أجل تبعيّة لها واستسلام، وتسليم بعدوانية الكيان الصهيوني وتسيّده مقدرات المنطقة ومصائر شعوبها ومستقبلها.

إنه الفجور العالمي، والتزوير المفضوح، والتضليل السافر، والنفاق الماكر... وما يؤلم أكثر أن بعضه يأتي من أصحاب رؤى يسارية، ومشاريع إنسانية، وشعارات سيادية!!

***

ربّ ضارة نافعة!

ليست المحاولة الأولى، ولن تكون الأخيرة.. ليست الخضّة الأولى، ولا الهزّة أو الصدمة أو..

فقد تكسرت النصال على النصال!

وليس ما تتعرض له سورية مفاجئاً أو عارضاً..

فالبلد المقاوم الصامد، الذي تقوم سياساته على المبادئ الوطنية والثوابت القومية، والبلد الذي تشعّ رؤاه، وتصح قناعته، وتترسخ مناعته، وتشرَع مواقفه، وتعلن خياراته.. يحارب بشرف، ويفاوض بكرامة، ويرفض الإملاءات بجرأة، ويدعم المقاومين بشجاعة.. مثل هذا البلد لن يتركه الآخرون يرتاح بأوقاته، وينمي قدراته، ويعزز مأمنه..

الآخرون الأعداء منهم والخصوم، والمفارقون الرؤى والمصالح والغايات..

الآخرون العاجزون، والمستسلمون، والتابعون، والجاحدون، والناكرون، والقاعدون عن أي واجب، والمهزومون..

لن يسكت هؤلاء وأولئك على البلد الذي يتبلور إصلاحه، ويتزايد تطوره،، ويتقاوى دوره في جميع القضايا القومية، ويتألق حضوره الإقليمي، ويتعاظم ظهوره العالمي.. وتزداد أسهمه، ويتراكم مردوده،

وتتقدم أرصدته، وتتحقق إرهاصاته، ويزداد المعجبون والمقدِّرون والمحترِمون..

لن يسكتوا، وسيتّبعون مختلف الأساليب بوضوح أو بمداورة، بفروسية أو بدونية، ويستخدمون جميع الوسائل: السلاح، والتهديد، والترغيب، والخداع..

وحين يعجزون عن ليّ الذراع، وكسر العظم، يحركون الكائنات الشيطانية، والأصوات الناشزة، بأفكار مسمومة، ونيّات مسودّة، ومشاعر حاقدة.. مزينة بكلام حقّ يراد به باطل؛ يوقدون النار من أجل موائد بائتة وأطعمة فاسدة؛ يشوشون الأدمغة بالصور والمعلومات المغلوطة، ويسيلون اللعاب بالأعطيات الدنيوية والوعود الأخروية، كأن لديهم خزائن العرش ومفاتيح الجنان..

من دون أن نتغافل عن أن هناك صادقين في طموحاتهم، ومحقّين في طلباتهم، وأنقياء في تطلعاتهم؛ ربما ظُلموا أو ظَلموا؛ فالوقت والطريقة والمكان والمرافقون.. كل ذلك هل كان مناسباً؟!

ليست المرة الأولى ولا الأخيرة..

ومنّا من لم يتّعظ، ولم يتعلم؛ لم يبادر، ولم ينفّذ، ولم يسارع إلى إنجاز ما هو مطلوب، ولم يتحمس، ولم يحسن التعامل مع المواطنين، ولم يقدر حاجاتهم وعواطفهم وآمالهم وإنسانيتهم..

ومنّا من ظن أن الناس بلا عيون ولا أسماع ولا ذاكرة، بلا قلوب أو مشاعر، وربما بلا كرامة!

ومنّا من لم يرتفع إلى مستوى الحال الحضارية الرائدة، ولم يجارِ

الرؤيا السامقة، ولم يسعَ إلى بذل حقيقي، وعطاء جدّي.. ومنا من فكر بضعف، وتصرف بغلظة، وتعالى بلا إمكانية، وتعامل بلا إنسانية..

منّا من تأخّر عن واجب، وتعثّر في إقدام، وتسلّى بشعار، وتشاغل عن مهمة، واستغل ما بين يديه، وأقام..

فتلاقى ذاك الخارج مع هذا الداخل، وفاحت رائحة عفونة، وظهرت بثور ودمامل..

ولم يقصّر الخيّرون في الإشارة إلى ذلك، وسواه من مظاهر الفساد، والتقصير، والترهّل، والبطء في التجاوب، والتحرّك الإيجابي رغم عصر السرعة، ولم يتوانَ الحريصون عن المطالبة بالإصلاح والمساءلة والمحاسبة، كتابة بمختلف أشكالها، وشفاهاً في مختلف المنابر والمناسبات واللقاءات حتى أعلى المستويات.. أليس الحوار هو السبيل الأفضل، والطريقة الأجدى؟!

ربّ ضارة نافعة؛ فلا يجوز التأخّر أكثر، ولا مسوّغ للتباطؤ، ولا وقت للتردد، ولا رصيد للهدر، ولا مناص من العلاج، ولا بأس بالكيّ في بعض المواضع!

ما جرى لهذا البلد العزيز،ويجري، أقسى مما كان متوقعاً، وأقلّ بكثير من التمويت..

ما جرى محزن على الشهداء، ومؤسف على التخريب المتعمد، ومثير للغضب على من ضلّلَ وحرّضَ وافترى من إعلام فقد احترامه، وأشخاص سقطت ادعاءاتهم، وضاعت رهاناتهم، وأناس ثبت عجزهم وشحّهم..

ربّ ضارة نافعة؛ وقد ظهرت خطوات أخرى أكثر ثقة، وعنوانات أكثر وضوحاً، وعزائم أكثر جدّية..

ومن الظلم عدم القول إن خطوات إصلاحية حقيقية كانت، وتحالفات مهمة أقيمت، وإن ظروفاً ضاغطة أثرت؛ تهديدات ومواجهات مباشرة وغير مباشرة، وكان الصمود عظيماً، والخروج بالخط المقاوم من الخطر المحدق أشبه بالإعجاز..

ومن المكابرة القول إننا لم نتأخر، ولم نتعثر، ولم نغضّ الطرف عن خلل تفاقم، ونتصبّر على وجع تعاظم..

ومن المؤمَّل أن تتسع هذه الرؤى الحضارية القائدة، وتتجسد حقائق على الأرض بأسرع وقت وأبهى شكل.. وتبقى مسؤوليتنا في ذلك قائمة، كما هي مسؤوليتنا فيما كان..

رب ضارة نافعة؛ فما جرى أظهر متانة اللحمة الوطنية، والمناعة الشعبية، والروح الجامعة، والقدرة على المواجهة الواثقة الهادئة.. لامتصاص الصدمة وإفراغ الشحنة السلبية عبر القواعد الراسخة، والروابط المتينة، والمفاصل الحيوية.. وهذا ما ساهم في كشف الجريمة، وانكشاف المتورطين عن قصد وترصد وغاية، أو عن عجز وقصور وغفلة..

رب ضارة نافعة!

***

المصيبة التي...

في المَلمّات تُمتحنُ النفوس، وتُختبر الإرادات، وتُستنفر القدرات، وتظهر الخصال الحقيقية، وتتعرض المعادن الشخصية والروابط الجماعية لتجربة حقيقية؛ أصالةً ومتانةً وفاعليةً ومسؤولية..

يمكننا أن نعتزّ لأن الكيان/ الوطن لم يسقط، ولن يسقط؛ فهذا دليل على أن محصلة القوى الخيّرة الواعية الفاعلة أكبر من قوى العطالة التي تعيق النهوض، أو تلك الشرّيرة التي تشدّ نحو الهاوية، رغم شعاراتها المضللة، فيما الواقع يقول إنها وصلت إلى حدّ: عَليَّ وعلى الجميع..!

وهذا الصمود في وجه الهزّات العنيفة، ليس الأوّل، ولن يكون الأخير، ولم يأتِ من فراغ؛ فهناك عرق، وجهد، وتضحيات.. رؤى سامية، ونيّات صافية، وخبرات.. منها القليل الذي أضيئ في ما مضى، أو أشيرَ إليه لِماماً.. والكثير الكثير الطيّب النبيل كان ينمو بقوة الإيمان بالأرض والإنسان والجدوى التي لا تنتظر مكافأة أو مرحى..!

لا شيء يأتي من فراغ؛ وهناك شوائب، وطفيليات، ونفوس صغيرة، ودناءات، ومزاودات.. وأشيرَ إلى بعض ذلك أيضاً! ولم يكن

ليخفى الكثير منه.. ممارسات واستعراضات ومنافسات غير شريفة، وروائح غير زكية؛ ليس هذا وحده السبب فيما جرى ويجري في بلدنا الحبيب، لكنه الأكثر قدرة على التأثير، لأنه عناصر في بيئة الداخل، وأدوات فيها، وهشاشات وثغرات.. لأنه كان، وسيبقى، بهذه الدرجة أو تلك، وتلك مسؤوليتنا في التخفيف منه قدر ما نستطيع!

أما المؤامرات الخارجية فلم تهدأ، وستتصاعد حدتها مع تزايد قدرتنا على امتصاص الصدمة، وتثمير مسارات الإصلاح، وسيتواطأ أقطاب الشرّ في العالم، مرة بعد مرة، ويترصّدون هذه القلعة المتقدمة للكرامة والمقاومة والقرار الحرّ.. وسيفشلون أيضاً، كما فشلوا في كل مرة، مع أنّهم حشدوا في هذه الهجمة الأشرس كل وسائل القتل والتضليل الشعاراتي والإعلامي، ونفثوا سمومهم من خلال البؤر الفاسدة، والغايات الداكنة.. تلك التي عملوا على تفاقمها طويلاً، وناوروا وساوموا.. وساعدناهم، وأمّنا لهم المرتع المناسب للضياع والتشرّد والتشوّه، والدروب السالكة للهروب القاتم من الورش التي ما توقفت، والميادين التي ما فرغت!

وكان ما كان، ويكون..

المفجع في الأمر، أن بعضاً ممن كانوا في المقدمة تنصّلوا، وبعضاً ممن كانوا في سدة المسؤولية انقلبوا وشمتوا، وبعضاً ممن كانت أصواتهم تعلو تمجيداً، صارت تعلو تسفيهاً، وهذا أهون ممن كانوا في الركب الهازج، يسابقون إلى الولائم.. صاروا يسيرون في الجنازات.. على أمل الجنازة الكبرى!

هناك من صمت، بعد تردّد، بلا براءة أو قلق، وهناك من وضع رجلاً في هذه الضفة وأخرى في تلك، وقد نسي لجبنه، أو لهزالته، أو لضيق أفقه، أنّ من يستطيع أن يتلوّن بسرعة، لا لون له ولن يرى في اللوحة الناصعة بعد حين، ومن لديه قابلية التفكك والانحلال لا هيئة له ولا قامة في كل حين!

ينسى الكثيرون ممن ارتهنوا وانتهزوا، أن لا ضفاف تَسند ولا مراكب تُنجي، وسرعان ما يطفو الكائن الهلامي على السطح، ويُلفَظُ لدى أيّ دفقة عزّ، أو عتبة سموّ!

لقد أثبتت الأحداث الأخيرة أن القوة الكامنة أهمّ من تمظهرات القوّة، وعربدات المواقف، وانفعالات الاحتفالات، وحماسة الدابكين بلا مناسبة!

أثبتت الأحداث أن الوعي لا يتوقّف على الشهادة، ولا يتعلق بالموقع، ولا بكثرة الظهور المأجور أو المجّاني، ولا بالضوء المصطنع، ولا بالحذلقة في الكلام، والأناقة في الهندام.. فالوعي الشعبي العام هو الضامن الحصين؛ الوعي نعمة، وقناعة، ورضا، وتربية، وثقة..

صحيح أن تخريباً نال من الممتلكات العامة والخاصة، وهذا معاكس للإصلاح المطلوب، وخسائر كبيرة وقعت، وضحايا سقطت بلا ذنب غدراً أو خطأً أو غفلة، أو.. دفاعاً عن الأمن والأمان.

وصحيح أن تصدّعات حصلت، منها ما هو مرئي، يمكن ترميمه،

والأخطر ما ليس منظوراً: رعباً، أو ضعفاً، أو يأساً، أو إحباطاً، أو قناعات اهتزت، ومصطلحات دخلت في وعينا، ربما كانت في لاوعينا، ولم نكن نعترف بها، ولم نألفها، لن يكون من السهل تجاوزها سريعاً، ولا سيما ما دخل في روع الأجيال الجديدة.. التي تحتاج إلى اهتمام خاص، وعمل متواصل وسريع ومدروس ومختبر..

فهذا ممكن، كما هو ممكن التعويض على كل الجبهات؛ لأننا لم نسقط، ولأن المصيبة التي لا تقتلك، تزيدك قوة!!

***

خسارات إضافية

مؤلم ما يحدث في سورية العزيزة، ومؤسٍ ما تشهده بعض المناطق من امتهان للحياة وانتهاك للموت، وفاجر ما تقوم به منابر إعلامية، ومخجل سلوك بعض المعارضين، وعدوانيّ ما يصرح به مسؤولون عرب وأجانب، ومنفّر صمت المثقفين..

وجميل موقف بعض الأشقاء والأصدقاء الأوفياء..

ورائع ما يظهره أبناء سورية الشرفاء الواعون لحجم المؤامرة والعدوان، المتشبثون بالأرض والعرض، المتمسكون بالوحدة الوطنية، الرافضون للإملاءات والإذعان والتجاوزات، الخارجون من كل فجّ مشرقين غاضبين واثقين..

لا شك في أن هناك خسارة مرهقة في الأرواح، وخسارة في أعمال التخريب والتهريب والمخالفات والتجاوزات والتحايل واستغلال الأحداث والانشغالات..

وهناك خيبة مريرة من سقوط في القيم والمبادئ والشعارات والمروءات..

لكن خسارات أخرى تظهر خارج حدود الوطن..

الحوارات غير الصحية التي تجري عبر الفضائيات بمواجهة مباشرة أو بالتحكم عن بعد؛ النبرة والألفاظ والمعاني والأساليب السوقية التي يقوم بها بعض من يُعارضون، وهم يقدمون نموذجاً صارخاً للحال التي ستكون، فيما لو تسلموا مقادير البلد والناس بأيّ درجة، وفي أيّ نعمة سيكون أصحاب الرأي الآخر!! ويندرج في هذا الإطار أداء أساتذتهم الملهمين، وأرباب أرزاقهم وأشباههم في الخارج مسؤولين وإعلاميين قريبين وبعيدين.. وما يقومون به من تغطية لأفعال منكرة وفبركة واتهامات وأكاذيب وتضليل وتحريض.. لم تعد فصوله غامضة.

وفيما ما يزال السكوت عن تلك الأفعال ممن يدعون الديمقراطية والحرية والإصلاح.. سيد الموقف الذي لا يحسدون عليه، بعدما سقطت «السلمية» و»الشعبية» و»الديمقراطية»..التي طالما تشدقوا بها، ولا سيما بعد الأصوات التي اعترفت بالتسليح الجيد والتمويل الوافر «للمعارضة»، بعد أشهر من النكران!

وإذا أضيف إلى ذلك ما يلحق بسمعة البلد نتيجة ما يقوم به العاقّون في الخارج، ولا سيما أمام مبنى «الجامعة العربية» في القاهرة، وتكرر مرتين؛ الأولى تجاه معارضين قادمين من داخل الوطن، والثانية تجاه فنانين ومحامين وأطباء ومهندسين وطلاب جامعات.. وشرائح أخرى من مواطنين، أرادوا أن يقولوا رأيهم اعتراضاً على قرار الجامعة المهين لدورها ودور سورية البلد العربي المخلص لعروبته،

والحريص على العمل الإيجابي المجدي دفاعاً عن الكيان العربي، والقضايا العربية، والقيم العربية، المؤسس لهذه المؤسسة «الجامعة»!

ليس هذا فحسب..

فإن عكراً أصاب نصاعة الصورة التي تتشكل لدى من تذكر اسم بلدك أمامه، وكانت تتلألأ في الإعلام إشراقاً ومقاومة ودفاعاً عن الحق والظلم في أي بقعة من العالم؛ إضافة إلى الدور المميز الذي كانت تقوم به إقليمياً ودولياً.

ففي مناسبة جمعت الناشرين من إحدى وأربعين دولة في طهران مؤخراً، في المؤتمر الثاني للناشرين في العالم الإسلامي، كان بالإمكان ملاحظة الملامح على وجه من يلتقيك عارفاً من أين أنت قادم، أو حين يتعرف.. دهشة أو أسى أو شفقة.. ثم تساؤلات علنية أو خفية!

يمكنك أن تتصور حجم الحضور المشوِّه في وسائل الإعلام العربية والعالمية.

ومع أنك تتضاحك وتشرح مرات أنك قادم من أقصى البلاد، عابراً حتى حارات متعددة في العاصمة يوم الجمعة، قبل أن تطير إلى طهران، وأن الأمر محصور في بؤر معينة ومساحات محدودة، وأن هذا الذي يُعمَّم جزء إضافي وهام من الحملة المدروسة والمعدّة والمنفذة بأدوات وآليات وأساليب باتت مفضوحة، لمن يريد أن يعرف أو يستطيع، وهي في أحسن الأحوال لا علاقة لها بالإصلاح

والتعددية والديمقراطية؛ بل هي ببساطة ووضوح معاكسة لها تماماً، ومن الملاحظ أن تلك الشعارات لم تعد تطرح، ولا ترفع اللافتات المطالبة بها، بعد أن أوغل في انتهاكها وتمزيقها أصحاب الرمي «السلمي» الدامي عن قرب ومن بعد!!

لا شك في أن هذا التشويه المقصود لاسم البلد ورموزه الوطنية وتاريخه وسمعته ودوره.. خسارات إضافية ستستمر زمناً، وتتوالى أصداؤها القاتمة في تضاريس العالم، وهي تصيب بشواظها من عملوا عليها أيضاً، إذا ما كانوا ينتمون اسمياً إلى هذا البلد. لكن هذا ليس في حساباتهم واهتماماتهم، لأنهم افتقدوا أبسط قواعد المنطق والعقل والوطنية والأخلاق والإنسانية!!

❋❋❋

بين الإيجابية والسلبية

صباح الخير، مساء الخير، السلام عليكم، العوافي.. عبارات تلقى في أول اللقاء العابر أو المديد، المادي أو الافتراضي، الودي أو الرسمي.. سواء أكان المستهدف بالتحية معروفاً أو مجهولاً، صغيراً أو كبيراً؛ وهي مفتاح الدخول إلى الآخر مهما كانت الصلة أو العلاقة أو الغاية، ولها أهميتها القصوى، حتى لو لم تكن مقصودة تماماً، أو لا تنسجم مع ما يعتمل في نفس أيّ منا تجاه الآخر، وتضاف إليها في مناسبات أخرى مفرحة أو محزنة، عبارات تبارك وتهنئ، أو تعزي وتواسي..

ويعدّ مبالغة في الخصومة؛ بل أعلى درجات القطيعة، عدم إلقاء التحية أو عدم ردّها بمثلها على الأقل. وكم أذابت المبادرة بالسلام من جليد المواقف، وأسالت سيالات العواطف؛ وفي الحكايات القديمة كان يمكن أن يساعد إلقاء السلام في دفع المكروه، والعفو عن المذنب: لولا سلامك يسبق كلامك.. أكلتك وفصفصت عظامك!

ويمكن أن تكون الملامح محيية أو مجافية، والنظرات مقربة أو منفرة، كما أن لحركات وإشارات وتعليقات في العبور والحديث

والحوار معاني ودلالات ورسائل، يمكن أن تكون بشائر خير، أو نذر افتراق.

إن للإيجابية في التعامل مع الآخرين دوراً في تيسير العلاقات، وتأمين الحلول، وتقريب المواقف، حتى لو كانت لدينا مطالب وحاجات ورغبات وأمنيات، وكانت لدى هؤلاء إمكانية تحقيقها، أو كنا نرى فيهم عثرات وموانع في الطريق إليها. وإذا كان الكلام في ذلك سهلاً فإن ممارسته في الواقع ليست ميسرة دائماً، ولهذا أسبابه التي يعود قسم منها إلى الطباع الإنسانية، والموروثات، والتربية الأسروية والمجتمعية، مع اختلاف العناصر والكائنات والثقافة والعلم والاحتكاك والانفتاح، كما أن للظروف التي يعيشها المرء، وما تسببه من حالات نفسية قلقة ومتوترة وضاغطة، تأثيراتها في شكل تواصله مع سواه من أحياء وأشياء؛ وللبيئة وقساوتها أو نعومتها دور في صياغة الأسلوب الذي يعبر به.

ويمكن أن نستذكر هنا قصة الأعشى، واختلاف صياغاته الشعرية بين:

أنت كالكلب في حفاظك للود وكالتيس في قراع الخطوب

التي قالها مادحاً، وبين ما قال بعد حين من العيش الرغيد:

عيون المها بين الرصافة والجسر   جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

فلا شك في أن هناك فرقاً شاسعاً بين الحال الإيجابية التي تمهد

للوصول إلى الغاية التي قد تكون صعبة المنال أو عصية على التحقق، وبين الحال السلبية التي تفاقم الوضع السيئ، وتزيد من فرص حصول المواجهة المفترضة وحدتها، وقد تؤدي إلى امتناع تحقيق قصد قريب وبسيط. كما يمكن أن تسبب سوء تفاهم ناتجاً عن عدم وضوح الموقف استهلالاً أو مشاركة أو سلوكاً، وقد يبنى ذلك على خبر كاذب أو وشاية مغرضة أو صورة مفبركة، أو تحريض مستتر، فيؤدي إلى نتائج كارثية قبل أن يتم التبيّن من حقيقة الأمر وجلاء الواقع!

وهذا لا يعني بأي حال التنازل عن الحقوق أو السكوت عنها، أو النفاق في الإعلان عن قبول المرء بما لا يرضى به، أو التصريح بما لا يتناسب مع ما خفي، أو المبالغة في المديح والتبجيل والانحناء تجاه أيّ كان، وأيّاً كانت مرتبته!

وإن هناك أهدافاً عديدة تم تحقيقها عن طريق سلسة ولطيفة وبكثير من الاحترام للنفس وللآخر؛ ويمكن لهذا الآخر أن لا يقابل الأمر باحترام مماثل، لينطبق عليه الشطر الثاني من البيت المعروف:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ولك الحق حينئذ أن تكون لك أساليب أخرى؛ فليس من المقبول الاستمرار في احترام من لا يستحق الاحترام.

لكن أي وسيلة يجب أن لا تخرج على القانون، لتأخذ طابع الانتقام الفردي والغريزي، والانسياق مع «غزية إن غوت» بسلبية مفرطة،

وعدائية مفجعة ووحشية مقززة، مقدِّماً لذلك بعبارات كارهة حاقدة طاردة قاتلة، وشعارات تدعو إلى الإسقاط باسم الشعب؛ وبصرف النظر عن مدى تمثيل أصحابها، وحقيقة ارتباطاتهم، ومشروعية ادعائهم الحديث باسم الشعب؛ فإن للشعب قيمه الإيجابية، وهو يريد الإعلاء والرفعة لأبنائه، والتطور لبنيانه، والتقدم لمؤسساته، وسرعة الإنجاز لمشاريعه، والإصلاح في مختلف قطاعاته وميادينه وعلاقاته، وإغناء ثقافة مجتمعه وحيوية نشاطاته، وسمو أهدافه، وتماسكه في وجه العدوان الخارجي المعلن، والمخطط الداخلي الهدام، الذي يهدف إلى الإضعاف والتفتيت والخراب لهذا البلد المقاوم بلا تردد، الناهض بثقة، السائر في طريق المستقبل المأمول بجميع شرائحه العريقة وفئاته المتآلفة وأطيافه المتواشجة.

***

ثواب آخر

التنظير من بعيد سهل، والاتهام بلا دليل ظلم، والتعميم مفسدة، والادعاء مضلل، والإلحاح مربك، والنصح بلا حساب... يصح هذا الكلام حتى في الأحوال العادية؛

لأن من يَعُدّ العصيّ ليس مثل من (يأكلها)!

فكيف إذا ما كان يُعِدّها، ويلوّح بها، ويرسلها بأشكال وأساليب متنوعة، لتصادق على ما يقول؟! أو يتدبّر من يقوم بذلك نيابة أو تكليفاً، أو ترغيباً أو تبرّعاً، أو غفلة بلا سوء نية..!

تتشابك الخيوط، وتتداخل القضايا، وتتنابز النتوءات، وتتعالق الهواجس، وتحّوم الأفكار، وتختلط المشاعر..

فكيف يكون الموقف المواجه في حمّى الواقعة؟! وكيف يكون التفنيد، وما هي الحجة المقنعة والحلول الناجعة؟!

وكيف يتم التعامل مع ظرف كهذا، وحالة كهذه؟!

لا شك في أن للثقة بالنفس أهمية في المنعة، ودوراً في الحفاظ على إدارة الدفّة، بما يناسب المسار والريح والغاية..

لكن الثقة وحدها لا تكفي بكل تأكيد، ولا بدّ من استعداد ومعنويات وآليات للعبور الآمن؛ والصمود في حدّ ذاته، لا تقل أهميته أحياناً عن أيّ انتصار آخر..

ومما لا شك فيه أن سبل المواجهة تحتاج إلى عناصر تستطيع الرؤية السليمة في الجو المغبرّ، والتحرك المأمول في ميدان موحل؛ وقبل كل شيء، يجب أن يكون القائمون بالفعل مؤمنين بما يؤدون، مقتنعين بالجدوى، قادرين على التحمل والتضحية مهما بلغت.. ومن المؤكد أن هؤلاء هم الذين يرون المصلحة العليا في ذلك، مصلحة البلد وأبنائه المخلصين في حاضره ومستقبله. وأثبتت التجربة أنهم كثيرون.. ومن الطبيعي أن تكون أحوالهم إلى تحسّن، وطلباتهم مسموعة، حتى لو لم يلحّوا، لنبلٍ وعزة نفس، وهذا لا يعني بأي حال أن من يطالب، ليس لديه مثل هذه الصفات الحميدة؛ بل إن له ثواباً آخر؛ فالمطالبة بالحقوق حقّ وواجب، والسكوت على الغلط مشاركة في ارتكابه، وتشجيع له، ومدعاة لتفاقمه..

ومن المعروف أن من لديهم مصلحة في استمرار الحال المعطوبة، لن يدافعوا بإخلاص، ولن يواجهوا بإقدام، ولن يقدّموا حتى ما يحفظ ماء الوجه؛ وسيقومون بما يشوّش المشهد، ويعكّر اللوحة؛ وقد يشاركون في الحدث بوجهين تمويهاً وتمييعاً وتضييعاً، واستباقاً لما يمكن أن تؤول إليه الحال.. لأنهم المستفيدون مما كان ويكون، المنتظرون الفرص للانقضاض على أرصدة الأكثرية المتراصة من

أبناء الشعب، سبّاقين في أيّ اتجاه، ولاسيما حين يكون المشهد غائماً، ويحدث التشويش والتقاطع والتواصل والتفلت.. ويكون من الممكن للتيارات الأخرى أن تؤثر، تلك التي لا تحمل نوايا طيبة، وقد يساهمون في الترويج أو التخويف؛ لأن هؤلاء اللاعبين في مختلف الجبهات والأوقات، لن يكونوا سعداء بما يمكن أن يتحقق من مطالب مشروعة وتأمين حاجات ملحة.. للذين تقوم مصائرهم على ما تقدمه الدولة، وما تؤمنه من فرص وظروف وبيئات، وإن كان ذلك بعد سؤال وإلحاح وارتفاع نبرة الصوت!

لكن الملفت في ما كان، أن التصرف لم يكن في البداية على قدر المسؤولية! ورغم ما يحدث في المنطقة العربية، منذ بداية عام ٢٠١١م، فقد بدا كما لو أن في الأمر مفاجأة، لم يُستعدّ لها بشكل مناسب، مما أوقع الأخطاء المؤثرة في الحركة والمرونة والتفاعل وردود الأفعال.. فقد كان من الممكن تفادي الكثير مما حصل، رغم علمنا بمدى التحضير النوعي المعادي والتحريض الإعلامي المستمر..

ولكن التوجّه نحو الناس هو الأهم. ولا شك في أن الفرز بين سيئي النية وحسنيها للقيام بالمهمات في المرحلة المقبلة ليس سهلاً، ولا بد أن يخضع لاعتبارات كثيرة، على أن تكون الآليات دقيقة والمعطيات موثوقة؛ إذ سيكثر أدعياء التضحية ومحبو الإصلاح، والقادرون على التمثيل والتحايل والادّعاء أكثر من الساعين حقيقة

إلى تأمين الحاجات الضرورية.. إن انتظار تنفيذ الوعود يفترض أن لا يطول، والتسامح ليس له حيّز واسع، والسكوت فات أوانه، لكن الخطو الجدي المسؤول يكفي مؤشراً على التصميم والأداء المتسارع المقنع؛ فالاعتراف ومواجهة الذات أهمّ وأكثر إلحاحاً من مواجهة الآخرين البعيدين والقريبين، ولهذا كله أساليبه وأدواته وعناصره وذخيرته..

***

الصورة!

راودَتْـك عن نفسك، داهمتْك في عقر وعيك، لم تستمهل الملَكات لتجميع العناصر التي تشكّلها، والمواءمة بينها؛ فالصورة الأخرى تليها، والأخرى تتداخل معها، والمشهد الآخر الأكثر فظاعة..

أنت لست من دون عقل بالتأكيد، ولست غير قادر على التفكير، ولا غير قابل للمناقشة؛ لكنك -أمام حمّى اجتياحها- لا تملك الوقت الذي تحتاج إليه، ولا الهدوء، ولا الأعصاب..

وإذا كنت قد قررت أن تبتعد عن المشهد قليلاً.. لتفكر، أو تحلل.. فلستَ وحدك، هناك الكثيرون المشوَّشون، المبلبلون، الملاحَقون بالتصريحات والتعليقات والإدانات، والتداعي إلى اجتماعات عاجلة، وإصدار بيانات اتّهام وقرارات إدانة.. ودعوات وتحريض لتدخلات أخرى أكثر كارثية!

أنت لست بلا وعي وقدرة على التمييز بين الحقّوالباطل، بين

التيه والرشد؛ لكنك لستَ بلا حواس! والحواس ليست قيد المنطق، ولا تنتظر التقصّي والتأويل والاستناج؛ تستطيع أن تضبط مشاعرك، لكنك لست وحدك؛ ففي جوارك من لهم حواس ومشاعر، ولا يستطيعون الانتظار للتبصّر والتفكّر والوصول إلى قناعة؛ وأيّ قناعة تريح؟! وأيّ نتيجة ترضي؟! وقد حدث ما حدث؛ الخسارة واقعة، والضحايا كثر.. اليوم والأمس، وقبله، وقد يحدث ذلك غداً أيضاً وبعدهوبعده.

سيحدث وقد لا ينتظر قناعتك ورأيك، ولا قناعات أمثالك، أو نواياهم أو دعاواهم أو..

حدث في الزمان ويحدث، من عشرات السنين، ومنذ قرون وقرون أيضاً. ليس لأنّ جريرة من يُحاسَبُ تستحقّ ذلك الحكم، ولا لأنّ من يعاقِب جدير بأن يزن الأمور ويقيسها، أو أن هناك من أوكل إليه هذه المهمة من دون سواه..

الأمور لم تبدأ الآن، وليست هذه هي الصور الأولى، ولا الفاجعة الأولى، والدوافع والمصدر والمردِّدات والنوّاحات والندّابات على طريقة دموع التماسيح.. كل ذلك سيجعلك أكثر هدوءاً، وأكثر تقبّلاً وتصبّراً؛ فهناك من هو حزين فعلاً، وهناك من فقد وافتقد، لأنّ أبرياء استُهدفوا، وغيّبوا بلا ذنب أو علة، وقد يغيَّب سواهم بلا وازع أو

ضمير..

فلتحزن على طريقتك، ولتصبر، ولتتصبّر، ولتشارك الآخرين مصابهم.. لعل في ذلك تداركاً لما هو أسوأ، وتفادياً لما يحذّرون منه؛ بل يريدونه ويُخططون له، ولا يتورعون عن الدعوة إلى تأمين عناصره، ودعم منفّذيه!

لست وحدك في الميدان، مع ذلك عليك أنت تقع مسؤولية كبرى؛ ليس لأنّك في موقع القرار، وقد لا تكون؛ وليس لأنك في موقع العارف، وقد لا تكون؛ وليس لأنك المستهدف؛ لا شك في أنك مستهدف من دون أن يعني ذلك أنك على جدول قاتم أو قائمة سوداء؛ وليس لأنك قريب، وقد تكون قريباً أو بعيداً بأيّ معنى جغرافي أو نفسي أو اجتماعي أو إنساني.. أنت مسؤول لأنك تستطيع أن تفكّر، أن تعي، أن تقدّر الظروف والمواقف، أنت معنيّ لأنك تعرف التاريخ القديم والحديث، ولديك القدرة على الإحاطة بالقضية من مختلف جوانبها، والدخول في تلافيفها؛ ليس من باب موارب أو نافذة طارئة، وليس حقداً ورغبة في الانتقام، وليس بانفعال أو ارتجال أو عاطفة، رغم أن من غير المتوقع أن لا يكون للعاطفة دور وسبب؛ فأنت مواطن عتيق وإنسان عريق، وكائن متصل عاقل؛ وينتظرك المحتاجون، ويتطلع إليك المعذَّبون، ويهفو إلى

حضنك المحرومون واللائذون.. ولديهم الصور التي لا شكّ في مرجعيتها وأصالتها، ولا وهن في واقعيتها وعناصرها، ولا قدرة على تخليقها أو تصديرها، ولا رغبة في استغلالها والمتاجرة بأصحابها.. وإذا لم يكن لديك مثل هذا التصوّر، وليس لديك هذا الموقف، ولست مستعداً لاستثمار هذه الإمكانية، ولست حاضراً للمواجهة والتضحية، فلليلة الظلماء بدور أخرى!!

***

التسارع!!

في حمى الوقيعة، قد يحجب الغبار والدخان الكثير من المعالم.. هذا صحيح؛ ولكن.. الأمر لا يتعلق بالأحداث التي بدأت تحركات متنقلة ومشبوهة على الأرض، ولم تكن مفاجئة إلا في المبالغة في الشراسة والكثير من الأحقاد..

أما الاستهداف والتآمر والاستفزاز والحصار والاتهام للإخضاع والاستسلام وتسليم مفاتيح البلاد للأعداء وحلفائهم وعملائهم.. فقد تكسرت النصال على النصال!

حتى الذين غدروا، وكانوا إلى حين مقربين وراعين وناصحين ومفوّضين فوق العادة، فلم يكن من خصالهم على مدى التاريخ القريب والبعيد، الوفاء والطيبة والخلق الحسن!

لكنها الظروف والأحوال الأمرّ، جعلتنا نجترع المرّ!

وإذا كان الهدوء مطلوباً ورباطة الجأش والصبر والمصابرة وعدم الانفعال وعدم التسرع.. فإن من غير المنطقي أن تبقى السرعة بالمستوى الذي كانت عليه من قبل. فالحركة المطلوبة دوماً في

الاتجاهات كلها، والمتطلبة الآن أكثر من أي وقت، لا تحتمل التأجيل والتسويف، ولا الانتظار أكثر!

وليس المقصود بذلك قلب الأوضاع في برهة، أو قرار. ولكن يمكن للكثير من القرارات الهامة أن تؤتي أكلها بسلاسة ويسر وبلا ضجيج، مما لا تستدعي اضطراباً واهتزازاً ومزيداً من فوضى نحن في غنى عنها الآن..

قد يكون بعض هذا يحدث ولا نشعر به، وهذا أمر حسن، ولكننا نحتاج إلى أن نحس بذلك، لتزداد ثقتنا، وليتأكد اطمئناننا.

في زمن مضى من أيام الحرب الباردة بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي، ضبط جاسوس غربي في بلد شرقي بعد سنوات من العمل الحثيث في تهمة يسيرة وغير منظورة، تتلخص في أن يحول هذا العميل الخطير دون أن يوضع الشخص المناسب في المكان المناسب.

لن نتساءل الآن عن أعداد الذين قاموا ويقومون بهذا الدور عندنا ومن أبناء جلدتنا، من دون أن يكونوا جواسيس مدفوعين أو مأجورين. وغني عن القول مدى الخسران الذي يطال البلد من جراء سلوك كهذا، وهو ليس أقل خطراً من ذاك الذي يقطع الطريق أو يحرق أو يفجر؛فهو في أقل تقدير كان المعبر إلى هذا المآل، أو إنه شكل الملاذ الآمن لهذه الأدوات كي تعمل وتستفحل.

ومن نافل القول أن نتحدث عن مدى أهمية إجراء أو– إجراءات– يؤدي إلى أن تكون النسبة الكبرى من المسؤولين في أماكن مناسبة لهم إمكانياتٍ وخبرات وشهادات وأخلاقاً..

إذ إن سرعة التعامل مع الوقائع المتحركة، والقضايا المزمنة، والمستجدات، بالمقاييس السابقة، ليست كافية أبداً؛ وهي لم تكن كافية في وقتها؛ فكيف تصلح لهذه الأوقات، مع كل هذا الكم من الأحداث والتغيرات في المنطقة والعالم، رغم عدم جلاء المشاهد كلها تماماً؟!

كما أن التسرع الأحمق غير مطلوب إطلاقاً، وهو ليس حلاً، لا الآن ولا في أي وقت..

لكن التسارع أمر بدهي في ظل أحوال ليست عادية، وليس من المفيد الانتظار حتى جلاء الغبار كل الغبار، والدخان كل الدخان؛ لأن الكثير من العنوانات قرئت، والرسائل وصلت، والتفاصيل بانت..

ولم يعد ممكناً بقاء الأشياءوالكائنات في مواقعها كأن شيئاً لم يكن؛ فالفاشلون والمنافقون والساكتون عن الحق، العارفون ما أوكت أيديهم، سيبقون العبء الأكبر على أي تحرك حقيقي في الإصلاح، والرابضون في عقولهم المتحجرة، أو أفكارهم البائتة، أو نواياهم الغائمة، شحيحو المعرفة، فاقدو المرونة، الباحثون عن مزيد مما لا يستحقون من جاه ونفوذ... لا يمكن أن تكون لديهم أو على كاهلهم الحلول، حتى لو كان الكثير من المعضلات من فعلهم،

أو كانت بمعرفتهم أو بغفلة منهم؛ فليس شرطاً أن من قام بالتخريب يستطيع أن يصلح ما خرب، حتى لو بدا بعض الفعل منظماً.. ومنهم من ذهب إلى المقلب الآخر؛ حيث الكثيرون من أمثاله، ومنهم من يضع قدماً هنا وأخرى هناك، في انتظار جلاء الغبار!

إن إجراءات حقيقية محسوسة متسارعة، ستسرع أيضاً في جلاء أي غموض يمكن أن يكون ما يزال لدى البعض، أو بيان كل الأمور على حقيقتها، وسيؤمن بيئة أصلح للعلاج الأسرع؛ وبالتالي سيتساقط الكثيرون من أنفسهم، ويتنفس الصعداء من انتظر طويلاً، وتحمل كثيراً وما يزال.. ليس لأنه غير مقتنع، ولا غير واثق بالخلاص الأكيد؛ بل انطلاقاً من الآية الكريمة: ليطمئن قلبي!!

***

الرصيد..

من طبيعة البشر السعي إلى أن يكون للمرء ما يطمئنّ إليه بعد زمن، قد يحتاج فيه إلى ما يؤمن قوْته أو يضيئ صورته، أو يقدم ملمحاً منه إيجابياً، أو صدى يستسيغه..

يصحّ هذا حتى مع الصغير الذي يبتهج لاقتناء مطمورة، يضع فيها القليل مما يقتطعه من (خرجية) شحيحة أصلاً، يحسّ معها بأمل محفّز، وتوق مديد مشوب بفرح خفيّ إلى يوم يفتحها على مبلغ أكبر، يفيده في اقتناء ما هو أثمن، وما كان يعزّ عليه تحصيله لولاه. ومع هذا الإحساس بفوزٍ ما مضمون، ولو بعد حين، شعورٌ بالرضا لكون هذا الأمر قراراً شخصياً، وحصيلة جهد ذاتي، أو تدبير محلي، واختيار واصطبار.. فيكون له مردود مجدٍ ينمّي الثقة بالنفس، ويساعد على تخطّي المواقف الصعبة، والمراكمة من أجل مواقف أصعب..

وعلى هذا الأساس تطورت وسائل حفظ الرصيد وتناميه، وتنوعت، حتى كانت البنوك التي تزيد الأرصدة بما قد يفيض عن حاجة المرء، رغم طموحه المشروع وأطماعه المشرعة، لكنه الإحساس الضروري بالأمان، الإحساس الذي لا بدّ منه لكل منّا في عمره المتقاصر الذي قد ينتهي في أية لحظة، ويترك الرصيد الذي

ابتناه لسواه من ذِرّيّة وورثة يمكن أن يحسنوا استخدامه، أو يبدّدوه بلا مسؤولية.. ومن الناس من يقدّم تبرّعات وهبات ومساعدات في حياته لمن هم في حاجة دائمة أو طارئة، وهناك من يوصي بما سيترك بعد رحيله إلى جهات أخرى ذاتِ نفعٍ اجتماعي إنساني معلن، لكي يضمن حُسْنَ الذِّكر (فالذِّكْرُ للإنسان عمر ثانٍ)!

وليس الجانب المادي هو الأساس في حرص المرء على أن يتواصل ذكره ويمتدّ طيبه؛ بل هناك توجّهات فكريّة وتطلعات إنسانية وكتابات ومذكرات ووصايا..

وإذا كان هذا يمكن أن يتمّ على الصعيد الفردي المحدود وبشكل مباشر أو مقصود، قد يصل إلى تقديم الغالي والنفيس حتى التضحية بالنفس، ليضمن الشهيدُ الرصيدَ الأعلى الذي لا ينوس ولا ينضب.. فإنه يمكن أن يُستنتَجَ أيضاً في نواح أخرى، بطريقة غير مقصودة، أو غير منظورة؛ لكنه في لحظة مفصلية قد يغدو بالغ الأهمية، يرفع المرء إلى مواقع سامية، أو يلقي به أسفل سافلين.

ففي كل يوم ثمّة مسعى، وعلاقة، وعمل، وقول.. في الأسرة، أو الحارة، والوظيفة، والسوق.. وهناك من يراقب، يلاحظ، يراكم، يقوّم.. ويُسجَّل هذا في الذاكرة الجمعية..

قد تتبدل الأحوال، وتحلّ الملمّات، وتختلف الظروف، وتتغيّر السلوكات والمواقف.. وهناك لحظات فوز وأوقات خسارة، ثورات

غضب وإثارة، هدوء وتأمل.. وللكائن طبيعته التي تتنوع من وقت إلى آخر، ومن شخص إلى آخر؛ وهناك من يراقب ويرصد ويقارن..

وفي ميادين العمل المتعدّدة ثمّة وظيفة ومهمّات ومشاريع وواجبات وكفاءات وعلاقات وإمكانيات وفرص.. وهناك مسؤولون يتصرّفون، يُقدِمون، ويُحجِمون، يدّعون ويمارسون، يهبون ويقتّرون.. أوقات تمر، وفترات تنقضي.. ومهمات تُنجَز، وأخرى تُؤجَّل، أو تُزوّر، أو تُستغَّل، أو تُنسى..

وهناك من يراقب ويقوّم ويسجّل..

وفي الحياة خطوات ومراحل ومسؤوليات، ورؤى ورغبات ونزوات..

وفي مسيرة الوطن قفزات وعثرات، خطط ومشروعات، التزام ومبادرات..

ولكل من أبناء الوطن دور، وموقف، وفعل، وردّ فعل..

منهم من لديه الحماسة للبذل والعطاء بلا حساب، وبلا تفكير في أي مكافأة أو جزية، فمرحى لهم رصيدهم المكتنز، وهناءة الوطن بهم؛ وهم كثر.. ومنهم من يتعامل بما تقتضيه الظروف والواجبات بلا كبير اكتراث أو حَميّة، وآخرون ينتفعون بأكثر مما تبيحه القوانين.. مغافلةً أو تشاطراً أو تزويراً أو تلفيقاً أو انتهازاً أو تسلّطاً.. ومنهم من يربط مصيره بمصير آخرين في المسؤولية، يسقط بسقوطهم، وقد

يرتفع معهم.. ومنهم من يرتبط بالآخر القريب أو البعيد، بلا تحفّظ أو احتساب..

ومنهم من ينتظر السقوط الكبير ليشمتَ وينتقم، حتى لو لم يكن له مكان مضمون من بعد، وآخرون يسهمون في ذلك مباشرة، مأجورين قاتلين مخرّبين محرّضين مثيرين فتناً وتصدعات في الجسد الواحد، الذي يفترض أن تتداعى شرائحه كلها إذا ما اشتكى عضو منه.. فأيّ رصيد يتبقّى لهؤلاء مع بقاء الوطن أو خرابه؟!

أما من يرتهن للخارج العدوّ المتربّص بالبلاد شرّاً، فحتّى لو حصل على موقع وجاه وأضواء بحصول الغزو، أو سقطت رهاناته وغاياته السوداء، فقد قامر بكل شيء، وخسر كل شيء، وأهدر رصيده السابق، إن كان له من رصيد، مهما بلغ، وقد أودى بمصيره، ووقع في مهانة لا قيامة بعدها، ومات ميتة جاهلية..

***

المثال!

من المألوف أن يتخذ المرء، أياً كانت شريحته واهتماماته، مثالاً يحتذى، أو رمزاً ذا قيمة عليا، أو قدوة يقتدى بها سلوكاً أو أفكاراً أو قدرات.. وقد يتجسد ذلك كلّه أو جلّه في شخصية تاريخية أو معاصرة، ويمكن أن تكون دينية أو ثقافية أو سياسية أو اجتماعية مع تفرعات ذلك عسكرياًأو اقتصادياً أو فكرياً أو أدبياً أو فنياً.. ويمكن أن تجمع الشخصية ذات التقدير العالي بين أكثر من جانب، وتتميز في أكثر من مجال.

كان هذا، ويكون، وسيظل ذلك قائماً بهذه الدرجة أو تلك، ما دام الإنسان تواقاً إلى أن يكون ذا شأن أو ذِكْر، أو ذا عمر آخر أو أعمار!

ومن الشائع أن ينتشر ذلك في مقتبل الحياة، وفي منطلق الحماسة إلى أن يكون للشخص هيكل متماسك وشخصية مستقلة يشار إليها تميزاً وإعجاباً؛ومع احتمال التراجع أو التخفيف من حدة الشعور بذلك، قد تستمر الحال حتى المراحل الأخيرة.

ولا شك في أن لهذا الأمر أثراً إيجابياً، وحافزاً للسعي إلى مقاربةالمثال مستوى أو شهرة، مما يفيض معنوياً؛ وقد يغدو ذلك

جزءاً من التكوين النفسي والكيان الإنساني للمرء، اكتمالاً لجوانب، وإحساساً بالامتلاء أو امتداداً لآفاق.. كما يشكل متكأً يساعد في التوازن، ومعيناً في النهوض حال النكوص، وحاجة يزداد تطّلبها مع اشتداد الخطوب.

وتلعب البيئة، ومن قبلها الأسرة، دوراً في تحديد الشخصية المتمثَّلة، تماشياً مع ثقافتها، أو تمرداً عليها. وقد تكون تلك الشخصية المثل مقدسة، أو تقترب من القدسية، وقد تتوازى مستويات القداسة أو التبجيل لعدد من الشخصيات بالنسبة إلى شرائح من البشر تتنوع في عقائدها الدينية، وتوجهاتها الدنيوية.. كما يمكن أن تتنافس تلك الشخصيات في ذلك إلى درجة المبالغة في الصفات والسمو والمعجزات التي تقترب من أساطير الأولين.

ومن المعروف تاريخياً وعصرياً أن هذه الرموز قد تصبح مثار خلاف، وتدخل ميدان المبارزة، ومفازات السباق إلى السيادة المعنوية والمادية لفرد أو شريحة. وكثيراً ما يلجأ أصحاب المصالح السوداء والغايات الشيطانيةإليتحريك الجمرات التي لا تكاد تخبو، وصبّ المواد الشديدة التأثير، لتعميق سياقات الفرقة، وتعميم شرور الفتنة. وقد يقومون بذلك بشكل غير مباشرعبر نبش السلبيات التي قد تكون غير معروفة في حياة المثال وتضخيمها إن كانت موجودة أصلاً، وصولاً إلى اختلاق حوادث أو صفات تزيد من تشويه الصورة وتقزيم المعنى، وعرضها على الملأ، فيصاب المرء الذي يَحترِم بالصدمة ويتعرّض كيانه للاهتزاز، ويتأثر المجموع الذي يكنّ

للشخصية المستهدفة التقدير، ويزداد الالتفاف حولها، وقد يكون الردّ بأسوأ من ذلك!

ومن الطبيعي أن تزداد ردود الأفعال شراسة في المجتمعات (النامية)، وبالتالي تكون (الأفعال) الموجهة إليها مدروسة ومحضرة وممولة لتدميرها، ما يسهل السيطرة على مقدراتها والتحكم بمساراتها المستقبلية. ومن المفهوم والمألوف أيضاً أن تتوجه الجهود السرية والعلنية إلى من ليس في الحظيرة لضمه إليها ترهيباً أو ترغيباً، وأن يبقى الهاجس قائماً للي ذراع من يرفع يده محتجاً أو رافضاً، ولتهشيم من يسعى إلى أن يكون له رأي حرّ وقامة مشرعة ورأس مرفوع؛ وكثيراً ما يسخّر لهذه الغايةمن يركز على التناول المباشر لهؤلاء المقاومين الشرفاء، مع تكرار ذلك وتصاعده واتساع رقعته، والتمادي في التشهير من قبل أناس صغار وعبر منابر عديدة، حتى يصبح ذكرهم عادياً وسيرتهم مبتذلة، وتسقط عنهم صفات الاحترام والتقدير والتنزيه!

وقد اعترفت دوائر ومؤسسات عالمية باعتماد ميزانيات ضخمة من أجل هذا الفعل الخبيث، ونشهد في هذه الأيام الكثير من مشاهده، في ما يجري في منطقتنا العربية، ولا سيما في سورية. وليس ذلك في سبيل جعل الشخصيات واقعية بلا مبالغات؛ بل للنيل منها ومن مواقفها المبدئية ومسيرتها الوطنية ومشروعها الإنساني النبيل.

ومن النافل القول إن من كان له تاريخ أسود وسمعة سيئة وأصابع ملوثة بالدماء والعملات،ومن يرضى أن يكون أداة للنفخ في النار

القاتمة، أو للطعن في الظهر والوجه، لن يخسر شيئاً إذا ما تم الرد عليه حتى لو وصّف بما لديه واقعاً مشهوداً، في الوقت الذي يغدو فيه مجرد المواجهة بين هؤلاء وأصحاب القامات العالية خسارة وأيّ خسارة!لكن في المسار نحو الخلاص الكريم الكثيرَ من الوعورة والشوائب والنفايات التي ينبغي تجاوزها بأقل قدر من العثرات والتلوث!

إذ إن أساليب الحرب والعدوان متعددة، وليس هذا الشكل سوى الوجه الأخبث والأدهى والأشد انتهاكاً للحرمات والمقامات؛إلا أن من امتلك الحصانة الذاتية والحكمة المعرفية والرصانة العقلية تجعله أقلّ استفزازاً وتهوراً، وأكثر تماسكاً وعناداً وتضحية في الدفاع المشروع عن مثاله وبالتالي عن نفسه، مع التمسك بالموقف والصلابة في تقديم الحجج والبراهين المقنعة لمن يريد أن يقتنع، لكي يبقى الهدف هو الأساس، والغاية هي الأهم، والخطو الواثق السامي في السمت الصحيح.

***

كلام في الإعلام

لكل كلام غاية يقصدها صاحبه، متحدثاً كان أم كاتباً، وليس من حديث حيادي إلا إذا كان بلا معنى؛ ويظهر القصد من المفردات والإيقاع والنبرة والملامح.. ولكل حادثة راوٍ يختلف عن آخر حسب هواه مهما ادعى الحيادية؛ حتى الطرفة تتفاوت مستويات إضحاكها وإمتاعها باختلاف رواتها، مهما كانت ممتعة!

وإذا كانت هذه حال الكلام الذي ليس عليه (جمرك)؛ في الثرثرة والمسامرة والحكي العادي.. أي الحديث الذي لا يكلف شيئاً أو كثيراً؛ فهل يمكن أن نتصور كلاماً معداً ومرصوداً ومكلفاً يقال لوجه الله؟! سواء أكان ذلك إعلاماً ملكاً للدولة أو للأشخاص؛ وليس من الواقعية في شيء افتراض إطلاق منبر إعلامي بلا هدف أو غاية؛ ولا سيما إذا ما كان باهظ الكلفة، إذا ما أراد البثَّ المتصلَ والواصلَ إلى أبعد الأمداء، كما هي أحوال القنوات الفضائية التي انتشرت بكثافة في السنوات الأخيرة، وباختصاصات تتراوح بين الإخبارية بالكامل، أو الفنية بإطلاق، أو الدينية أو الرياضية أو المنوّعة.. ومن طبيعة

الأشياء، أو ما أستشعره على الأقل حيال كل أمر، أن الأمان متوافر في الإعلام ذي الملكية العامة أو ما يدعى الإعلام الرسمي، أكثر منه لدى أيّ ملكية خاصة، حتى لو كان في أقصى درجات الموالاة؛ لأن قوس المراوحة أقلّ في الجهات العامة وكذلك المرونة والحيوية.. حتى لو اختلفت الأنظمة المتعاقبة في البلد ذاته. ولا شك في أن للشخص المسؤول دوراً مهماً في ذلك، ولكن الفروقات تبقى أخفّ حدّة مما لو كانت الملكية خاصة؛ أي لو كان الحلّ والربط بيد شخص، يتغير بتغييره أو تغيّر توجهاته كلُّ شيء، ولا نغفل أن هذا التغيير بحدّ ذاته يكون وراءه هدف أو غاية، ويمكن أن يتم في غمضة عين، ومهما كانت الحرية الممنوحة لأعضاء فريق العمل الذين ينصاعون بلا تردد، أو يُقالون بلا أسف عليهم، أو ينسحبون بكل جرأة ومصداقية وانسجام مع أنفسهم!

وهذا ليس مسوّغاً لجمود الإعلام الرسمي وليس تقويماً له أو عليه؛ بل هو تفسير أو تحليل.. لأن بإمكان الإعلام الرسمي أن يكون ممثلاً لأكبر شريحة من الناس بأفكار مختلفة وآراء متعددة، ويمكنه؛ بل من واجبه الإشارة إلى الأخطاء، ورصد التجاوزات، وتعرية الوقائع، بلا اتهام مجّاني أو تشهير من دون حساب، وبلا خوف من خسارة أو انكفاء! كما أن من واجبه حماية السلم الأهلي، وعدم إثارة الفتن، والعمل على الحدّ من تفاقم التصدّعات والشروخ

بين أبناء البلد الواحد؛ وذلك واجب على الإعلام الآخر أيضاً مهما كانت درجة تخصيصه!

وليس الإعلام الرسمي في حدّ ذاته تهمة، وليس الإعلام الخاص الذي يقوم بهذا الدور بوقاً للسلطة، يقتضي الإدانة والتشويه، لأنه يشوّه الحقيقة؛ إذ إن هناك حقائق يمكن أن يسبب نشرها نتائج كارثية، ويكون من الصالح إغفالها أو تجاوزها، أو التعامل معها بحذر وعقلانية..

ولا يعني هذا اقتصار البثّ على الأمور الزاهية، والأحداث المفرحة المنتصرة، رغم أن في ذلك فائدة وتحفيزاً للعمل من أجل الفوز؛ لكنه قد يتحول إلى غشّ وادّعاء، حين نبالغ في تصويره والاحتفاء به، ويتحول إلى تحايل وتكاذب، حين نظهره بما ليس فيه من جمال أو بهاء أو رضا؛ فتبقى العلة كامنة تتفاقم، وتبقى البؤرة آسنة تتكاثر فيها الجراثيم وتتكاثف الفيروسات.

ومن المفترض والطبيعي أن يكون في موقع القرار الإعلامي من هو قادر على التحرك بوعي ومسؤولية، ولديه من الخبرة والثقافة والإدراك ما يجعله يوجه العاملين لديه الوجهة السليمة، وتكون التغطية أو الإضاءة أو المقاربة ضرورية ووافية. ولا بد هنا من تأكيد أهمية العاملين في الإعلام، بمهنيتهم وثقافتهم وخبراتهم ومبادراتهم، التي لا تنتظر قراراً يفوّت الحرارة والحيوية والحماسة،

أو توجيهاً يحوّر الألوان ويعدّل الأسباب أو يعبث بالعناصر فتتبدل الصورة.. ومن البدهي اختيار الأكفأ والأكثر قدرة على الفهم والصياغة والحوار في البرامج المتنوعة.. ومن الأهمية بمكان أن لا تبدو السذاجة والسطحية والتعمية في التعليق أو الأسئلة أو النقاش، وأن لا يظهر عبء الواجب وأمر الوظيفة في الأداء رتابة وبرودة وفجاجة؛ كما يفترض التخصص والمعرفة في القضايا المتناولة، سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية..

❊❊❊

الإعلام الشاحب!

حين بدأ بعض الإعلام الحديث–الحرّ– الدعايةَ لاجتياحه أوقاتنا واهتمامنا بتأكيده: «...مع الحدث قبل الحدث.»! كنا نضحك طرافة، قبل أن بتنا نتفهّم بأن ذلك يعني رصد الواقعة انطلاقاً من مؤشرات ومقدمات ودلائل، توحي بحدوثها أو تتكهن أو تنبئ.. ولذلك عناصر وعوامل وإمكانيات وخبرات؛ مع ذلك يبقى احتمال الخطأ وارداً، مهما كانت نسبة تحققها، التي لا ينسى أصحابها تضخيمها، إمعاناً في تأكيد القدرات وتسويق المصداقية! لكن.. هل يتجرأ هذا الإعلام ذاته، أو أيّ إعلام آخر –إذا ما حرص على هذه المصداقية التي يدّعي أنه ممثّلها الوحيد، وأنها مفتقَدة أو غير محترمة من قبل أيّ إعلام رسمي– على نفي الحادثة وقد وقعت، أو الإعلان عن وقوعها ما لم تحدث؟!

ومن المعلوم والمفهوم أن الإعلام الرسمي، أو أيّ إعلام قد يقلل من أهمية الواقعة، أو يتجاهل تبعاتها بناء على السياسة التي تشرف عليه، ولا سيما إذا ما كانت الأحوال طارئة؛ وهذا ليس غريباً ولا جديداً..

لكن.. ما هي حجة الإعلام الخاص الذي يتمثّل الحرية والرأي والرأي الآخر، حين يصنع حدثاً أو يضخّم واقعة، ويلغي من حساباته وقائع مهما كانت كبيرة وفاقعة؟!

وما مسوّغه في ادّعائه الإضاءة على ما يجري في بلدنا العزيز حين يكون الشحوب عنوانه؟! فيعتمد على شهود عيان غير معروفين، وفي أمكنة غير موثوقة، ويستضيف ناشطين حقوقيين وسياسيين مجهولين؛ (ناهيك عن المحللين والمفكرين! و..المعارضين!)، ليؤمن الوسائل والمعدات، ويكرس الوقت المديد لهم، يلقون البيانات والادّعاءات، ينقلون المشاهدات في بثّ مباشر لا يتوافر لأهمّ المراسلين الحربيين، ويتمتعون بالحماية والرعاية والاهتمام والتمويل والتوجيه والتذكير.. ليؤكدوا حصارات ومجازر ومعارك وقتلى من طرف واحد.. فيما الصورة تهتزّ رغم الأجهزة الحديثة، والأضواء خافتة حتى في وضح النهار الصيفي، والملامح غائبة رغم وضوح الشعارات، والتفاصيل ضائعة رغم المسافات والمساحات غير المكتظة، ونقاط العلام غائمة مع بريق الكلمات على اللافتات.. أما أعداد المتظاهرين ففلكية!

أعلم، وأعجب من أن هناك من ما يزالون يستطيعون متابعة هؤلاء، مع المعاناة المريرة التي تحملتها غالبية الشعب السوري بعد كل تلك الأيام الأليمة؛ ناهيك عن التحدث بأضاليلهم التي يصرّون على الإيغال في مجاهلها والنفخ في أتونها الملوث، تطبيقاً حديثاً للنظرية القديمة: اكذب واكذب حتى يصدقك الناس، الذين لن يصدقوا،

وقد صار لديهم ما لا يحصى من المؤشرات والدلائل على تلفيق صور تجمعات حيوية لأعراس موزّعة، وزرافات مشيِّعة في جنازات قَدَريّة، وتعتيمها وإرعاشها لتناسب الإخبار بأنها تظاهرات صاخبة! أو لتنسجم مع وجوه المذيعين الصفراء حقداً وضغينة، أو الكالحة «من سوء» ما ينفثون ويرتضون، وهم يعرفون؛ فيما الشرفاء في تلك المنابر التي صالت وجالت بفضل إشراقاتهم وشفافيتهم، انفضّوا عنها فاضحين مُدينين!

لقد بات هذا الإعلام صانع الحدث، أو مشاركاً في إنجازه، أو «مبشِّراً» به موجِّهاً ومحرِّضاً.. وإذا ما جاء على الوقائع، فيذكر الجانب الذي يفيد في متابعة مشروعه الظالم، ويضخّمه ويكرّره، ولا يأتي على ذكر الجوانب الأخرى أو الوقائع المغايرة أو الروايات المفارقة -وهذه من أولى مهمات الإعلام المحايد، وأبسط قواعد الأمانة الصحفية والإعلامية- رغم أنها أكبر وأكثر وضوحاً وجلاء؛ سواء أكانت دموية: «المقابر الجماعية لرجال الأمن في جسر الشغور مثلاً»، وأكثر بهاء وألواناً: «المسيرات الشعبية المؤيدة للإصلاح والحريصة على الوطن، والعازمة على مواجهة الفتنة والتخريب والتضليل والفلتان والعدوان..»؛ رغم أن ألوان هذه المسيرات بأعلامها المشرعة، والجباه الغراء، والملامح الواثقة.. يمكن أن تخفف من لؤم شاشاتهم، وقتامة أفكارهم، وخبث نواياهم، ومكر أفعالهم.. لكنه الحقد وما أوغره، والثمن وما أذلّه، والدّور وما أثقله، و»الحسد وما أعدله.. بدأ بصاحبه فقتله»!!

وعجبي أكبر ممن ما يزال يتجاهل هذا الدور الإعلامي الممجوج والمفضوح في الحرب الكونيّة على سورية، من المثقفين وسواهم، قصداً أو غفلاً، ولا يتوانون عن الهجوم على الإعلام المحلي عاماً وخاصاً، حتى وهو يقدّم معلومات واعترافات لمسلحين يقتلون متظاهرين وعسكريين، وشهود عيان مزيّفين، ومفبركين للصور والرسائل؛ أو لا ينشر مشاهد ووقائع وأقوالاً أخرى ترفّعاً وحدّاً من الشرور، أو عجزاً وقصور رؤى.. نتمنى أن نراها جميعاً؛ رغم علمنا أن ذلك لن يغير في القناعات؛ مع يقيننا أن المطلوب من إعلامنا الكثير الكثير؛ والمطلوب منّا أكثر وأكثر..

***

حلقة مفرغة!

(يقول الطبيب النفسي جوليوس إي هوشر: «إن صغار الأطفال الذين يتعرضون للمواد المتعلقة بالبرامج التلفزيونية الخاصة بالكبار- نظراً إلى مستويات سنّهم ونموهم- يصبحون أكثر اضطراباً؛ الطفل الذي يُعرّض لوفرة مفرطة من صراعات الكبار الحياتية ورغباتهم، وبالتالي يتم دفعه باتجاه أفكار ناضجة، يميل إلى أن يصبح خائفاً من أن يكبر؛ لهذا تتعطل عملية نضجه..»؛ فبسبب الانزعاج والقلق ومع تقدمهم في العمر، يخشون النمو وأن يصبحوا كباراً يفقدون الثقة بالآخرين، ولا سيما أفراد الجنس الآخر. إن هذا الأمر يجعل من هؤلاء الكبار/ الراشدين غير سعداء مما يؤدي إلى أنواع مختلفة من الهروب، ومنها تحديداً مشاهدة البرامج التلفزيونية ليحصلوا على ما يريحهم؛ وهذا ما يشبه الأسر في حلقة مفرغة: بسبب التلفزيون يحدث القلق والاضطراب وعدم الثقة، وهذا يقود إلى عدم الاختلاط، فالوحدة، فالعزلة، فالعودة إلى التلفزيون!!)؛ كتاب «وسائل الإعلام والمجتمع وجهة نظر نقدية» تأليف آرثر آسا بيرغر، ترجمة صالح خليل أبو إصبع، عالم المعرفة العدد ٣٨٦ آذار ٢٠١٢م.

يُظهر مثل هذا الكلام قضية هامة تنبغي مراعاتها والحد من تأثيراتها الضارة في الأحوال العادية، ويمكن توسيعها إلى وسائل أخرى كالانترنيت، وما يتيح من مواد يمكن أن يطلع عليها الأطفال واليافعون، فيدخلون في مثل هذه الحلقة المفرغة؛ هذا في الأحوال العادية التي يمكن أن تكون إمكانية التدخّل من قبل الأهل أو أولياء الأمر ممكنة، بالتقليل من الجلوس أمام الجهاز، والخروج في نزهة، والتشاغل بأي أمر مسلٍّ ومفيد؛ فما بالك حين تكون الأحوال قارسة، والظروف خارج السيطرة، ولا تتعلق بالتلفزة والأجهزة الأخرى، والحال الافتراضية فحسب؛ بل بالحياة في شروطها الدنيا ومتطلباتها الضرورية القريبة: الذهاب إلى المدرسة أو العمل، أو حتى إلى الطبيب، والعودة؛ التحرك للتسوق واللعب والزيارات؛ السهر والنوم.. كما في أحوال الأزمات؛ فلا أنت تستطيع التحكم بالعناصر والظروف، وليست محاولات التهدئة والإشغال يسيرة، أما الردّ على التساؤلات الصارخة والنداءات الجارحة فعصيّ، وتفسير الأصوات والمشاهد والحكايا أكثر عسراً، وليس في استطاعتك التعويض عن الأمور المفقودة الكثيرة، أو حتى الحماية الآنية من الفرجة والدهشة والخوف، والأضرار النفسية الأخرى؛ ناهيك عن الأذية الجسدية المباشرة أو غير المباشرة، حتى لو كان السقف حديداً والركن من حجر!! بل أنت غير قادر على تأمين مثل هذه الحماية لنفسك أيضاً؛ وتغرق في اللجّة ذاتها، بالانتقال من قناة متوترة إلى محطة محرّضة،

ومن أخبار عاجلة إلى تقارير ميدانية حامية، إلى تحليلات تصب الزيت على النار، وحـوارات تبخّر ما قد بقي من أعصاب! وفي خضم المعلومات المتداخلة والبيانات المتضاربة والمشاهد الضاجة والأوقات الشوكية، تصاب بالدوار أيضاً، وتقع في الحلقة المفرغة ذاتها!

لا شك في أن ذلك يحدث للكثيرين منا وفي حدود متفاوتة، ويحدث ما هو أشد منه وأقسى في أماكن متعددة، تشهد أعمالاً إرهابية مباشرة، ولا شك في أن هذا بالغ الضرر، ويؤدي إلى اضطرابات وهلوسات وأذيات نفسية، تتفاقم مع فقدان أعمال ومداخيل ضرورية، ولقاءات ألفة وتوادد وتراحم، لا تقلّ أهمية!

لكن الأمر الذي يخفف ويواسي، أن القضية مفهومة منذ البداية، وباتت أكثر جلاء لمن كان أمامه ستار من وهم أو ضعف أو قنوط، والمواجهة حتميّة ومفروضة في أيّ وقت وزمان، وقد اتخذت الآن هذا الشكل المباشر، وهذا المكان المميز وهذا البلد العزيز، وتخص الشرفاء والمخلصين والأوفياء في الوطن المستهدف، وفي العالم أيضاً، وهذا ما يظهر من وقوف القوى الخيّرة والمدافعة عن الحق والسيادة بصلابة أيضاً، في وجه الضغوط الشرسة التي تتعرض لها!

لا شك في أن تلك الأعراض التي يشعر بها فلذات أكبادنا، والتصدعات التي تصيب أكبادنا، خسارات في الرصيد، وفواقد في

الطاقة، وعثرات في رؤى المستقبل، لكن المخزون وافر، والقوعد راسخة، والحصن منيع بوعي وثقة وعزم وتصميم وإرادة، وهي كفيلة بالمساعدة على الخروج من الحلقة المفرغة لمن وقع فيها، وكفيلة بعلاج المنعكسات السلبية لهذه التجربة المُرّة أيضاً، والوصول إلى الخلاص المنشود.

***

شعارات!!

كثيراً ما يؤخذ على المراحل السابقة من الحكم في سورية، أنها مرحلة شعارات، جرى الترويج لها لكسب ودّ الناس لأنها تدغدغ أحلامهم، والاحتماء بها لصدّ المناوئين، والاستقواء والتعلل والتسويغ للاستمرار في القيادة والمواجهة المفتوحة مع الأعداء على الجبهات كلها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، علنية أو خفيّة، وبالأساليب المتنوعة، التقليدية منها والمستحدثة، وقد أخذت في الآونة الأخيرة شكل الحرب الشاملة دولاً وعناصر وطرائق وأدوات..

وعلى الرغم من الإنجازات الكبيرة على الصعد المختلفة داخلياً وخارجياً، في خضمّ تلك المواجهة التي لم تتوقف؛ فإن شوائب كثيرة اعترت تلك المشاهد التي صورت –ربما– بأبهى مما هي في الواقع، وإن نواتئ مألوفة أو مقصودة أعثرت الخطو الذي راح أصحابه يسِمونه بألوان ضرورية! ولم تكن الحالة يوماً بلا نقد خجول أو حاد، ولا المقررات بلا اعتراض.. من دون أن يكون ذلك مجدياً كما يجب؛

ولسنا هنا بصدد الشرح والتحليل والتعليل والاتهام، وإن كان هذا أمراً لا بدّ منه، ولا سيما في هذا الوقت!

ولكن الأمر الذي لا بدّ منه أيضاً، وفي هذا الوقت بالذات، الحديث عن الشعارات التي يحملها المعارضون محتجّين أو موجِّهين أو مروّجين أو محرَّضين أو داعمين..

ومدى مطابقتها لما يحدث على أرض الواقع، ومنها ما كان يطلق عليه من خلال الحملات التي يقف وراءها من يقف في صفوف المعارضة أو أمامها أو خلفها، أنها عبارات خلبيةأو شعارات خشبية! كالثورة، والثورة الشعبية، والحرية، والشعب يريد ذلك، والكرامة، والوطنية، والقومية، والمواقف المبدئية..

ناهيك عن العبارات الأخرى: سلمية، ديمقراطية، تعددية..

فكثيراً ما تحولت الاحتجاجات السلمية إلى العنف المسلح، بعد وقت قصير من انطلاقها، أو اُتّخِذت ستاراً لذلك، باعترافات بعضٍ ممن شاركوا فيها، أو عانوا منها؛ فماذا نسمي السلاح المستخدم والظاهر والمضبوط، والفلتان الأمني المتنقل في عدد من المناطق؟!

وماذا تعني الديمقراطية لمن يطلب من الآخر تنفيذ شروط والقيام بإجراءات قبل أن يقبل مجرد الحوار معه، وهو ما يزال في الحكم؟! وما موقف الديمقراطية لديهم مِن أصحاب المواقف المختلفة معهم، إذا كان يُفرَض على البعض إغلاق المحلات والخروج في التظاهرات، تحت تهديد يصل إلى القتل؟! ناهيك عن الذين يقتلون بحراب الفتنة السوداء، أو بحجة الانتماء إلى حزب أو مؤسسة حتى لو كانت الجيش الوطني؛ الديمقراطية التي تسمع بنصف أذن، وترى

بعين واحدة مع شبه إغماضة، وتعتمد على أصحاب الفكر التكفيري الإلغائي كواحد من أعمدة الثورة!

وماذا عن الحرية التي يعتدي المنادون بها على الناس في الحارات والشوارع، وعلى الممتلكات والمؤسسات العامة والخاصة، وإغلاق الطرقات، ويمنعون الموظفين من الوصول إلى مقارّ أعمالهم، ويؤمّنون وصول السفير الأمريكي إلى عمق تجمعاتهم؟!

ولا يرفض ذلك المتحدثون باسم الشعب، من دون أن يقولوا من خوّلهم تمثيله، وماذا يمثلون على الأرض، ومتى أقنعوا الشعب بأفكارهم وأساليبهم؛ الشعب الذي خبر الكثير منهم حتى في مواقع قيادية، وفي أماكن وجودهم المرفّهة والمعدّة كي يقوموا بهذا الدور..

أليس شعباً من خرجت شرايينه بالملايين في مختلف المدن والمناطق، في مشاهد وطنية راقية زاهية، ضامّة الشرائح المتنوعة، والأطياف الملوّنة، ذكوراً وإناثاً، شيوخاً وشباباً وأطفالاً؟! وها هي المبادرات الوطنية لا تنتهي تأييداً للإصلاحات، ودعماً للاقتصاد، وصداً للمحاولات المتواصلة للنيل من الثقة بالنفس وبعناصر القوة التي تنامت عبر السنين، والإرادة الصلبة، والرغبة المشروعة بالحياة الحرة الكريمة.

ومن يدّعي الوطنية لا يتعامل مع الأعداء سراً أو علانية، ولا يجتمع مع رموزهم، ولا يغضّ الطرف عن تبنّيهم له، ولا يظهر عبر إعلامهم الصريح، أو المتحالف المضلل، ويرفض في الوقت نفسه

ليس فقط الظهور على الإعلام الوطني؛ بل الاستماع إليه حتى من باب الديمقراطية والتعرف إلى الرأي الآخر! ومن يطالب بالدولة الوطنية لا يسعى إلى شلّ اقتصادها، ويضرب الموسم السياحي، ويخرّب المؤسسات الوطنية ويحرق موجوداتها التي سيعاد إنشاؤها بالمال الوطني؛ إلا إذا كانوا يعوّلون على المال الأجنبي الذي رفضت سورية الانقياد لهيمنته، وغدت بلا ديون، ولا شكّ في أن هذا سبب من أسباب القيام عليها واستهدافها، وهم يعلمون!

أية ثورة هذه، وأية شعبية، وأية وطنية؟! إذا كانت تتلاقى مع أهداف الأعداء التي لا تخفى على أي من أبناء الشعب، ولا يخفيها، ولا يخفون سعيهم إلى تنفيذها، ويعلنون دعمهم للمعارضين في سورية؛ هذا الدعم الذي لا يتوقف على الأقوال منذ بداية الاحتجاجات؛ بل يؤكدونه أفعالاً من خلال السلاح والإعلام، والجولات على الأرض، التي أعلن السفير الأمريكي في دمشق أنها ستتواصل، إضافة إلى التبنّي والسعي المحموم في مختلف العواصم والمحافل الدولية!

ولا ينكره (الثوار) أو يستنكرونه؛ هم أو منظّروهم أومحرّضوهم أو داعموهم من أجانب حريصين جداً على الشعوب وحقوق الإنسان، وعرب ديمقراطيين وأحرار حتى العظم!!

***

رم وحراسه!

حين تكتشف أن صديقاً لك ليس صادقاً معك أو مع سواك، تحسّ بالخيبة، أو تتثّلم صورته في ذهنك، وتتألّم كأن الثلم أصابك، حتى لو لم يكن الشخص صديقاً، ولا تربطك به أية علاقة، أو تعرفه أو تسمع به؛ ستشحب صورته وربما تلغيه من حسابك وذاكرتك، وتتأثر أصداء أيّ شخص إذا ما بدا أنه غير منسجم قولاً وفعلاً، وقد تلتمس الأعذار أو تطرح عدداً من الشكوك، حتى تصل إلى الحقيقة، أو تتأكد من الواقعة أو الخبر، وسرعان ما يتساقط من اهتمامك، إذا ما رأيت منه أو سمعت ما يخالف ممارساته المعروفة وتاريخه القاتم.. وسكوته عن أفعال، ومحاولاته تسويغ شناعات، وتحس أنك مشارك له في الجرم إذا ما ظلّ لديك المثالَ والقدوة.. وهذا فساد أيضاً، وإفساد؛ لأن فيه تشجيعاً على الاستمرار في الممارسات الخاطئة. وتدهشك أحياناً قدرة البعض على الادّعاء والتبجّح والتلفيق والتزييف مستفيدين من ظروف غير طبيعية، وأحداث متواترة ووقائع مشوّشة.. مخمّنين أن أذهان الناس تحتشد بالصور المؤلمة الطازجة، وتتزاحم في أحاسيسهم صرخات وأنّات، وتغص أوقاتهم بقلق وخوف لا على أنفسهم فحسب؛ بل على أطفالهم وأطفال الآخرين والناس والبلد

والهواء والماء.. فلا يستطيعون التميز بين الحقّ والباطل، بين الصدق والكذب، بين المتمثّل الأوجاع والهموم، والمتسلل المنافق الأناني..!

والشيء الفاقع في المسألة أن يقترف هذا التناقض من يتقدمون الصفوف منطلقين من مواقع ملتبسة سائرين في مسارات.. ومترافقين مع من يخالفونهم جملة وتفصيلاً، مغمضين الأعين عن ذئاب الكروم المعروفين ومحطمي أشجارها، مشدّدين على قتل الناطور الذي لم يحسن الحراسة أو الوفادة!

فتراهم يدخلون المساجد بلا صلاة، ويخرجون بلا تسليم، أو ينتظرون خارجها جموع المصلين ليستفيدوا من الكثرة، أو يترافقوا مع (محتجّين) آخرين لا يربطهم بهم إلا القضاء على الآخر؛ الآخر غير المحدّد؛ لأن في نيّة كلّ منهم آخر قد يختلف، وقد يكون أيّ منهم آخر متّهماً ومقصوداً؛ كان كذلك، وقد يكون بعد حين!

السؤال الفجّ الذي لا جواب مقنعاً له: من يبدأ مسيرته بالنّفاق، من سيُقنع، وإلى أين سيصل؟!

ومنهم من يخرج على الملأ عبر المنابر الإعلامية الخارجية، وقد غدت أدوات حربية ضد بلدنا العزيز، يخالف الوقائع، ويزيّف المواقف، ويدلي بأقوال متّهِماً بلا دليل، ومقوّماً بلا إثباتات، وهو قد أساء حين خرج على هذه المنابر إلى أهله ووطنه، لموقفها المشبوه،

ولأنّه يعطيها صكّ براءة، في الوقت الذي لا يرضى فيه أن يظهر على وسائل إعلامية محلية مهما كان موقفه منها!

وهناك من لا يستمع أو ينظر إلى الإعلام المحلي، بمنابره الخاصة والعامة، وبالتالي هو منقطع عن الشريحة الواسعة التي تقول رأيها عبر هذه الوسائل، وعن الوقائع التي تبثّها، والمشاهد التي تظهرها.. فكيف يكون ديمقراطياً، وهو يلغي الرأي الآخر سلفاً، ويرفض الآخرين، ويهين أفكارهم وآلامهم ومشاعرهم؛ فكيف يمكن أن يكون محل احترام أو تقدير؟! وكيف ستكون قيادته لأناس لا يعرف رأيهم، ولا يحترم مواقفهم أو مشاعرهم، وليس على دراية بمشكلاتهم واهتماماتهم، إلا إذا كانت لديه مواقف مسبقة وأفكار جاهزة.. وإقصاؤه محضر ومقصود؛ فكيف يكون مقنعاً من كان كذلك، مهما كانت طروحاته براقة وشعاراته إصلاحية؟!

إن من يتغافل عن القتل المتعمّد، ويتصامم عن الخطف والتنكيل والاغتصاب، ومن لا يعترف بالوجود المنظم للسلاح، أو يسوّغ وجود السلاح وحامليه بحجة الاضطرار إلى الدفاع عن النفس، بعد أن كان يرفض هذه القضية طوال أشهر؛ إن من يقوم بذلك، لا يمكن أن يكون راغباً في الإصلاح، أو قادراً على قبول مشاركة الجميع، أو محارباً للفساد، وسيجد التسويغ الملائم للفاسدين، والتحفيز المطلوب للذين يتجاوزون القوانين، والتهم الجاهزة للمعارضين..

القضية لا تتجزأ؛ فمن كان مراهناً في آناء الأحداث الطارئة على الأجنبي، وعلى المسلحين، والمهرّبين، والإعلام الخصم تضليلاً

وادعاء وتشويهاً للوقائع، أو كان سلبياً على الأقل بحجة عدم الخوض في معارك جانبية، وبالتالي يمكن أن يتحالف مع الشيطان ضد وطنه وأهله، سيكون في أوقات قيادته أو مسؤوليته مقامراً في سبيل مصالحه الخاصة، ومتاجراً بالناس وأرزاقهم وأحلامهم، ومجيّراً الإعلام وما تطوله إمكانياته وسطوته من أجل أفكاره وحدها، ومشاريعه وغاياته المشكوك في صفائها،.. وليس منطق الغاية تسوّغ الوسيلة يمكن أن يكون آنياً!

وسيجعلنا نترحّم على من كان يسمح بنهب الكرم، فيأكل ويطعم الآخرين.. مقابل من يولم على احتراق جذوع أشجاره وروائح جثث حراسه!

***

ضعاف الرؤى!

يحدث أن يَستغِلّ بعض الناس ظروفاً طارئة، تنشغل فيها الدولة أو بعض أجهزتها عن متابعةٍ أو مراقبةٍ أو اهتمام.. فيصبح همّهم وشغلهم انتهاك القانون، وارتكاب مخالفات، والقيام بتجاوزات غير مشروعة، تؤثر سلباً على الآخرين، أو على الاقتصاد الوطني، أو على الحال العامة.. وقد تنال من حقوق الذين لا يرضون لأنفسهم مقاربة أعمال كهذه.. اقتناعاً والتزاماً وتحصّناً داخلياً ما يجعل الممنوع غير مقبول في كل وقت، والحرام ليس حلالاً.. بصرف النظر عن صرامة حدود القانون وعيون حراسه، الذين قد يسهون في الأحوال غير الطارئة أيضاً!

ومن المعتاد أن يُطلَقَ على من يرتضون القيام بتلك الأعمال بلا أيّ وازع أخلاقي، أو رادع ضميري ضعاف النفوس؛ أي أن النفس لدى أيٍّ منهم لم تقوَ على الصمود أمام الإغراءات، والإحجام عن الطريدة التي لا تحتاج إلى جهد أو خطورة حتى تغدو في الشِّباك؛ وقد كانت النفس وما تزال أمّارة بالسوء! وليس غريباً أن تزداد أوامرها القاتمة في غياب الرقيب، ووهن القانون.

وقد يتضمن ذلك الاعتداء على الأمـلاك العامة والخاصة والاستباحة والإيذاء.. وربما القتل، انتقاماً شخصياً، نتيجة خصومات سابقة أو حاضرة، أو غيرةٍ أو حسد أو طمع، أو نوازع فتنة أو روائح منكرة.

وقد تكثر هذه الشناعات في مكان، وتقلّ في آخر، وتتناوب، وتختلف تواتراتها ومدى حدّتها واتساعها وعمقها.. حسب الموقع أهميةً وجغرافيا ومستوى معيشة وطبائع بشرية، وشراسةِ ضعيف النفس وشركائه، وتطوراتِ الأحداث.. وقد تقتصر الأمور هنا على الماديات تهريباً وسرقةً وبناء عشوائياً واحتكارَ مواد ورفعَ أسعار، وتصفيةَ حسابات شخصية قد يذهب ضحيتها أشخاص عديدون؛ ويمكن أن يتطور الأمر إلى أن يغدو بعض ضعاف النفوس عاملين لمصالح آخرين، وقتلة مأجورين! ويمكن أن يُتَفهَّمَ ذلك من دون أن يسوَّغَ بأية درجة، مهما كانت الحاجات والمطالب والضغوط؛ فإذا كان الأمر كذلك مع هذه الشريحة ذات المستوى التربوي والاجتماعي المتدني، فماذا يقال في أناس يُعدّون من شرائحَ أعلى تعليماً وتأهيلاً ومسؤولية، مفكرين ومثقفين وأدباء وفنانين وصحفيين واقتصاديين وسياسيين..؟! وهم يتأثرون بمثل هذه الظروف بشكل سلبي، فيحبَطون، أو يخافون، أو يخيبون.. ويعجزون عن قراءة الأحداث أسباباً وعناصر ومراحل ونتائج؛ منهم من ينكفئ إلى نفسه منبتّاً مهزوماً، ومنهم من يسكت حتى عن الكلام المباح من دون أن يستشعر إدراك الصباح! وهؤلاء وأولئك من ضعاف الرؤى، تظل

الخسارة فيهم وبسببهم ليست قليلة؛ لكن.. هناك من قرأ الأمور بشكل مختلف، وتفاعل مع الأحداث بغرائزية الضدّ، وأدخل نفسه وأفكاره في مجاريها الملوثة، وتمثّل المواقف الشاحبة، وتبنّى المصطلحات والشعارات التي فقدت بريقها منذ زمن، وافتقدت المصداقية أكثر من خلال حامليها، والداعين إليها، والمنابر المشرعة لها، والمروِّجين المداحين العرّافين.. المعروفين تاريخاً وسلوكاً وإمكانيات وفاعلية وجدوى! هذا في حال بقيت العلاقة في الإطار الداخلي السلمي المزعوم! وحتى حين تتطور الوقائع، وتتحول المشاهد الكالحة داميةً، وتشرع المظاهر المسلحة، وتتنوع حالات الاغتيال وتتكاثف، وتتوالى الاعترافات.. فلا تهتز لهؤلاء شعرة، ولا تتأثّر حواس، وتتعطل لغة العقل والمنطق، ويستمرون في وقفتهم الأولى، شارحين الحوادث وفق ما يريدون، مفسرين الأشياء حسب ما يأملون، متنبئين بما يرغبون به؛ متجاهلين الضحايا الأبرياء حتى في محيطهم، ومتجاوزين ما ظهر من ارتماء في أحضان الأعداء من قبل من يتبنّون خطّهم، ومتغافلين عن توافق أهدافهم مع غايات المجرمين الدوليين، متصاممين عن هتافات سوداء لن تستثنيهم في أيّ فوز، موجهين كلّ أصابع الاتّهام السابق واللاحق لما حصل ويحصل في اتجاه محدد سلفاً، مغلقين كل المستقبِلات عن أيّ إرسالٍ قريب مهما كانت نعوته، أو واقعة مفنِّدة لما يعتقدون، أو قول آخر، أو رأي مخالف..

هل يمكن أن يندرج هؤلاء تحت مسمى ضعاف الرؤى؟! ألا يصل الأمر بهم إلى درجة المشاركة في القتل المتواصل والخطف

والترهيب والتمثيل، والتخريب المطّرد للأملاك والمؤسسات، وقطع للمسالك والطرقات..؟! ناهيك عن التدمير الشامل الممكن أن يحدث للبلد من جراء استدعاء الخارج بدعاواه التضليلية، ونواياه العدوانية، وقواه الشيطانية!

وإذا كان يمكن أن يكون قد حدث إرباك في البداية لضعاف الرؤى، استغلّه ضعاف النفوس، فليس من عذر بعد كل ما جرى وما تكشّف، وليس مقبولاً أن يبقى المرء أسير عناد أو عصبيات أو رهانات أو نزوات أو أحقاد أو أوهام إلى ما لا نهاية. ولن يبقى تقويم الآخرين لهم منحصراً في هذا الموضوع بذاته مهما كانت النتائج؛ بل يتعداه إلى الخلل في مختلف المجالات، ولن يكون لهم رصيد من الثقة والقناعة والاحترام.

***

قَدَرُنا..

الحياة ساحات مواجهة مختلفة الأشكال، متنوعة العناصر، سواء أكان ذلك على الصعيد الشخصي أو على الصعيد العام؛ فالنفس الأمّارة بالرغبات الحادة والنزوات الضاغطة والأفعال الشيطانية، لا تني تعبث بالأوقات، حتى تلك التي يركن فيها المرء إلى ذاته، ومعالجتها ليست هيّنة ولا مؤقتة؛ ومجابهة العادات السلبية، والأعراف الجاهلة، والأفكار والأوهام المسيطرة في المحيط الأقرب فالقريب والبعيد، ليست عرضية ولا محدودة.. ولا يسلم المرء من المواجهات مهما بلغ من الحكمة، ومهما توخّى من الحذر، وارتجى من السلامة والأمان، وابتعد عن المشكلات؛ لأنه لا يستطيع أن يعيش منبتّاً عن الناس والمجتمع، أو منقطعاً عن التواصل في الدراسة والعمل لتحقيق الطموحات والآمال؛ وحتى لو انتبذ لنفسه ركناً قصياً..

ولا شك في أن هناك آليات للبتّ بالوقائع وتحميل المسؤولية خارج الحالة الفردية، توصّل إليها المجتمع البشري في رحلة معاناته المديدة، لكي لا يستمر الظلم، وللوقاية من استفحاله؛ لكن هذه الآليات ما تزال قاصرة، لأن من يقوم بتنفيذها بشر أيضاً لهم حاجات ورغبات ومنغصات، ومنتمون إلى بيئات وتجمعات، ولديهم قناعات

وأفكار، وتختلف إمكانياتهم المعرفية والمهنية، وتتمايز الإرادات والغايات.. كما يعتور العمليات نفسها، قوانين ووسائلَ وأدواتٍ، النقصُ حيناً، والغموض أحياناً؛ فضلاً عن محاولات الالتفاف والاحتيال والتباطؤ والإهمال..

وهذا ما يجعل في أمر إحقاق الحقّ الكثير من الصعوبة، برغم أنه مقروء ومفهوم وبيّن، ويعرفه غير القاضي، وبرغم أنّ ما من جريمة كاملة، مهما كان المجرم خبيثاً وماكراً.. ومن المعروف أن الفاعل أو المرتكب يحاول إخفاء المعالم الدالة، وقد يساعده في ذلك آخرون؛ فتطول الدعوى أو تسجّل ضد مجهول، أو تلغى بالتقادم.

لكننا نشهد في أيامنا هذه، حالات عجائبية من التلاعب بالوقائع، وتغيير المفاهيم، مع الجهر بالإجرام، والتباهي بفظاعته، والتفاخر بالعضلات المادية والمعنوية التي تتيح ذلك، ولا سيّما في الجرائم الموصوفة والمفضوحة؛ فالاعتداء على الشعوب الآمنة في أوطانها دفاع عن النفس، والمقاومة ضد العدوان إرهاب، والغزو العسكري لفرض أنظمة حكم تحت الطلب ديمقراطية، ومحاصرة البشر بمتطلبات حياتهم وأسباب تطورهم إنسانية، واستهداف المواطنين في سبلهم إلى ممارسة الحياة، وحتى في بيوتهم قتلاً واختطافاً وتمثيلاً.. حرية وثورة!!

وفي الوقت الذي تقدمت فيه الأجيال البشرية أشواطاً واسعة وعميقة وبعيدة في البناء والخدمات، ووسائل الكسب والتواصل، والاكتشافات العلمية الدقيقة، وازدادت حدة الرؤيا والسمع والتحكم

أرضياً وفضائياً.. كان من المفترض أن يترجم ذلك إحساساً عالياً بالمسؤولية تجاه الإنسانية، للحفاظ على تلك الإنجازات، ورفع الظلامة عن المقهورين، وكشف أساليب الإجرام التي ازدادت مكراً ودهاء؛ فأصحاب النوايا الشريرة ليسوا جاهلين دائماً!

لكن الذي حدث أن العربدة تضاعفت: الإجهار بالمعاصي، وتجيير العلوم لصناعة الأسلحة الأحدث والأكثر فتكاً، واستخدامها لترهيب الشعوب، والترويج لذلك وتسويغه، واستلاب الإرادة وامتهان الكرامة الإنسانية..

ومما يُفجِع أن تتعهّد القوى الأكبر الشرّ الأعظم عن طريق مجموعاتٍ حاكمة بأمرها، تتفرغ للسيطرة وإشباع النهم والمصالح التي لا تنتهي، وتستخدم كائنات جاهلة وغافلة ومسدولة الآفاق ومصمتة المسام، ولا تتنفّس حتى من منخر واحد، فتقوم بأعمال منكرة، وتولغ في الدماء أكثر فأكثر!

ولعلّ ما حدث في سورية الغالية من تخريب للممتلكات العامة والخاصة، وتدمير منظّم للبنى التحتية لكيان الدولة ومؤسساتها الوطنية، وقتل للعلماء والشرفاء ورعاة الطمأنينة وحماة الديار، وما امتدّ من إجرام توزّع البقاع والأركان، وتكاثف في بعض الأحيان تفجيراتٍ إرهابية في العاصمة دمشق وسواها من المدن العريقة المكتظّة بالبشر والحركة والحيوية، تنثر الأشلاء من المارة أو المناوبين أو الراقدين في بيوتهم عجزاً وأطفالاً.. مثال فاقع على

الحدّ الذي بلغه الحقد والغدر، والدرجة التي وصلت إليها الجهالة والعمالة والهمجية والدموية..

والأكثر فجائعية، ولعلّه من سخرية الأقدار، أن يقدم لك المنفذون الأدلة الفاقعة؛ بل يعترفون بالأفعال، ويفاخرون بها بدعاوى مختلفة.. فيما يتعامى عن رؤية هذه الوقائع التي تفقأ العيون من يدّعون الحرص على الوطن، ويتشدقون بالإصلاح وبالسلمية، فلا يرفّ لهم جفن، ولا يتحرك فيهم شعور، فيعجزون حتى عن كلام استنكار أو إدانة، وإذا ما حدث أن تكلموا، تكون أقوالهم عائمة غائمة تصحّ في حالات كثيرة، وتشمل فرقاً مختلفة.. وهم يثبتون بذلك ارتهانهم الأعمى لمصالحهم، حتى لو أتت على وقع أنين البائسين، وانقيادهم إلى رغبات الآخرين الذين لا يريدون لهذا البلد إلا الشرذمة والتفتيت والتخلف والتبعية!!

إن قدرنا أن نقاوم أعداء الحياة بالإصرار على ممارسة الحياة بمختلف الأساليب والسبل المشروعة وفق القوانين التي تدّعي القوى الغاشمة السعي إلى تطبيقها، بما يخالفها ويحتال عليها، وينال من هيبتها قوةً أو مقاطعةً أو مناورةً، أو تمييزاً بين دولة وأخرى، حسب قربها من قفصها أو ابتعادها عن قبضتها، وتأثيراتها السامة وتوجهاتها الشيطانية..

***

المباشرة والوضوح!

يضطر المرء أحياناً إلى أن يثير مجدداً أسئلة طالما برم من طرحها، أو الإجابة عليها في مناسبات وندوات ولقاءات مبرمجة أو عابرة. فالسؤال: لمن تكتب؟! تظل الإجابة عليه متطَلَّبَة، ولا سيما في الإبداع؛ حيث يكون طرحه سبيلاً إلى الهروب من متابعة جدية من قبل السائل، أو عدم القدرة على فهم ما يُكتَب، بردِّ السبب إلى المرسِل، من دون أن يكون ذلك دائماً بلا مسوّغ؛ فربما كان في الكثير مما يُنتَج على أنه إبداع، عَنَتٌ أو غلظة أو نقص خَلْقي!

كما يظلّ صحيحاً أيضاً، من وجهة نظرك على الأقل، ما تجيب مرة بعد أخرى، من أنك تكتب لنفسك أولاً، ولمن يحبّ أن يتابع ثانياً، ومن قد يتفهّم هذه الكتابة، حين تصل إليه، ولو كان ذلك بعد عمر طويل.. دائماً.

غير أنّ الكتابة في القضايا العامة، وفي أثناء المواقف المصيرية، تحتاج إلى قول مباشر ومفهوم، من دون أن يعني ذلك ابتذالاً أو سطحية أو ممالأة؛ وتجد أحياناً أن التكرار واجب، والتأكيد مطلوب، والمباشرة لازمة، والوضوح ضروري؛ لأن الأمر مُلِحّ، والسكين

وصلت إلى الرقبة، ولا سبيل إلى المراوغة أو المداورة أو التحايل أو الإيهام..

ومع كل ذلك، يبرز السؤال من جديد: لمن تكتب؟! ولكن هذه المرة لا يأخذ مشروعيته من عدم الفهم، والهروب من الحداثة والمتابعة؛ بل من الفهم وشدّة الوضوح! وتجد أن الجواب الذي كنت تواجِه به الآخرين على مبدأ (لماذا لا تفهم ما يقال)؛ أي: أكتب لنفسي، يأخذ حيّزه الواقعي، وقد يتجاوزك ليصل إلى آخرين لهم التفسير ذاته للقضايا، والموقف ذاته أيضاً!

وتبدو مسألة التوجّه إلى الآخرين يشوبها الكثير من القصور؛ فالآخرون قد حسموا أمرهم، واتّخذوا مواقفهم، من دون أن ينتظروا رأيك؛ بل هم ينتظرون موقفك أو تسويغك له لينقضّوا عليه، تفنيداً، ومناكدة، وتكذيباً، وقد أعدّوا العدّة لذلك، مناصرين ووقائع قديمة وحديثة، وأحداثاً وأقاويل! وتصبح، وأنت ترى أن الحقّ بيّنٌ بدرجة فاقعة، وما يجري على الأرض لا يدع مجالاً للشك، في موقف الدفاع عن النفس أو عن المصير أو عن الوجود.. وربما كانوا في الموقف ذاته من حيث أن القضيةتتعلق بمصيرهم الأخلاقي والثقافي على الأقل؛ المصير الذي لا تحسدهم عليه!

وتصيبك الدهشة والحيرة حين يتعلق الأمر بمثقفين أو أدباء، لهم ما لهم من حضور ونتاج وأفكار وتجارب وخبرات.. توغل أحياناً في الحداثة تنظيراً، فيما تنبئ مواقفهم وأفكارهم عن ظلامية وجاهلية تستهجنها حتى لدى الإنسان العادي البسيط البعيد عن الثقافة والناس والحداثة و(الحضارة)..

حتى ليصحّ القول فيهم حينئذ: «لو خرجتَ من جلدكَ لم أعرفْك»، إذا لم يكن، فيمالو وصلنا إلى حدود أكثر مرارة: «اكذب واكذب حتى تصدق نفسك أو يصدقك الآخرون»..

ويصحّ هذا في الكلام عن ابن جلدتك وبيئتك وثقافتك ولغتك.. فكيف ستكون الحال عليه إذا ما كان الأمر متعلقاً بالآخر البعيد عنك لغة وثقافة وبيئة وموقعاً؛ بل هناك من هو خصم أو ممالئ للخصم، أو عدو، أو متبنٍ لمواقف العدو؟!

وبالتالي يصبح كلامك بلا صدى؛ لأن المطلوب على الأقل أن تتوجّه إلى الآخر بلغته، أو بلغة وعناصر يفهمها، من دون أن تتوقع تغيراً في المواقع أو تبدلاً في المواقف؛ هذا من باب التوصيف لما تعاني أو تشاهد أو تحس؛ أو هو بعض الزفرات، ولا يعني أبداً أن نتوقف عن القول والتعبير عن الرأي والمواقف التي نعتقد بصحتها، ونرى أنها تقترب من المسلمات، وتؤكدها الوقائع والأحداث والتاريخ والجغرافيا.. وتَمَثَّلَها الشعب السوري بغالبيته الممتدة على مساحة الوطن، بشرائحه المتنوعة، وفئاته المتآلفة؛ ولم ينتظر بحسِّهِ وفطرته ووطنيته، شرحاً أو تفسيراً أو توجيهاً..

مع ذلك، يجب أن لا تتوقّف عن الكتابة، أو القول، ولا عن الفعل، إذا ما استطعتَ إلى ذلك سبيلا..

***

سرقات «أدبية»!

ليس موضوع السرقات الأدبية جديداً؛ وهناك من «الأدباء» من يُعجَببنص لأديب قريب أو بعيد، حي أو صار في ذمة الله، فينشره -جزئياً أو كلياً- مصدراً أو مذيّلاً باسمهفي كتاب أو دورية؛ غير هيّاب من انكشاف أو فضيحة، فيما لو عرف صاحب النص أو أحد قرائه الواعين بذلك؛كان ذلك وسيبقى، ولا أعتقد أن ذلك سينتهي،طالما بقيت النفس أمارة بالسوء! حتى مع إقرار قوانين الملكية الفكرية؛ بل إن الأمر إلى اتساع،بعد انفتاح الأحياز الفضائية الالكترونية، وانتشار المواقع والمنتديات، واحتشادها بالكتب والكتابات والنصوص الإبداعية وسواها، ليتشاسع»البيدر الأكرم من صاحبه!»، أو الأركان التي تودَع فيها المسروقات، ويغدو أمر المتابعة والرصد والملاحقةأصعب، وتصبح فرصة ضياع الفعلة ونجاة الفاعل أكبر،وتزداد الجرأة على «الفعل»وتتضاعفالرغبةالقاتمة بانتشار الاسم «المبدع» المزوّر إلى جنبات الدنيا.

ومن المفارقة أن تكون بعض السرقات بالتراضي، أو بالتنازل عن الاسم قبل النشر، وينشر النص باسم «الشاري»!لأن بعض الناس

يحس بنقص مقلق، إذا ما افتقد موهبة الكتابة أو «الإبداع»، فيعمد إلى أساليب الترغيب المعروفة، لتكتمل الفرادة ويتحقق التميز!

وهناك أنواع أخرى «غير موصوفة» من السرقات، فيمكن لقارئ مخطوطات مثلاً في جهة ناشرة، أو محرر ثقافي أدبي أو فني، أن يعجب ببعض ما قرأه أو وصل إليه، فيرفض نشره باعتذار أو من دونه، ويتبناه لنفسه بهذه الطريقة أو الدرجة أو تلك؛ كما أن لبعض الناس «تميزاً» بعرض الأفكار والآراء والتحليلات والتفسيرات المنشورة أو المعلنة من دون الإشارة إلى المصدر؛ ومنهم من يستطيع أن يستدرجك مثلاً، وأنتمافي رحلة مشتركة إلى ندوة أو نشاط مشترك أو غير مشترك، ليحصل منك على ما تنوي أن تقول، فيسبقك إلى قوله في تلك الندوة، أو يتفاصح به في مناسبة أخرى، وقد ينشره في مقال أو زاوية أو كتاب!ومن الحَفَظَةِ من استطاع أن يسرق قصائد بعد سماعها مرة واحدة أو أكثر، فتلاها قبل صاحبها الذي وقع في ورطة كبيرة، كما تقول إحدى النوادر!

وقد انتشرت ظاهرة أخرى في مجال السطو «المسلح» بالإعلام والدعاية والإمكانيات التقنية الحديثة، ومنها ما هو موصوف كسرقة الشعاراتوالمبادئ والشعائر، واعتمادها ورفعها والمشي في ظلالها، مع تحضير الأجهزة المحمولة والثابتة مسبقاً،لإرسال المشاهد الواقعية أو المعالَجة بحرفية خبيثة إلى شاشات مفتوحة ومتأهبة للبث المحموم! ولا يخجل متبنّو تلك الشعارات المحببة لفظاً وسمعة وتاريخاً، من أن يهرقوا تحت لوائها الدماء البريئة حتى من

بين حامليها الصادقينالمصدّقين، ولا يتورّعون أيضاً عن المتاجرة بهذه الدماء المسلوبة من قبلهم أو الأشلاء التي تناثرت بسببهم، أوتلك الجنازات العادية لمن ماتوا قضاء وقدراً، فصورت «طوابير المشيعين»بكاميرات خفية أو علنية، وطارت المشاهد بنهمٍ وسرعة لكسب المزيد من الامتيازات المادية والسلطوية!ومن النّاس من يخرج على الملأ منابرَ ونوافذَ مضاءة صارخاً مناضلاً في سبيل الحق والعدل والأخلاق، وهو-سابقاً واستعداداً- من أكثر المساهمين في الخراب الواقعي والنفسي!

وقد تُسرق الأهداف والمشروعات والوقائع أو تحرّف أو تجيّر، وتحضّر لها الظروف والشروط التي تجعلها قابلة للتصديق والتبنّي! وقد يصل الأمر إلى سرقة مناسبةٍ، أو موقفٍ، أو شخصية مشهورة قديماً وحديثاً؛ بل قد يسرق التاريخ بآثاره القائمة ما تزال، أو تلك المدفونة تحت الأتربة والغبار، وخلف الصفحات المزيّفة والشهود الزّور المعاصرين أو الأقدمين!

والأشد قهراً أن تسرق البسمة من الوجوه، وتختطف الإشراقة من الجباه، ويغتال الأمل في النفوس، ويضبّب المسار أمام الأجيال، ويسوّد المصير، ويغدو العيش بلا غاية، وتصبح الحياة بلا معنى؛ إنها سرقة المشاعر الحيوية والعواطف الإنسانية!

هناك من عمل على ذلك في الماضي، وهناك من يعمل على ذلك الآن، مع ازدياد الإمكانيات، واستشراس الأحقاد!

لكن الأقسى والأظلم تلك السرقة الذاتية، التي يمكن تقرّيها وتوصيفها في الكثير من المحطات والأزمنة، وما يدلل عليها ذلك التدافع المهين للاستعباد والاستزلام والاستلاب؛ فيسرق المرء إنسانيته: قامته وكيانه وإمكانياته ونفسه وعلاماته الفارقة، وروحه التي لا يملك أمرها، ليقدم كل ذلك «بلا إكراه أو إجبار»، وهو «بكامل قواه العقلية»، راضياًومتحمساً، وبلا منّة أو تقدير، إلى الآخرينمتوسلاً أن يقبلوه، حتى لو كانوا على مرّ الأحقاب، وما يزالون، ألدّ أعداء الإنسانية!

***

شيء ما!

لكل منا أهداف وغايات تبدأ منذ إرهاصات الوعي، مسبوقة ومترافقة بالحاجات والرغبات، ويسعى كل منا إلى تحقيقها خلال عمره الذي يبدو جدّ قصير أمامها!

ومن الطبيعي أن تحتشد المطالب الحياتية القريبة في مقتبل الحياة، وقد لا تتحقق بالشكل المرجوّ والوقت المناسب، فتتعثر الأولويات وتتبدل المتطلبات.. لكن شيئاً ما يبقى -أو أشياء- يتجاوز الماديات التي لا تتوقف هي الأخرى عند كفاية أو تخمة، فَيُكنزُ الذهب والفضة، والبيت يغدو بيوتاً، والعقار عقارات، والتجارة شطارة لتحقيق أرباح وإنجاز صفقات..

كل هذا مفهوم ومألوف، إذا ما بقي في حدود القانون.. لكن هذا النفوذ المستحدث يجعل النفس الأمارة بالسوء تجنح إلى القفز فوق القانون، أو خرقه، أو سنّ ما يناسب ظروف مشروعات مؤتمِرِها وشروط نشاطاته.. وهذا وارد، ويتعلق بطبيعة الإنسان القلق، المحكوم بإمكانيات جسدية، والمقلقل بحاجات، والمزوّد بملكات، والمختبَر بنزوات، والمشحون برغبات.. وهذا ما حاول المفكرون والفلاسفة البحث عنه لمعالجته، وسعى المصلحون

لضبطه عبر الأديان والدعوات، وحاول النابهون إشغاله واستثماره في جمعيات وأحزاب ونواد ومنتديات، وجهد الخبثاء لاستغلاله في تحقيق أهداف شيطانية!

ومن الجليّ أن المحاولات تنجح في مكان وتخيب في آخر، تصحّ في زمان وتفشل في أزمان، ويبقى محكومون ومطلوبون، ويظل هنا وهناك خارجون عن الطاعة، ومفارقون للجماعة!

ولا شكّ في أن الوصول إلى هدف يحتاج إلى خطو، وتحقيق غاية يستوجب عملاً؛ وفي الخطو حركة، وفي الحركة بركة؛ وفي العمل حضور وفاعلية، في العمل إحساس بالقيمة والجدوى. وهذا ما يتجاوز الأتعاب المجتناة، والأجور المقدرة.. لذا نجد من يترك العمل المجزي، لأنه غير مرتاح، ولا يستمتع بأدائه، ولا يحسّ بكيانه فيه، أو لا يرى أنه يتناسب مع إمكانياته ولا يحقق طموحه؛ في الوقت الذي نرى من يتحايل كي لا يبذل أيّ مجهود، أو يتهرّب من تحمّل أية مسؤولية، ويرضى أن يحصل على أجره، ويطالب بتعويضات وعلاوات!

إن من الظلم النظر إلى الحالين بعين واحدة، فقد يسبب هذا خسارة مضاعفة؛ فمحبو العمل المخلصون، الباحثون عن أنفسهم وأحلامهم في عمل شريف نظيف، سيخيبون من مرأى زملائهم الفوضويين العابثين يتقاضون مثلهم، وقد يحققون مواقع وامتيازات تفوقهم، وستفتر عزائمهم، وتقل حماستهم، وقد لا يتراجعون أو يقصرون، لأن أخلاقهم لا تسمح بذلك؛ لكنهم يتأزمون من الداخل،

وهذا أمر بالغ الخطورة؛ في الوقت الذي يصول أولئك ويجولون متباهين بتحصيلهم المبني على الخداع والتحايل والمناورة والنفاق!

يمكننا أن نتصور الحال، إذا ما حلّت ظروف خُطّط لها في أكثر من مكان في الخارج والداخل، وتعاون فيها أكثر من جهة، وقد وجد فيها محبو الكسب بلا جهد، والظهور بلا تاريخ، والسيطرة بلا حساب.. من يموّلهم ويدعمهم ويسلّحهم! ويمكن أن نتخيّل حجم الضغط النفسي والواقعي والعملي على الخيّرين، ومقدار القلق والأرق والمعاناة لديهم؛ ومنهم من نبّه وحذّر واشتكى وصبر وتصابر! مع ذلك فإن الكثيرين منهم صامدون مستعدّون للتضحية لأن الوطن أغلى، ولأن الحياة وقفة عزّ!

وهذا يستوجب التفكير في الكثير مما يجري في بلدنا الحبيب؛ فمن المعروف أن بعض أصحاب رؤوس الأموال يقدمون مساعدات خيرية، ويقيمون جمعيات ويؤسسون شركات ومصحات وجامعات.. وهذا أمر هام ومطلوب.. لكن أن تصرف الأموال التي لا تأكلها النيران في سبيل الشرّ المستطير، فهو أمر خارج عن أيّ منطق ومفهوم؛ فماذا يريد أصحاب النفوذ أكثر من النفوذ؟! وماذا يستفيدون من إهراق الدم، وإزهاق الأرواح، وإشاعة الرعب والهلع، وهل يرتاحون للتشريد والتهجير ومشاهد التمثيل وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحقّ؟! هل يستمتعون بذلك؟! وهل يتلذذ من يقوم به؟! وهل يمكن أن تكون هذه السادية في طريق الإصلاح، أو في سبيل الله حين يترافق الفعل الشنيع مع التكبير؟! لا شكّ في أن هناك مغرراً

بهم، اُستدرجوا وأُغروا بالمال والسطوة وبإرضاء النزوات وأشياء أخرى، وساعد في ذلك مستواهم التعليمي والاجتماعي المتدني ورفاق السوء وبؤر الفساد والإفساد؛ لكن الواقع يقول إن هناك من هو غير محتاج، ولديه عمل وظيفي أو حرّ، وصاحب مسؤولية عامة أو خاصة، ولديه بيت وأسرة!

هناك شيء ما أبعد من الحاجات، وأقرب من الرغبات.. شيء يحتاج إلى ما هو أكثر من التعليم، وأعمق من النظريات، وما هو أكثر إقناعاً من القانون الذي يجب أن يطبق في كل الأحوال؛ شيء نحتاج إلى أن نبحث عن جذوره، وملامحه وعناصره، فينا، حولنا، في أمكنة أخرى، ولدى آخرين محبين أو خصوم.. لنحاصره، أو نروّضه، أو نعالجه، ونحول دون تناميه واستفحاله، علنا في ذلك نساعد أنفسنا، أولادنا، معارفنا، زملاءنا، شركاءنا في الماء والملح والهواء والنور.. علنا في ذلك نصون بلدنا المقاوم، ونحمي وطننا العزيز.

***

جبان!

«رأس المال جبان» مقولة اعتدنا على سماعها أو تكرارها كمسلّمة، وفيها ما فيها من الاتهام لأصحاب رؤوس الأموال، وتسويغ ما يمكن أن يقوموا به، أو يقام ضدهم..

وقد نسي من يقول ذلك، أو تناسى أن وراء رأس المال مالكاً أو مستثمراً أو متعاملين؛ أي أنهم بشر ينتمون إلى هذا الجنس (العاقل)، ولهم عواطف ومشاعر ورغبات وأحلام ومطامع وأوهام.. وحقوق؛ وعليهم واجبات وتبعات..

وكما أن هناك سياسياً لا يهمه سوى الفوز بالمنصب، ويمكن أن يستخدم من أجل ذلك جميع الوسائل المشبوهة والأدوات غير النظيفة، ومثقفاً لا يهتم إلا ببروزه على المنابر والنوافذ، بصرف النظر عن الطرق والعلاقات والتنازلات؛ فإن هناك رأسمالياً لا يهمه سوى الربح، سالكاً مختلف السبل التي توصل إلى ذلك، ولو كان على حساب الخلق أجمعين!

لكن هناك سياسيين يعتمدون على سمعتهم وخصالهم وحيويتهم وأريحيتهم في إقناع الناس وكسب تعاطفهم وتأييدهم، ويوجد

مثقفون لا يخونون النبض الإنساني، والرؤى المعرفية، والآفاق الإبداعية، وينتظرون أن يطالب بهم الناس الذين يشتاقون إلى أفكارهم ومواقفهم، ويترقبون مناسبات إطلالاتهم الإعلامية أو نتاجاتهم المميزة.. وهناك ميسورون يهتمون بفعل الخير، وبناء المؤسسات التي تعود على الكثيرين بالنفع العام، وتبقى مشاريعهم ونشاطاتهم مشرعة ومرصودة وضمن القانون.

إن مقولة «الجبان» تعني أنه يهرب من مواقع الخطر، ويتجنب مناطق التوتر والاضطراب التي لا يجد فيها مناخاً للنمو المتسارع؛ ولا شك أن في هذا بعض الواقعية والموضوعية..

لكن؛ ماذا نقول عن رأس المال الذي يقصد الأماكن الخطرة؟! أو يسهم في إشعال الحرائق، وإيقاظ الفتن، وتصدير الحروب والاقتتال؟!

ماذا نقول عن المال الذي يشتري السلاح للإرهابيين الذين يقتلون المواطنين الأبرياء، ويخربون المؤسسات ويدمرون المنشآت الاقتصادية؟!

وماذا نقول عن المال الذي يمول وسائل الإعلام التي تحرض على القتل، وتزود العصابات المسلحة بأجهزة متطورة لنقل الوقائع المشوهة والصور المفبركة لتضليل الرأي العام المحلي والعالمي؟!

وكيف نوصّف المال الذي يدفع لسياسيين ومفكرين ومثقفين وإعلاميين، ليدخلوا في المشروع المعادي للوطن والمواطنين،

ويرتضوا أن يكونوا معابر للأجنبي المستعمر والغازي والناهب والغاصب..؟!

هل نقول إنه رأس مال جبان أو رعديد أو جريء أو مغامر أو مقامر أو عميل أو خائن أو عدواني، حسب مصدره ومسيّريه؟!

وفي المقابل..

ماذا نقول عن رأس المال الذي يدعم المواطنين في تأمين حاجاتهم، ويؤمّن لهم البنى والموائل التي تؤوي وتحمي، والجداول التي تسقي، أو تتيح الجري النقي على الأقل؟! ولا سيما في الأوقات العصيبة، والظروف الاستثنائية!

لا شك في أن هناك أموالاً تهرب خارج البلد أوقات الأزمات، وأخرى تودع منذ البداية في المصارف العالمية، طلباً للأمان والبعد عن السمع والبصر والطائلات من الأيدي والألسنة والقوانين؛ لكن الأحداث والوقائع أثبتت أن ما من أمان هناك أيضاً بلا ثمن باهظ، وقد يذهب الثمنوالرأس والمال في لحظة غضب أو عدم رضا أو ابتزاز!

وكما أن هناك مقاتلاً جباناً ضعيف النفس معكر الإيمان، هناك جنود مقدامون يواجهون العصابات الغادرة والنفوس الفاجرة في الداخل، ومستعدون لمواجهة العدو مهما بلغت قواه وإمكانياته، ومهما كان داعموه وعملاؤه!

ليست القضية في السلاح الذي يكمن بين يدي المقاتل؛ بل حامله الذي يمكن أن يهرب به، أو يوجهه إلى أخوته وجيرانه ومواطنيه،

ويمكن أن يعدّه ويواجه به القاتل والمجرم والخائن والمتربص والغازي ومحتل الأرض!

كذلك رأس المال؛ فهو رهن برغبات صاحبه وموقفه؛ وطنياً يسهر على سلامة أبناء جلدته ورضاهم، ويسعى إلى مواساتهم وكفكفة أحزانهم والتفريج عن كربهم وضيقهم، ولا سيما إذا ما تعرضوا لعقوبات ظالمة لتجويعهم، وإضعاف إيمانهم ببلدهم المقاوم الصامد في وجه المخططات والمؤامرات التي تستهدف حاضره وإنجازاته ودوره ومستقبله؛ أو أنانياً يستخدم ما لديه للحصول على المزيد من المال بصرف النظر عن مسالكه ومشروعيته، وقد يظهر في مناسبات انتخابية، أو يُدفع في سبيل تدفق السلاح وتأجيج الاضطرابات وترويج الفتن وتوسيع ميادين القتل والترويع..

وشتان ما بين الحالين!!

***

تغييب

لا شكّ في أن ما تقوم به الجامعة العربية حيال سورية منذ بداية الأحداث، وقبلها ومعها وبعدها، المؤسسات الدولية: مجلس الأمن، الجمعية العامة، مجلس حقوق الإنسان.. لا يقره منطق، ولا يدخل في أيّ نافذة أو حتى كوّة من كيان الشرعية الدولية، ذات المقام المتعالي والكيان المستكبر!!

فإذا كان المطلوب وطنياً ودولياً وشرعياً وإنسانياً السماح للجميع بإبداء الرأي، والانفتاح على الآخرين، ويكون ذلك عبر وسائل الإعلام المحلية المتعددة الرسمية والخاصة، مهما كانت اتجاهاتها ومواقفها وآراؤها تحت طائلة القانون؛ والوسائل التلفزيونية والمطبوعات الخارجية التي ترغب في أن تنقل الأحداث والوقائع عياناً، وأن تغطيها مهنياً وفق مشاهداتها وقراءاتها وتحليلاتها، فهذا مطلب حق ودائم!

ولكن كيف يمكن أن يُطلب كمّ الأفواه وصمم الآذان وتغييب موقف طرف رئيس؛ بل الطرف المالك زمام الأمر، المسؤول المباشر عن ضمان أمن الوطن والمواطن وفي أي ظرف من الظروف، ولا سيما في أثناء الأزمات؟! وهو الموقف الرسمي لدولة ذات ريادة وسيادة ودور وحضور، وتمثّل غالبية الشعب، كما أظهرت الأحداث على الأرض والمسيرات في الساحات والشوارع، وأثبته التماسك البنيوي

واللحموي المتمثل باستمرار عمل المؤسسات والمنظمات، والدوائر الرسمية الخدمية والسياسية والدبلوماسية والعسكرية، ولم يستطع أن ينكر ذلك الخصوم قبل الأشقاء، وباعتراف الغريب المعادي قبل القريب والصديق!! إضافة إلى المبادرات الإصلاحية التي أعلنت، وشكلت لها اللجان، وأعطيت المواعيد المناسبة، وأنجزت، وانتخبت الإدارات المحلية، واستفتي على الدستور، وأجريت انتخابات مجلس الشعب بناء عليه..!

وهذا الإصلاح كله لم تواكبه الجامعة العربية، أو ترعه؛ بل لم تره؛ لأنها لم تتعود على الإصلاح في أقطارها، ولا سيما في الممالك والإمارات التي تقود هذه الحملة على سورية، مستغلة حالات غير سليمة في دول أخرى، ومهددة باقي الدول؛ ولأنها لا تريد للأزمة أن تنتهي على خير الوطن السوري المقاوم، والشعب السوري الصابر؛ بل وفق ما يريده الآخرون، وما يخطط له الأعداء!

لقد بدأت خطوات إبعاد الصوت العربي السوري، والمشهد الوطني، والرؤية الموضوعية الداخلية للأزمة بتجميد عضوية سورية -العضو المؤسس- في الجامعة العربية التي تعدّ وفق بنودها، ولا سيما المادة الثامنة، جامعة للأنظمة العربية، من دون أن يكون مخولاً لها التدخل في الشؤون الداخلية، أو مناقشة مشروعية أي نظام! كان ذلك منذ أشهر عدة، تمهيداً لمناقشة الموضوع السوري بغياب صاحب القضية!! كما تم سحب معظم السفراء العرب من دمشق، في خطوة استفزازية، سبقت الدول الغربية إلى ذلك؛ إضافة إلى العقوبات الاقتصادية التي نالت من الشعب الذي يدعون أنهم يريدون مصلحته؛ ثم قاموا بتحويل الموضوع السوري إلى مجلس الأمن بعد فضيحة المراقبين العرب الذين

أرسلتهم الجامعة، ورفضت تقريرهم؛ لأنه أشار إلى وجود مسلحين في المعارضة، وحجبت آراءهم وآراء رئيس البعثة السوداني اللواء محمد الدابة عن الأعضاء في مجلس الأمن، ولم يُدعَ لعرض مشاهداته، كما طالبت روسيا والصين اللتين أحبطتا الهجوم الأممي العربي مرتين، وبدأ التضييق على البعثة السورية في واشنطن مالياً وإعلامياً، وطرد السفراء وممثلو البعثات السورية لدى عدد من الدول الهامة، ما استدعى إجراء مماثلاً من سورية التي صبرت طويلاً على سفيري فرنسا وأمريكا، اللذين شاركا ميدانياً في تأجيج الأوضاع على الأرض منذ بداية الأحداث..

لكن الأمر الأفظع هو ما أقدمت عليه الجامعة مؤخراً، محاولةً تغييب صوت الحق وصورة الواقع؛ بل إلغاء أيّ رأي أو مشهد لا ينسجم مع ما يُظهرون وما يبتغون، من خلال قرارات حجب الفضائيات السورية العامة والخاصة عن قمري عربسات ونايل سات؛ هذا الإجراء الذي يمثل عنواناً فاضحاً لعدوانهم الإعلامي المكشوف منذ بداية الأزمة في سورية، وقد قام الإعلام السوري الخاص والعام بدور رئيس في كشف التزييف والتحريض والافتراء.. و ما يقوم به هذا الإعلام التابع للجوقة القاتلة نفسها. وهذا ليس الإجراء الأول من نوعه؛ فقد سبق أن حوصرت محطة الدنيا التلفزيونية، وعوقبت صحيفة الوطن.. وهما خاصتان وليستا تابعتين للدولة، كما شملت المقاطعات العالمية رجال أعمال وشركات خاصة؛ إضافة إلى الشخصيات والوزارات والمؤسسات العامة؛ وهذا يؤكد بطلان دعاواهم المطالبة بالإصلاح وإطلاق الحريات العامة التي يأتي في رأسها حرية القول وإسماع الرأي وسماعه؛ كما يؤكد أن المستهدف ليس النظام كما يدعون؛ بل أي صوت مخالف لتصوراتهم القاتمة وتطلعاتهم الغادرة؛ ولا سيما الصوت النابض بإحساس الشعب

المخلص لوطنه، وشعور الناس الأوفياء لمن يرعى مصالحهم ويتمثّل معاناتهم، ويشرع رؤاهم الوطنية والقومية والإنسانية، الصوت المقاوم للاستعباد والاستعمار والاستغلال، الرافض لهيمنة القوى الكبرى وسطوتها غير الأخلاقية، وصنيعتها -بوصلتها- الكيان العنصري الصهيوني؛ فقد سبق أن عوقبت قناة المنار فضائياً بالطريقة ذاتها..

وما يزيد الأمر فظاظة وعدوانية.. أن القنوات الإعلامية العربية عالية المهنية والتقنية والموضوعية.. المنتمية إلى الجوقة الردّاحة النواحة الشتامة الهدامة ذاتها، قد قطعت البثّ المباشر الذي كانت تقوم به لجلسة الجمعية العامة للأمم المتحدة، حين بدأ المندوب السوري د.بشار الجعفري بإلقاء كلمته، لأنه سيفنّد مقولاتهم ويكذّب ادعاءاتهم، ويتحدّث بالوقائع والوثائق عما يجري في سورية..

يطالبونك بالإصلاح وهم شركات ومشاريع استثمارية؛ يطالبونك بالحرية، وتغيب عن أنظمتهم أبسط مقوماتها، يتشدقون بالإعلام الحرّ أو المهني أو المفتوح، وإعلامهم الخاص يمارس سياساتهم التي يرسمها أسيادهم بامتياز.. ويسارعون لكتم الأنفاس التي لا تكيل المدائح لكرمهم في تسليح المتمرّدين والإرهابيين، ومشاركتهم في إراقة الدم السوري الزكي، ويعمدون إلى إلغاء الصورة التي لا تناسب رؤاهم الظلامية التي لم تدخل أجواء التاريخ والحضارة!! إنهم يحاولون أن يطفئوا نور الحقّ بسطوتهم الجائرة وقدراتهم العابرة وأدواتهم النهمة وغاياتهم المنكرة، وهم عن ذلك عاجزون..!!

***

الضـدّ!

تتوازى مسارات الحياة، وتتواشج، وتتقاطع في مراحل مختلفة، وقد تتعاكس بشكل فاقع،وذلك بانسجام القناعات واختلافاتها، واتفاق المصالح وافتراقها..

هذه القناعات التي لا تتشكل دفعة واحدة؛ بل تغتني أو تتكامل أو تترمّم طول العمر، وقد لا تقويعلى الصمود، وقد تهتزّ أو تتحوّل قبل أن تصبح عقيدة واضحة ثابتة.

أما المصالح فقد تتبدّل هي الأخـرى، وتتحوّر بوتائر أكبر، وإيقاعات أكثر تنوّعاً وضجيجاً.

ويحتاج المرء الجادّ إلى إعادة تقويم للموقف والأفكار في ضوء المعارف الجديدة، والوقائع المستجدّة، والعلاقات واللقاءات والنشاطات التي قد تحدث في محيط قريب أو مواقع متباعدة، نتيجة ظروف الحياة وتبدّلاتها وتطوّراتها، أو بسبب السعي إلى العمل الأكثر مناسبة، أو للقيام بمهمّات متنوّعة..

وتتبدّى صوابيّة الرؤى والمواقف أو عدميّتها في النتائج التي تظهر على الصعيد الشخصي والإطار الجماعي، وحتّى على صعد

أخرى متدانية أو بعيدة، حتى تلك التي لا علاقة مباشرة معها، ولا ارتباطات مادية أو أدبية؛ بل أفكار وتحليلات ونظريات، قد تنعكس بشكل أو آخر على حياة الفرد أو المجموعة في هذه المنطقة أو تلك، وحتى على نطاق البشريّة كلّها. ومنها ما قد وقع قبلاً، وتمّ الاطّلاع عليه حديثاً، وأخرى كانت محجوبة أو مموّهة أو مضلّلة أو معروضة بشكل موجَّه يشوّه الحقيقة!

ومنها ما يفتح آفاقاً مهمّة أو يساعد على تقويم الحالة، وقد يساعد على التقويم أيضاً النظرُ إلى الحلفاء الذين يسيرون في التوجّه عينه، وتاريخهم، وسلوكهم، وخلاصات أعمالهم ونشاطاتهم الملموسة والمحسوسة، ومدى توافق أفكارهم وقناعاتهم مع أعمالهم، ومدى ثباتهم على المواقف، أو تغيّراتهم الطارئة والمتعدّدة وأسبابها وجدواها.. وبما أنّه قد تكون في هذا الأمر محاباة أو مجاملة أو تعاطف، نتيجة العلاقات والصداقات والمشتركات الأخرى، فإنّ ما يساعد على ذلك بشكل أفضل النظرُ إلى الخصوم، وقد تكون مواقفهم أكثر علنيّة، وسيرتهم أكثر وضوحاً، وتاريخهم وعلاقاتهم وتحالفاتهم..

وقد يتصرّفون بحماقات، ويقومون بمغامرات غير محسوبة نتيجة إحساسهم بالغرور أو بالخسارة، فتكون أدلة جديدة مهمّة، لمن يقرأ أو يحلّل ويراجع، على أن موقفك سليم، ورأيك صحيح، وقناعتك مسوّغة!

ولا شكّ في أن المراجعة الجادّة من أجل التقويم المناسب للوصول إلى الخلاصة الحقيقية لذلك،تحتاج إلى جرأة وشجاعة، ولا سيما إذا ما كان الأمر يتطلب موقفاً قد يخسر المرء فيه الكثير، بما في ذلك حريته وحياته؛ فيما التغيّر في مرحلة ما يعني خسارة سنوات من الجهد والسعي والقول والفعل في اتجاه معين!

من دون أن يعني ذلك حتمية أن هناك تحالفات قائمة ما أقامت، وخصومات دائمة؛ إلا في القضايا المبدئية: الوطنية والإنسانية؛لكن يكفي أن تكون نسبة أكبر في هذا الاتجاه أو ذاك، كما يجب التفريق بين المواقف التكتيكية والاستراتيجية، وبين المحطات الطارئة أو العارضة، والأخرى المتّصلة والمتجذرة.

وبإسقاط ذلك على ما يجري في بلادنا العزيزة من أحداث، يمكن القول بثقة إن توافقاً على سورية يتم من قبل دول معروفة بعدوانها على الشعوب، واستخدامها مختلف الوسائل للهيمنة والسيطرة، بما فيها الغزو العسكري المباشر، وعلى رأسها أمريكا والدول الغربية الأخرى، بالتحالف مع الكيان العنصري في فلسطين المحتلة، وهذا ما تظهره المواقف والتحركات التي يقوم بها قادة هذه الدول، إضافة إلى دول عربية معروفة بسلطانها المتوارث والمحكوم بالأحادية والتبعيّة لتلك الدول الغربية، مع جهات أخرى في دول مجاورة تدور في ذلك الفلك، ولقادتها أدوار معروفة في التاريخ القريب عمالة للأعداء، وحقدًا على سورية ومقاومتها وحلفائها وكيانها الحرّ المستقل؛ هؤلاء جميعاً يقفون مع الفتنة والفوضى في سورية،

ويساندون بصورة مواربة أو صريحة عمليات التخريب المنظّم لبنيان الدولة ومؤسساتها الوطنية، والتصرف الغابيّ مع الكائنات المستهدفة بلا سبب أو جرم، ومنهم من يدعو صراحة إلى إمداد من يقومون بذلك بالمال والسلاح في الداخل السوري، وتسخير الإعلام الخارجي، والسعي في المحافل الإقليمية والدولية لتأمين سبل سيطرتهم الجهنمية، وأفكارهم المعتمة.. ألا يكفي كل هذا دليلاً على أنّ جميع الشعاراتالمرفوعة، مهما بلغت أصداؤها الإيجابية،محضُ افتراء وتضليل، وأن الغاية هي التفتيت والتجزئة، وضرب مقوّمات الصمود والكفاية والتنمية.. تنفيذاً لمخططات خارجيةعدوانية محضّرة.

ولعل في الوقائع الميدانية ونوعيتها ووحشيتها، والقائمين بها وعليها ومستوياتهم وشراستهم، وظهوراتهم الإعلامية، ودعواتهم إلى التدخل العسكري الخارجي لضرب الوطن، وعلاقاتهم مع الكيان الصهيوني، وخطاباتهم وفتاويهم..خير دليل على ذلك.

إن القطيعة مع هؤلاء وأولئك، والمواجهة مهما كانت قاسية، ومهما كانت مستلزماتها وعناصرها ونتائجها وضحاياها،شرف وكرامة وأخلاق ونبالة وشهامة..

حقاً إن «الضدّ يظهر حسنَهُ الضدّ»!!

***

حربهم!

يحقّ للكيان الصهيوني -والغرب عموماً- أن «يقلق» على مصير الأسلحة في سورية، فيقرر أن يتدخل حين يجد ذلك ضرورياً، من دون أن ينتظر قراراً أممياً، أو أذناً من أحد، ويحقّ له أن يضرب ما شكّ في أنها منشأة نووية في دير الزور، من دون أن يعترض أحد، أو يتساءل عن التخويل والتكليف والمشروعية في هذا الغزو المعلن؛ بل ذهب القائمون على العالم إلى مساءلة سورية، والطلب إليها أن تسمح بالتفتيش عن هذه المشاريع المزعومة؛وحقّ لهذا الكيان الغاصب للأرض والحقوق، ويحقّ أن يقتنع بسياسة الاغتيالات الفردية للشخصيات العربية على اختلاف مسؤولياتهافي فلسطين المحتلة وخارجها، التييرى فيهم خطراً أو عثرة،وأن يتصيّد العلماء والخبراء في العراق وسورية وإيران.. وسواها؛ ويحق لمسؤوليه ومتديّنيه لا لغيرهم الإعلان عن سياستهم هذه والتباهي بنتائجها، والاعتراف بقتل ذاك المناضل، أو هذا العالِم، في الوقت الذي يريدون، وبالطريقة التي يرونها مفيدة.. ولم نسمع اعتراضاً من العالَم المتحضر الساعي

إلى فرض شرائع حقوق الإنسان وسيادة القانون الدولي بالقوة، ومن خارج الشرعية الدولية إن اقتضى الأمر!

فيما لا تستطيع أنت في بلدك المستقلّ ذي السيادة والريادة والعراقة، وبقواك الشرعية المخوّلة بحفظ الأمن والأمان، اعتراضَ المعارضين المسلحين، ولا مخاشنةَ المتمردين الخارجين على القانون، ولا مضايقة المنتهكين حقوقَ الجيرة والمواطنة والعيش المشترك، ولا مواجهةَ المرتزقة الغزاة القادمين من بقاع شتى طلباً للمال مقابل الإرهاب والترويع والتقطيع، وابتغاءَ «الجنّة عند أقدام الأمهات» الثكلى،وعلى مسيل دموع الأرامل ووقع صراخ المفجوعين وآهات اليتامى.. لأن في ذلك خطورة على السلام العالمي، وخرقاً للقوانين البشرية، وإهانة للمشاعر الإنسانيةالتي لا يحس بها الفلسطينيون ولا العراقيون ولا الليبيون ولا.. المواطنون السوريون الذين كانوا آمنين!!

والأنكى من كلّ ذلك أن يحتفل بعض العرب باغتيال الرواد في العلم والسياسة والسيادة.. تماماً كما يحتفي مجرمو الحرب الصهاينة ومعهم؛ بل ربما قبلهم وأكثر منهم!بمايماهي بينهم في المخطط والسلوك والهدف والمغزى، وما يؤكد أن أيديهم أوكت، وشفاههم تنفخ بحماسة وحمية وغيرية في غير مكانها ووجهتها وأوانها..

والأمرّ من ذلك أن يحتفي مواطنون عرب قريبون أو بعيدون بمثل هذه الأفعال الجرمية وسواها، ما قد صار تفنناً وعجائب في التشفي والانتقام والوحشية؛ بل أن تقوم بها كائنات تنتمي إلى هذه الأمة المنكوبة، أو تشارك فيها أو ترعاها؛ تترك كل المهمات الأخـرى، وتنسى الحاجات والمتطلبات الأخـرى، وتهمل المسؤوليات الكبرى.. وتجيّش وتحرّض ضد سورية الوطن والملاذ لكل العرب وقضاياهم السيادية والقومية والإنسانية..

ربما كان ذلك غير مفاجئ لمن يتابع ويهتمّ ويعي؛ يقرأ التاريخ والوقائع والعلاقات.. رغم ما قد يبدو أحياناً من تحالفات آنية أو توافقات مرحلية؛ فكلّ يعود إلى أصله ووظيفته وغايته ونواياه؛ هذا ما تؤكده الاجتماعات والقرارات والبيانات.. العربية!

ليس هذا غريباً؛ لأن الجهل والحقد والتطرف والعنصرية من طينة واحدة، ولأن هناك تواؤماً بين التجهيل والتضليل والإفقار والإحباط،فالهيمنة والسيطرة والاستعباد..

الأهـداف نفسها، والحالات تتكرر وتتوضح، والرغبات تتوافق، والمواقف تتساوقفيما بين زعماء وحكام عرب ومسؤولين صهاينة وساسة غربيين.. ليس هذا طارئاً ولا عارضاً؛بل هي مخططات أمريكية وغربية، وسياسات معلنةوخفية،ومشرو عاتصهيونيةومهمات، وأدوات عربية.. حتى ليصح ما يقال

عن الكثير مما جرى في منطقتنا، ولا سيما في الآونة الأخيرة وفي سورية تحديداً: إنها الحرب الصهيونية التي لم يسقط فيها «اسرائيلي» واحد، ولم يصرف فيها دولار غربي واحد؛ ويكفي القائمين بها وعليها هذا «الشرف»وهذا الدور؛ هذا إذا لم تكن حربهم أيضاً!!

***

إرهاب أيضاً!!

لا يستطيع المرء مهما ادّعى من الحياديّة، أو بلغ من السلبيّة، أن يتجاهل ما يجري من تناقض أو ازدواجية أو مواربة، أو يتغافل عما يكتنف الواقع العملي أو الافتراضي من تخبّط وتنافر وتضليل، فيما يتعلق بالمواقف الدولية والعربية تجاه الأوضاع في سورية.. ومهما كان الموقف السياسي من الحديّة والانحياز والاعتراض والمخالفة، فإن ما لا يمكن قبوله بأيّ ذريعة، التنكّر للوقائع، أو تجنّب الخوض في الحديث عنها واتّخاذ موقف بيّن منها، رغم كلّ ما فيها من جلاء ووضوح وإعلان وإعلام وحرائق وإجـرام.. ولا سيما إذا ما كان الأمر يخالف المبادئ الأخلاقية والإنسانية بأيّ نسبة دنيا أو عليا، وحسب أيّ وجهة رؤية ذاتية أو موضوعية، خاصة أو رسمية أو عامة؛ ويتعارض مع شعارات متفق على صحتها ومشروعية المطالبة بها لأيّ إنسان وافَقَنا أو خالَفَنا، كحرية التعبير وإبداء الرأي والاعتقاد، ناهيك عن الانتماء مولداً وقناعات..وعدم المساءلة أو المحاسبة على ذلك، مادام الأمر في نطاق السلوك السلمي والقانوني..

ولا يختلف هذا بين إنسان فرد أو جماعة، أو مؤسسة محلية أو على الصعيد الدولي.. ويكاد يكون الفجور الإعلامي أحد علامات هذا السلوك (الحضاري) الأممي في العقد الثاني من الألفية الثالثة،

بعد آلاف من تسيّد هذا الكائن (العاقل) الذي خلق على مثال صورة الله، سدّةَ الكرة الحائرة المنكوبة!

لعلنا نستذكر –على سبيل المثال- كيف تداعى العالم (المتمدّن)، بما فيه العرب المتحمسون دائماًتبعيّةواستزلاماًواتفاقاً في النوايا الحاقدة والغايات القاتمة وخدمة «اسرائيل»، لتنفيذ أوامر الغرب في تسعينيات القرن الماضي، لمحاصرة (الإرهاب) وتجفيف مصادر تمويله، بعد عدد من العمليات الاستشهادية التي قام بها فلسطينيون مقهورون ضد المحتلينالصهياينة لوطنهم، ومنتهكي حقوقهم في العيش الحرّ الكريم في ديارهم المستباحة، بما فيها الديار المقدسة إسلامياً ومسيحياً.. وبعد أن ضاقت بهم السبل في ظلّ داعمي الاحتلال عسكرياً واقتصادياً وإعلامياً، وحماته في مجلس الأمن والجمعية العامة ومجالس حقوق الإنسان وباقي المؤسسات الدولية المرتهنة لأمريكا والغرب؛ فقد ضمت منتجعات شرم الشيخ قادة ورؤساء دول أجنبية وعربية، ما عدا قلة من بينها سورية! لمواجهةأحد وجوه المقاومة الفلسطينية للمحتلين، تلك المقاومة المشروعة في جميع الثبوتيات والمواثيق والأعراف؛ كما قامت الدنيا، ولم تقعد حتى الآن،حين ضُرب برجا التجارة العالمية في نيويورك منذ أكثر من عقد، واُحتلت دول، ودُمّرت مقدرات لبلدان وشعوب، وأزهقت مئات الآلاف من الأرواح البريئة؛ فيما هذا العالم ذاته الذي يدّعيالحرص على الشعوب وحقوقها وحرياتها.. يسكت عن العمليات الإرهابية الموصوفة التي تمت في عدد من المحافظات السورية، وحصدت المئات من أبناء الشعب السوري وشوّهت ويتّمت الآلاف.. وقليل منيذكرها بخجل وحذر وبعبارات عائمة

غائمة؛ كما يسكت هذا العالم (الإنساني الديمقراطي) عليانتهاكات حقوق الإنسان التي تنفذها بأبشع الأفعال والأشكال العصاباتُ الإرهابية المسلّحة تحت أيّ مسمى معارض، ويتجنّب الحديث عنها وعن شنائعها، محاولاً تقصّيَ أيّ أثر يبرئها، وفبركةَ شهود زور، وفق أسلوب بات مرصوداً للاتّهام والاستهداف في عمليات كبرى أو صغرى، قريبة أو مجاورة، حسب الرغبات والسياسات والمناسبات والخطط والمؤامرات والعدوانات.. بل إن عدداً من الدول الفاعلة أعلنت صراحة عن دعمها للقائمين بهذه الأفعال (أو للمعارضة التي تحالفهم أو تستخدمهم) مادياً وتسليحاً وإقامة وإعلاماً، وحماية في مجلس الأمن، ومحاصرة للدولة السورية في المحافل الدولية ومقاطعتها؛ بل محاصرة الشعب السوري في تنقلاته وحاجاته الأساسية! وفيما المعارضون (السلميون) في سورية ينكرون أيّ دور لهذه الجماعات المسلحة، بعد أن خجلوا من إنكار وجودها (ومنهم من لم يخجل بعد!)، فسوّقوا لها أسماء ومسويغات، بعد أن صارت تعترف بأفعالها وتفاخر بـ(إعداماتها للمدنيين والعسكريين، وتدميرها للبنى الخدمية والتعليمية والاقتصادية) التي يندى لها الجبين وتطأطأ الرؤوس خزياً وعاراً، وتصرّ هذه المعارضات على إنكار مسؤوليتها في ذلك، أملاً في مكاسب تجنيها على حساب الدّم البريء والأشلاء المعفّرة والأنين المرّ، من دون أن يعرّج أيّ من رعاة المبادئ الخلّابة وأصحاب الشعارات البرّاقة على عمليات الخطفوالقتلالممنهجة لمجرد الانتماء أو القول أو الشّبهة أو السكوت عن المشاركة في التخريب والفتنة والفوضى؛ ناهيك عن الإدانة والاستنكار!!

ويجب ألا ننسى استهداف الكفاءات العلمية والشخصيات

المميزة غير المعروفة كثيراً، ما يذكّر بأعمال الموساد؛(مثال: اغتيل في حمص المخترع السوري الفذّ عيسى عبود في حمص يوم ١٨/ ٤/ ٢٠١١ أي بعد نحو شهر فقط من الأحداث وهو من ريف المحافظة ولم يتجاوز السادسة والعشرين!!).

وإذا كانت مسوّغات المعارضين في ذلك تندرج في إطار (عدم الخوض في معارك جانبية!) كما يصرح بعض رموزهم، رغم أن الأمر يدخل في صميم الأشياء مفهومات وقناعاتوسلوكات.. ويؤكدون (ضرورة التركيز على العدو الأساسي)؛ بل الوحيد؛ وليس الكيان الصهيوني طبعاً؛ بل لم يعدهذا الكيان الغاصب المحتل لبعض أرضنا السورية أيضاً في قائمة الأعداء الثانويين؛ إنما بات مناصراً للشعب السوري و(ثواره) ويدعو معهم إلى التدخل العسكري الخارجي؛ هم الذين يعلن بعض قادتهم عن عزمهم على إقامة علاقات معه؛ هذه العلاقات التي باتت واقعاً ولم تعد تكهّناً أو تحليلاً؛ فإن أيّ تسويغ لا يصحّأمام سكوت هؤلاء المعارضين -وسواهم من المعارضين تحت الطلب أو الانتظار- عن الإرهاب الفكري المتمثلبعمليات القتل أو الدعوات إليه لشخصيات ورموز فكرية أو ثقافية أو علمية.. ومنها من لم تكن (موالية) يوماً؛ ادونيس مثلاً!! هذا الأمر الذي لا يمكن أن يقبله، أو يتغافل عنه، أو يتجنبه بلا إدانة واستهجان ومواجهة،كائنٌ لديه بقايا حسّ إنساني في سورية وخارجها!!

***

مؤشرات «ثقافية»!

بعد أيام من دخول قوات الاحتلال الأمريكي بغداد، بدأت سرقة منظمة للكنوز الثمينة في المتاحف العراقية؛ وفي ذروة الأحداث الاحتجاجية في القاهرة، تمت مداهمة المتحف الوطني، والسطو على بعض موجوداته القيّمة، وتخريب تماثيل أخرى، وقبل مدة أحرقت أضخم مكتبة تاريخية في قلب القاهرة، تلك التي تضم نحو مئتي ألف كتاب! ويضاف هذا إلى ما تردّد من دعواتللنيل من مؤلفات نجيب محفوظ بحجة تأثيراتها الإلحادية، وهذه محاولة لاغتيال إرثه الأدبي، بعد محاولة اغتيال الأديب الراحل في حياته.

وفي سورية لم ينسَ «طلاب الإصلاح السلميون» أن يقوموا بإحراق المركز الثقافي في بصرى، ولمن لا يعرفه، فهو جزء من الآثار الحضارية في تلك المدينة التاريخية، مكاناً ومقاماً ورمزاً ومعنى.. وبالمناسبة فقد كنا هناك أواخر العام ٢٠١٠م، لتوزيع جوائز المركز الثقافية لعدد من الموهوبين من أبناء سورية!

كما تنبّه «الثوار» إلى أهمية متحف الفسيفساء الأشهر في معرة

النعمان، وما يحتويه من لوحات نادرة، منها نحو ألفي متر مربع من الفسيفساء المعروضة بأبعاد متنوعة، وأشكال بديعة، وإبداعات فريدة، ما جعل ذلك المتحف الأول للفسيفساء في العالم؛ فتمّالهجوم عليه مرات، لكن الكرام من المواطنين في بلد المعرّي، حموه بأفئدتهم وعيونهم وأجسادهم. وللمناسبة أيضاً، فقد تشرفنا بزيارة متحف المعرة، ومتحف إدلب الغني بالكنوز الأخرى، ولا سيما رقيمات أهم مكتبة اكتشفت في «إيبلا» التي تمت زيارتها أيضاً، في شهر تشرين الأول من عام ٢٠١٠م استكمالاً لفعاليات مهرجان المعري العاشر مع مجموعة من المثقفين العرب!

ولا يخرج عن هذا السياق الاعتداء على أكثر منألفي مدرسة في سورية، وتعطيل الدراسة في عدد من المناطق، وتخريب بعض مراكز البحوث؛ كما يزيد الإجرام كارثيةً اغتيالُ العلماء والمميزين، الذي ابتدأ منذ الأيام الأولى في حمص باستهداف أصغر مخترع في العالم! بعد ذلك تتالت عمليات القتل المنظم لرموز علمية في الجامعات، وأصحاب شهادات واختصاصاتمهمةمدنيةوعسكرية،في بيوتهم أو أماكن عملهم. وهذا يذكرنا بما كان من اغتيالات مشابهة تمت في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن الماضي في سورية، وملاحقة العلماء العراقيين الأفذاذ قتلاً أو تهجيراً في أثناء الاحتلال الأمريكي، الذي انتهى كابوسه الأسود منذ أسابيع قليلة.كما تتشابه

أعمال القتل والتنكيل والتمثيل والتفجير لإرهاب المواطنين، وإثارة الفتن المذهبية والطائفية، وتقويض أركان الدولة ومؤسساتها؛ فالجهة نفسها، كما قال بثقة أحد مراقبي جامعة الدول العربية من العراق الشقيق، في لقاء وفد الجامعة مع المثقفين والأدباء في طرطوس.

إن مثل هذه السياسات ليست غريبة على الفئات التي تتبنّى الفكر الظلامي، الكافربالتاريخ الإنساني المضيئ، والمعادي للحاضر ومشاعله الوضّاءة، المبشر بمستقبل شاحب ومصير أسود؛ وليس ذلك غريباً عن الجهات التي تدعمها في الداخل والخارج، والشرق والغرب؛ تلك التي يتغنّى الكثير منها بالتنوير والتحضّر، لكن الغريب أن يمر كل ذلك من دون أية إدانة لمثل هذه الأعمال، أو حتى الإشارة إليها، من دعاة المدنية والحرية والديمقراطية، ولعل ذلك يندرج في حسابات القائلين بأنهم لا يريدون أن ينخرطوا في «معارك جانبية»!، حتى لو أدى ذلك إلى رفض الاعتراف بالعصابات المسلحة التي تعيث إجراماً في مناطق مختلفة؛ حتى إن المثقفين يبدو أنهم لا يتأثرون باستهداف الرموز الثقافية وموائل التعليم المادية وروادها المضحين، ولا «يحتجون» على افتقادالمميزين علماً وتحصيلاً وتدريباً، ولا يشعلون الشموع على التعددية،ولا يتخوفون من أحكام الحدود السوداء، ولا «يتحركون» لوقف هذه الخسارات الأخلاقية والحضارية والإنسانية؛أم أن ذلك يأتي أيضاً في أرصدة

«الآخرين»وحساباتهم أيضاً؟! وربما كان لبعضهم رؤية مختلفة للحضارة والإنسانية، تتمثل بأنه على الناس أن لا يفكروا إلا باتجاه واحد، وأن لاتكون لهم قناعات أخرى أو عبادات أو طقوس؛ كما أنه كثير على المرأة أن ترى بعينين اثنتين؛ فعين واحدة تكفي! ولو قدروا لقدّروا على العباد–وليس من قبيل البخل والتقتير– أن يتنفسوا من منخر واحد!

***

لم تكن تقصد!

الجسد المثخن بالوجع، المترع بالوخز، الموشى بالأسى..

الجسد المغرورق بأنداء وسوائل حارقة، المكدود من تعب ولطم وتنكيل، وطعنات مارقة.

الجسد المنزرع في الأرض، المشرئبّ إلى السماء، حتى لو كان ينزف، لا يزال يحيا!

أنت لا تقصد، لكن سهامك تصيب الصميم، عن قرب وبعد!

أنت لا تهدف إلى الإساءة، لكن كلامك يصب في المجرى القاتم!

لستَ في صفّ الخصوم ولا في خندق الأعداء، لكنّ الاتجاه الذي يمضي فيه حديثك وغضبك وحدّتك يقود إلى هناك.

لا علاقة لموقفك بمواقف الذين يكيدون للبلد جهاراً، لكنها تناسبهم وتعجبهم ويمتدحون ويدعمون.

نواياك تجاه أبناء جلدتك سليمة صافية، ولا تضمر لهم الأذيّة ولا تتمنّى لهم البلية؛ فماذا عن إشاراتك وتلميحاتك التي تؤدي إلى ما يخالف الخير لهم، لبعضهم، وقد تودي بهم؟!

تريد الهدوء والاستقرار، ولا تترك أبسط الأشياء يمرّ من دون شوشرة وحنق وجلبة..

تتغنّى بالتسامح والترفّع، ولا يكاد أحد ينجو من لومك وعتبك على أوهى سبب.

تدّعي الموضوعية، ولاترى إلا بعين واحدة وفي اتجاه واحد؛ تفضحك تعليقاتك ومصطلحاتك ورواياتك واتهاماتك.

أنت تكره العنف وتمجّ مشاهده، وتنفر من رواياته، لكنك لا تستنكر القتل المجّاني، وامتهان الحياة، وانتهاك الموت، ولا تُدين المجرمين؛ بل تتجنّب الحديث الذي يذهب في هذا المنحى، وتدين المتحدثين!

تُكثر من التشفّي بالفساد، والتلمّظ بأخباره، ولا تتناول المقرّبين منك، وأولياء نعمتك المستحدثة، وتتناسى مصدرها، وتتغافل عن الطرق التي تعرفها جيداً في هذا الشأن. الجسد المضمخ بالأصالة، مع أنه لا يزال يئنّ، لا يزال حياً؛ سيتعافى، وسيستمر في الحياة بقوّة وأنفة وكرامة.

أنت لم تكن تقصد؛ لم تبالِ بما كان يحدث، ولم تشِر إلى الثغرات، ولم تكترث بالوهن، ولم تمتعض من التسيّب، ولم تنزعج من تجاوز القوانين، ولم تتألّم على من ضاعت حقوقهم، ولم تتأفّف من الهدر، ولم تتحسّر على الوقت المضيّع، ولم تندم على خسارة..

لم تكن في عجلة من أمرك؛ أَهملتَ، وتـردّدتَ في الإقدام، واستسلمتَ للأقدار البشرية الشرسة منها واللينة، ورضيت بما فُتَّ لك، أو أُلقي إليك، ويمكن أن تكون شكرت وحمدت!

لم تكن تقصد؛ أَطعمتَ، وأُطعِمتَ، وما تورّعتَ عن انتهاك حصص الآخرين وأحيازهم، ما توقفت عن السعي وراء مصالحك، بكل ما تملك، وما يمكن أن تستغلّه مما لدى من هم تحت سطوتك، ومن تعيش في ظلالهم، وما تستطيع الحصول عليه محايلة أو مناورة أو مداورة أو خداعاً..

الجسد المتحفّز إلى الخلاص الوشيك، المتمسّك بالحياة التي تليق، المتطلّع إلى الآتي الجميل، يأمل، ويهفو، ويرنو..

أنت لا تقصد؛ ولكنك لا تترفّع عن الضحك في جنازات الفاقدين، ولا تعفف في حضرة الحزن، ولا تخفّف اندفاعك المحموم صوب تركات الراحلين، ولا تتراجع تحت وقع الأنات وشكاوى المحرومين، ولا تفوّت فرصة في اقتناص ما يمكن أن تتيحه الظروف الطارئة، وتتركه الحالات العارضة بلا حرّاس..

أنت لا تقصد؛ وتسارع إلى استغلال وضع مختلّ وواقع مرتبك، وافتعال أزمات ومشكلات، وإثارة نعرات وخصومات، واستباحة أوقاتٍ وأقواتٍ وحرمات..

الجسد الواثق يسير في درب الصلاح، وتتضح معالم المعابر السالكة نحو المحطات الآمنة، والفضاءات المأمولة، والآفاق المشرقة..

وها أنت تقصد؛ وتسارع إلى مقدمة الرّكب، وتتسابق لتحمل الراية التي تركتها تسقط، وربما سرقت ساريتها، وأشعلت بها الحرائق، أو ترفع أية راية أخرى، وتتباهى بمفارقة أصحاب الدروب العسيرة، واتهامهم بالمسؤولية عما كان، وكنتَ الأسبق إلى الولائم والمغانم، وما كانت حصصهم أكبر، ولا قدراتهم ورغباتهم..

ها أنت تهدف إلى قطف ثمار أخرى، واغتنام فرص جديدة، واستغلال ظروف مستجدّة..

ها أنت تتلوّن، وتتحوّر، وتدّعي الأبوّة، بعدما تأكّد عقمك، وانفضّ الخصب عنك، وبان هجرانك بينونة كبرى، وانقضت العدّة، والملامح التي تتشكّل لا تشبهك في شيء، وما تزال في البال آثار تخلّفك عن الخطو الرشيد، وقعودك عن طلب المعالي، وولوغك في السبي والغزو، وما تزال الكروم تذكّر ببصمات سارقيها وحوافر مراكبهم وعجلاتها..

أنت تقصد، كنت، ولا تزال..

لكن للمروءات فرسانها، وللآفاق جيّابها، وللمكارم رجالاتها، وتعرف الديار من صانوا وما هانوا، وتعرف الذين صبروا وصابروا، ونذروا أرواحهم وأوقاتهم ومصائرهم، وما أصابهم خوف ولا ضعف ولا قنوط..

منهم من قضى، ومنهم من في آفاق الشهامة والاعتزاز ماضون، وما بدّلوا تبديلا..!!

***

أضعف الإيمان

أستميحك العذر؛ ولا عذر!

ها أنا تحت رحمة إحساساتك المباركة، وفي ظل مشاعرك الفياضة، وفي ثنايا خفقك الأثير، ونبضك الحميم.. أعترف بأنني لم أكن على قدر الحادثة، ولم أصل إلى عتباتك القدسية، أيها الصامد الصابر الفاقد الفقيد!

فهل يكفي أن أحس بالأسى على أوقاتك البائسة، وأحزانك الراعفة، فيما أمارس فعل الصمت القارس؟! هل يكفي أن آسف أو أنكمش، وقد أغمض عينيّ وأصمّ مساماتي عن مشاهد امتهان الجسد وانتهاك الروح؟! هل يجوز أن نتجاهل الوقائع، ونقفز فوق الأحداث، ونتجاوز مآسي الناس، ونغيّر الموضوع.. بأيّ حجة أو علة؟!

أين أذهب من عذاب الضمير الذي يلحّ، حين أرى أخوة لي، مواطنين في أي ركن من سورية العزيزة، يهانون ويُظلمون بلا سبب أو جرم؟!

لست قاضياً؛ لكن للحقّ أدلة وشواهد؛ فهذا جاري، وذاك قريبي، والآخر زميلي في الدراسة أو العمل أو المهنة.. ولهؤلاء أهل ومعارف

وأصحاب سواي، أعرفهم أو يعرفونني؛ ولسواهم أناس عزيزون وأحباب.. وهم مواطنون أيضاً، ولهم عواطفهم وآمانيهم.. قد لا أعرفهم، ولكنني أعرف أن الهمَّ واحد، والأمل واحد، والدعاء.. هل يكفي؟! حتى لو دعوت معهم، لهم، لي، هل هذا أضعف الإيمان؟! وهل يكفي؟!

لم أقم بما يجب، عليّ أن أعترف؛ لم يطلب مني أحد ذلك؟! لا علاقة لي بما يجري مباشرة؟! لا أحد يسمع مني أو يأخذ برأيي؟! ربما.. ولكن؛ أنا مواطن في هذا البلد، عليّ واجب تجاه الوطن وأبنائه، وتصيبني، وقد تصل إليّ سوءات المجرمين؛ لست في برج عاجي، ولا في قصر منيف، ولا في محمية طبيعية أو بشرية!

لم يكن لي دور في ما كان، لم أشارك في ما حدث، لم أنحز إلى أي طرف، لم أدلّ على أحد، ولم أدافع عن أحد؛ لهذا لست في وارد الخوض في المشروع أو الموضوع، حتى لو كان حديثاً، حتى لو كان إصغاء! ولكن أين أهرب من الأصداء، والتبعات؟! هل أستطيع أن أواري نظري عن الشاشات المحلية والإقليمية، أقلب المحطات التي ترتفع فيها آهات النادبين، وتتعالى أصوات الفاقدين، وتتهاوى نداءات الملهوفين؛ أنفر من الأخبار الواقعية والمصنّعة، والمقابلات المُرضية والمستفزة، والتحليلات التي توثّق، أو تسوّق، أو تلفّق..

ولكن، ألست في حاجة إلى مواد للعيش، لاستمرار العيش؟! ألست في حاجة إلى انتقال، أنا أو أي من أفراد أسرتي؟! ألست أحتاج إلى سمير أو جليس أو أنيس؟! وإلام أستطيع أن أصمد وحيداً؟!

أليس في محاولتي الهروب أو التهرب جهد وتعب وإرهاق؟!

أليس في مغالبة الأفكار، والمناورة مع النفس والرغبات، والتحايل على الوقت، قدر كبير من الخوف المكتوم؟!

الخوف شعور إنساني، تحسه، بتّ تحسه، وأنت بعيد عن كل شيء، كنت تظن ذلك، فكيف الحال بمن يقف في حاجز يحمي العابرين، أو يتأهب ليعبر حاجزاً يمكن أن يكون مزيّفاً، أو يترقب أي هجوم في بيته أو مؤسسته أو مدرسته، أو يتوقع أي طلقة أو قذيفة.. من أي جهة أو مكان؟!

كيف تمر الثواني، الدقائق، الساعات، الليالي والنهارات، على من يحضن أطفاله، أو يشغلهم، أو يهدئ من روعهم وأسئلتهم وحاجاتهم وقلة نومهم؟!

كيف يعيش من يخشى الاختطاف؟! من أُختطف وينتظر التنكيل والتعذيب، أو ما هو أقسى، إذا كان من انتظار؟!

كيف يحس العابر في طرق غير آمنة، وفي أوقات متفرقة؟! وهل يضمن غنيمة الإياب في الرحلة التالية؟!

لماذا يغامر بنفسه وحياته ومصيره، هذا أو ذاك؟! لأنه مضطر، ولأن الحياة تستمرّ، ولأنه بذلك يضغط على أعداء الحياة، يتحداهم، يعيش متعة الفعل، ويشحن طاقة الحيوية، ويحس بقيمة الإنجاز: أنه بقي على قيد الحياة أطول فترة ممكنة، وظل فاعلاً ومتحركاً رغم أنف المعتدين المتربصين الجبناء؛ لقد حاصر حصارهم، وأبطل ادعاءاتهم،

وقلل من سطوتهم، وبدّد هيمنتهم على المنافذ والأنفاس، حتى إن استمرت أياماً في هذا الحي أو ذاك الطريق، أو تلك المنطقة!

حتى إن حصل له مكروه، فقد نال عزّ الشهادة وكرامة القضاء بلا انهزام أو استسلام!

خوفه إنساني، وخوفي جبان؛ خطوه مواجهة وانزوائي نكوص، صمته ضجيج وسكوتي موات، كيانه تقدُّم وقامتي انحدار، مصيره مبارك وقدري سقوط، صداه ضياء وسيرتي انطفاء!

ترى ماذا أنتظر؟! ولماذا لا أقوم بشيء ما؟! من أجل أحد ما، من أجلي!! فإلام أدع المكارم، وأقعد طاعماً كاسيا؟!

لم يفت الأوان.. لماذا لا أتقدم بمبادرة، أية مبادرة، تخفف، قد تخفف من بلوى أحد؟!

أليس هذا الاعتراف دليلاً على أن حياء ما يزال، وإحساساً، وشعوراً.. وما تزال حياة؟!

***

الدم السوري العزيز!

الدم السوري زكي وعزيز؛ لا شكّ في ذلك، ولاشكّ في أن أيّ وطني شريف مقتنع بهذا، وحريص على الوطن السوري والشعب السوري، ويسعى بجد وحماسة وحميمية كي لا تهدر قطرة واحدة من هذا الدم الغالي بلا مناسبة هي الأنبل أو غاية هي الأجلّ والأسمى!

ولكن..

ثمة من يقول إزاء ما يجري في سورية، وما يسقط من ضحايا، صادقاً متألماً محزوناً صابراً؛ أو متباكياً أو متوارياً خلف المقولات الحقّ في معناها، فيما المراد منها أشياء أخرى قاتمة: هذا دم سوري، من أي جرح سال، وفي أي ركن تخثر!

فإذا كان المقصود من هذا الكلام، أو ما يقاربه، الحفاظَ على دماء أبناء الوطن، وعدم إهراقه من أي طرف، وبذل الجهد الصادق لإيقاف النزيف المؤرق والمؤسي؛ فهذا أمر مطلوب؛ ليس في هذه الفترة العصيبة فحسب؛ بل منذ البداية، وقبلها منذ زمن بعيد، ولا سيما من قِبَلِ من حضّر وحرّض وهرّب ودرّب وسلّح وموّل...

أما إذا كان القصد المساواةَ بين من يعتدي ويُعتدى عليه، بين

من يندفع مهاجماً المواطنين والممتلكات، وبين من يدافع عن نفسه وأهله وبلده، والسكوتَ عن الفظائع والعفوَ عن المجرمين، فالأمر يختلف، مع ملاحظة أن كثيراً من حالات العفو التي مرت، جرى الحديث الكثير عن جدواها، وأوقاتها.. ومن بعض الذين يحزنون على الدم السوري المسفوك.. أنفسهم!

ومثل هؤلاء من يتحدث عن الفساد والمفسدين، ويلقي أسئلة مواربة أيضاً: كيف دخل كل هذا السلاح؟! ومنذ متى؟! ومن سمح بذلك؟! ويتساءل عن معاقبة المذنبين، وهذه أسئلة محقّة أيضاً؛ وتصيب الدولة ومؤسساتها والمسؤولين فيها والمواطنين جميعاً.. الآن كما في الماضي وفي كل وقت آت؛ لكن الذين فسدوا واستهانوا، وغضوا الضمير، وأغمضوا الوجدان.. سوريون أيضاً، وأعمارهم مهمة بالنسبة إلى الوطن، وعائلاتهم وأسرهم؛ فهل نسكت عن أفعالهم المنكرة التي شاركت في المصيبة، وتشارك في إزهاق الأرواح بلا طائل، أم نطالب بإقامة الحدّ عليهم؟!

ومن المعلوم أن كثيراً من الذين تورطوا في الأحداث الدامية، هم من المطلوبين وأصحاب السوابق، ومن خريجي السجون الذين شملهم عفو ما أو لم يشملهم.. وهم سوريون أيضاً، ولم نسمع أحداً يسأل عنهم أو عن سواهم، أو عن مصائرهم بعد أن يطلق سراحهم، وكيف سيعيشون ويصرفون على حاجاتهم، ومن أين؟! ولعل في الأجوبة الغامضة على ذلك بعض ما يفيد في التعرف إلى ظروف الكثيرين ممن تورطوا في الأحداث الأخيرة.

إن النظرة الإنسانية الوطنية واجبة ومقدرة ومفيدة في كل وقت، وقد تكون ضرورية الآن أكثر من أي وقت مضى، مع بعض النسيان، والكثير من التسامح لتحقيق المصالحة الشاملة المأمولة؛ لكن في الوقت نفسه لا بدّ من القول: إن المطلوب أيضاً أن ينال جزاءه العادل من قام بالمنكرات من الأفعال، وأقام المحاكم الميدانية على الاسم والنسبة واللون والطيف والميل..؛ وهذا ضروري وملحّ أيضاً، من دون أن ننسى أن هناك جرائر لا تقل وحشية، قد تظل بلا دلائل مادية، كالإفساد والتحريض، والتوريط والتيئيس.. ولها تأثير واسع وممتد في الزمان والمكان، كما تظهر على أرض الواقع الجرائم التي تصل إلى حد التعامل مع العدو، إخباراً، أو إدلاء بمعلومات، أو انتقالاً إلى صفوفه أو ميادين عملائه وحلفائه.. ومن يقوم بذلك كله أو بعضه للأسف سوريون، ومنهم من كانوا إلى فترة قريبة من أصحاب المواقع والمهمات والأوامر والحظوة.. فماذا نقول عن إدانتهم ومحاكمتهم وحسابهم؟!

ولا بد من التفريق بين حال من كان –وما يزال– مطلوباً منه بحكم القانون والمسؤولية والمهمة أن ينزل إلى الأرض، يردع أو يمنع أو يواجه أو يقاوم أو يحمي.. وبين من استدعى بعض وقائع الحالة القاتمة، أو كان المندفع لإشعال النار وإيقاد الفتنة، وهو يستجرّ من يهمّه إهراق المزيد من الدم السوري –بلا تفريق–خصوماً وأعداء ومستعمرين، تحت أي حجة أو مسوغ!

صحيح أن الجسد إذا ما اشتكى منه عضو، يتداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، ولكن إذا كان هذا العضو قد أنتن وفقد خواصه الأصيلة، ومقومات العلاج والصلاح والإصلاح، بصرف النظر عن أسباب الإصابة وزمنها، وصار خطراً على بقية الأعضاء.. فهل نتركه بحجة أنه يخصنا، وكان عضواً عزيزاً علينا، ولنا معه صلات وعلاقات وعشرة وأوقات ومعرفة وحواس ومشاعر؟!

ولا شكّ في أن المحاسبة يجب ألا تتم بفوضى وانتقائية وانتقام، واستغلال للظرف أو الحالة أو الموقف؛ بل بمصداقية ومسؤولية ومشروعية وعدل، ورؤية وطنية واعية واسعة شاملة، وفق القوانين والمهمات ومن خلال المؤسسات والدوائر المختصة، وحسب الجرائم والانتهاكات والارتكابات..

نعم.. الدم السوري عزيز، والإحساس السوري ثمين، والوجع الوطني نبيل، والسمعة غالية، والمفرزات مقلقة، والواقع مرّ والوقائع أمرّ.. لكن العدالة مطلوبة، والقصاص ضروري مهما بلغ الحدّ المشروع من القساوة والإيلام، كيلا يكون في الأمر مفسدة تتفاقم، وصدوع تتكاثف وتتقادم وتتجدد، وتبعات تتقيّح وتتسرطن!

***

العمل والقيمة!

لأي عمل قيمة، تزيد في الغالب عن البدل النقدي الذي يُستحَقّ لقاء إنجازه، وتتجاوز الفترة الزمنية التي يتم فيها ذلك؛ سواء أكان العمل عضلياً أو فكرياً، فردياً أو جماعياً، خاصاً أو عاماً.. وفي مختلف المستويات والمواقع والأوقات.

فمنظر الشارع المنظم النظيف يريح المارّة والمقيمين، ويُبهج من أسهموا في التخطيط والتنفيذ والمتابعة.. الذين تقاضوا أجورهم، أو تبرّعوا، وما يزالون في المعترك أو انتقلوا.. حتى من الحياة! وينسحب الأمر على البناء والطريق والحديقة والسدّ والقناة والحقل...

كما أن عملاً إبداعياً مميزاً يخلد صاحبه وشريحته وبيئته وزمنه ومعاصريه؛ سواء أكان لوحة أو منحوتة أو كتاباً أو بحثاً أو نظرية.. ناهيك عن الاكتشافات والاختراعات في مختلف المجالات والميادين.

صحيح أن أيّ إنجاز يحتاج إلى من يساعد في ذلك؛ فلا عمل منبتٌ تماماً عن الشروط والظروف والعناصر المادية والبشرية، ويحتاج أيضاً إلى من يرى ويقدّر ويقوّم.. وللثناء مفعول إيجابي مهم؛ إضافة إلى المكافأة العينية أو حتى من دونها. ولا ننسى الأهم: المبادرة الشخصية والموهبة والإقدام؛ لأن العمل يعني حضوراً فاعلاً وعبوراً مجدياً في

المهنة أو الوظيفة أو المنطقة أو السيرة أو العمر.. ولا شك في أن هناك من يسعى إلى العمل بإشراق، ويقوم بمتطلّباته صادقاً شفافاً، وقد يخطئ أو يتعثّر؛ ولا شكّ في أن هناك من يسعى محموماً إلى الوصول من أجل غاية ليست ناصعة، وقد ينجح.. وهناك من يرضى -وهذا مستغرب- أن يكون رقماً بلا معنى، أو جسداً بلا ظل؛ وصوتاً بلا صدى.. وقد يكون كذلك عنوة وابتزازاً وخشية من أن يقول أو يرفض أو يشير إلى خلل، أو يناقش في الأمر: أسلوباً وغاية..

وقد لا يصل من يَجِدّ ويُؤهَّل شهادة وخبرة، إلى ما يبتغي، فيحسّ بالنكوص والخسران..

وللعمل قيمة أخلاقية تبقى الرصيد الإضافي الهام، ويفترض أن تكون الغايةَ الأسمى، وأن تظلّ في الحسبان بداية ومتناً ونهاية؛ مع الإشارة إلى الأعمال الدنيئة التي ينبغي الترفّع عن التطرق إليها؛ ناهيك عن التنطّح لممارستها.

لقد شهدت الأحداث الأليمة في سورية أعمالاً ناشزة تستوجب التفكّر والدراسة والتحليل، بعد استغلال الناس أيَّما استغلال: حاجة وقصوراً في الرؤية ونقصاً في الوعي والتربية والتأهيل.. وأهرقت جهود وطاقات عضلية وفكرية في أقبح صورة، ناهيك عن التسلّح والقتل والاختطاف وقطع الطرق وتخريب المؤسسات والمنشآت العامة والخاصة.. ومخلّفات ذلك من خسائر وخيبات وصدوع وغصات..

فحين تنظر إلى العبوات الناسفة بأعدادها الكبيرة، وأشكالها المتعددة، المصنّعة في الخفاء من موادّ وعناصر محلية أو مستوردة لغاية أخرى، وتفكّر في عملية التركيب واللحام والحشو والتوصيل

والتفخيخ: اسطوانة غاز، قازان، أنابيب معدنية، حديد مبروم أو صناعي، أكياس وأوعية وأصص ورد.. وقبل ذلك وبعده النيّة القاتمة والوسواس والقصد والرغبات السوداء، ينتابك أسى عميق، وتتناهبك غصة خانقة وأحاسيس حانقة؛

فماذا لو صرفت هذه الجهود والقدرات والخبرات والمواد والأوقات في اتجاه معاكس كلياً، وفي أعمال مفيدة للبيئة والناس والبلد؟! ورشات في الضوء: لمّة في موسم، أو حلقة في تدريب، أو جَمعة في مشروع.. ومشاركات ومبادرات ومصنّعات ومركّبات ومشغولات.. تستفيد من المكوّنات البيئية، وتخفف من المستوردات، وتقلل من النفايات والمخلّفات والبقايا المهدورة، وتؤمن عملاً ذا جدوى للكثير من المواطنين!

وإذا ما استطردنا في الحديث عما يخلّفه تفجير تلك العبوات الغادرة من وفيات وتشوّهات وصدمات وخراب؛ فما هو الشعور الذي يتضاغط لدى من ينظر ويعاين ويتأمل؟! وهل يمكن مقارنة مثل هذا المشهد الكارثي وتبعاته بأيّة نتائج لأعمال خيّرة في الجهة الأخرى: احتفاء وغبطة وتكريم.. وماذا عن الوداد والألفة والجمال: وردة في أصيص، أو لوحة في معرض أو صالة، أو تمثالاً في شارع أو ساحة؟!

إنها القيمة الأخلاقية التي تتمثّل في العمل؛ تشعّ وتنتشر وتسمو وتخلد، وفي فقدها الخسارة الكبرى!

***

أنفاق!

يعرف المتعاملون مع طبقات التربة وأشغالها صعوبة العمل تحت سطح الأرض، خشية انزلاقات وانسلاخاتوانهدامات قد تحصل في أي وقت، مع ما تسببه من كوارث بشرية ومادية، تحتاج إلى احتياطات وتدابير احترازية مكلفة، وتتطلب ميزانيات تضاف على ما يكون مخططاً لإنجاز العمل ذي الجدوى المؤكدة، أو ذاك المشروع الضروري الذي لا مناص منه، أو الحلول العلاجية والاستراتيجية التي لا بديل عنها، (ويدخل في هذا الإطار ما يضطر إليه به أبناء غزة المحاصرة، وما ينفذه المقاومون في الجنوب اللبناني)، وهذا ما يجب أن تحسب حسابه الحكومات والمؤسسات؛ ولا سيما الاختصاصية منها، وتعدّ له العدة والعتاد والخبراء ببواطن الأرض وتداعياتها..

لكن.. حتى العارفون ببواطن الأمور في سورية، يحتاجون إلى خبراء لتفسير لجوء «مواطنين» أو جماعات إلى إنجاز أنفاق في الحارات أو بين بيوت الله والناس، لتخزين أسلحة أو مواد تذخير وتفجير وأجهزة اتصال أرضية وفضائية ومشافٍ ميدانية، أو لتأمين تخفٍّ وهرب وتنقّل جحوري وتواصل ظلامي..

فالأخطار لا تحدّ، والأرض «تفرق بالشبر»، والعمل في المواقع المأهولة يشبه حلّ الألغاز أو التحرّك في حقل ألغام، نتيجة المياه الجوفية المتبدلة، والتسرّبات من الأمطار والأسيقة وتمديدات مياه الشرب..

ومن الملاحظ أن هناك أنفاقاً قديمة جداً «اكتشفها المعارضون»، لا يعرف بعضها إلا خبراء الآثار وقرّاء الخرائط الجيولوجية، وأخرى نفّذت منذ وقت قريب لغايات استثمارية، جرى استغلالها أو تحويلها عن أهدافها، ولبعضها مواصفات خاصة، كما استخدمت المجاري والأخاديد والحفر المهجورة، أو تلك التي ما تزال قيد الخدمة رغم سوائلها القاتمة وروائحها المنتنة!

وهناك ما تمّ تنفيذه أو تجديده خصّيصاً للعدوان على الوطن ومواطنيه ومؤسساته..

ويعلم المختصّون ما يتطلّبه إنجاز النفق من مهارات وطاقات وقدرات على التحمّل وتجاوز احتمالات الخطر المحدق، وما يحتاج إليه من معطيات ومعلومات وتجارب وأدوات وعناصر؛ إضافة إلى الوقت والجهد والتبصّر بطبقات التربة وأمواعها وخواصها ومستوياتها وميولها؛ ولا سيّما إذا ما تعرّجت الأنفاق وتفرّعت وتشعّبت واستطالت.

ويدرك المعنيّون أن تعويضات طبيعة العمل التي يتقاضاها العاملون في مثل هذه الأشغال المشروعة أضعاف ما يُخصّص

للأعمال الأخـرى، وبالتالي فإن مبالغ باهظة تحتاج إليها هذه الاختراقات الأرضية، مع التنويه إلى مرارة الإحساس بأن من عمل في بعض هذه الأعمال الشاقّة مخطوفون معذّبون في الأرض وتحتها؛ وهناك آخرون يعتاشون على أحقاد وأُعطيات ووعود تصحّ وتخيب، وعقائد و»قناعات» وأحلام و»ثوابات» سماوية مضمونة!

إن دراسة جادّة لهذه الظاهرة، وكثافة حضور الأنفاق وطرق توضّعها وتواصلها مع المحيط المأهول أو المقفر، واعتمادها في مختلف المدن والمناطق.. تبدو مهمة وملحّة للوقوف على جوانب خاصة من بيئات وظروف وأفكار ومؤثّرات وعلاقات ومهن وخبرات، وكائنات تعمل وتجهد وتعيش وتمارس طقوساً في العتمة، حتى لو كان بعض تلك الأنفاق مضاء ومبلطاً ومكيّفاً!!

لا شكّ في أنّ ظلاميتها لا تقف عند حجومها وعمقها وامتدادها ومرتاديها؛ بل إن هناك أشخاصاً لديهم مثل هذه الظلامية الفكرية والسلوكية فوق الأرض وفي عزّ الظهيرة، يمارسون ذلك في العلن، أو يموّهون ممارساتهم بأعمال أكثر أضواء وزينة وعدسات.. حتى في «أرقى» الصالات والقاعات..!!

ومنهم من يُحسب بشكل أو آخر على الثقافة التي تعني الاستقامة في الأداء والفكر والخلق، والوضوح في الرؤية والرؤيا، والسعي المعلن والمسوَّغ من أجل الإنسان عزة وكرامة؛ ومن هؤلاء من لا يخفي مواقفه الداعمة للغادرين، وحماسته للفاتكين بالأرض والعرض والممتلكات والمنافذ المضيئة مـدارسَ ومراكزَ علمٍ

وبحوثٍ وآثاراً ومميزين ومتنوّرين.. حتى لتظنّ أن أفكاره نفقيّة عكارةً وعفونةً وروائحَ وخّازة؛ ومنهم من يؤدون أدوارهم الزاحفة ومساعيهم المخاتلة، لكن آثارها لا تضيع وتبعاتها دالّة؛ وهم لا يفترقون عن ممتهني الأنفاق الأرضية الشاذّة فكراً وعملاً وأسلوباً!!

***

بيئة حاضنة!

يمكن للمخلوق الصحيح جسماً وملكاتٍ أن يموت، إذا لم يكن ما حوله قادراً على تأمين شروط البقاء وظروف الحماية الضرورية للعناصر الغضّة، وهي في سبل النمو، ويمكن أن يتشوّه هذا الكائن، أو يُعاق بعض إمكانياته؛ في الوقت الذي تستطيع الرعاية الحريصة أن تؤمّن السلامة لهذا المخلوق، وتحميه من الخلل الذي يمكن أن يكون فيه؛ ناهيك عن أعطاب الخارج، ويمكن أن تشذّب ما اعتلّ، أو تيسّر التكيّف مع الحالة للاستفادة القصوى مما تبقّى من قدرات، والإحساس الذاتي بالجدوى، بدلاً من الشعور بالعبء والعالة والنقص والدونية..! ليس هذا جديداً، ولا القول استطراداً إن العكس صحيح أيضاً؛ أي سيكون للإهمال أو الغفلة أو القصور الخارجي في البيئة والعناصر والإمكانيات.. آثار سلبية قد تصل إلى أن تكون مشوِّهة أو قاتلة!!

ومن الطبيعي أن تنمو في ظلّ مثل هذه الظروف القاتمة الخواص التي تناسبها، وتظهر وتهيمن، فيما تضعف الميزات الأخرى أو تُحبط أو تُشلّ..

تلك هي البيئة التي ترعى وتحمي وتغذي وتُسيد. وهي ليست

فرداً، ولا مجموعة بشرية طارئة وعناصر طبيعية أو مصنوعة منبتّة عن العالم، هذا الذي يمكن أن يكون في معسكرات أو مخيّمات أو أنفاق ظاهرة أو مخفيّة.

ولا تتشكّل البيئة في ليل ونهار، ولا تتبدّى بخطة وقرار، ولا تُنجز بإرادة ورغبة وحلم..!

إنها فعل إنساني في محيط مادي ومعنوي، أفكار وأحلام وحاجات ومتطلبات، عناصر وإمكانيات وموارد وعلاقات؛ إنها مشاعر وأحاسيس وأحلام، أمانٍ ورغبات.. منها ما هو قابل للتحقّق، وآخر لا ينفذ، ومنها ما هو مثالي، ما زال الكائن العاقل يسعى إلى نواله بلا جدوى..

إنها قناعات ورضا وعقائد.. أو ضغوطات وإلزام وتشريعات.

أفعال وردود أفعال وإنجازات، عمل ونشاط وسعي وإيمان وآفاق، أو حظّ وخمول وقعود واعتقادات وأقدار وقنوط وحواجز وعثرات..

فالبيئة الجاهلة الظلامية تحضن الكائنات في العتمة، وتشوّش الضوء، وتعيق الانفتاح إلى الجهات، وتنمّي الأفكار النهائية والرؤى القاصرة، وتحدّ من التميّز والانطلاق، وتحاصر الكوى والنوافذ، وتحصّن الأعراف والتقاليد، وتزيد من الستائر والسواتر، وتضيّق على الإبداع والمبدعين، وتجرّمهم أو تكفّرهم..

أما البيئة المنيرة فتسعى إلى مزيد من الآفاق، وتحفز الطموح،

وتشدّ من عزائم الروّاد، وتؤمّن دروباً أقصر للمميّزين، وهي تشعّ على ما حولها، وتفضح بؤر العفونة والأسن، وتجفف مواردها، وتكون عوامل النمو والانتشاء في داخلها ومن صميم طينها وخصوبتها!!

وقبل أن نصنّف أو نوصّف، ونرتاح إلى ذاك الإرجاع وهذا الاستنتاج، لا بدّ أن نسأل عن دورنا في مثل هذه البيئات، وكيف يمكن أن يُحمى الموهوب في البيئة المظلمة، قبل أن ينتقل، أو يُجبر على الخروج منها، ما يفاقم الحال القاتمة، ويقلّل من فرص تحوّلها أو تغيّرها..

ويجب أن توجّه المشروعات والنشاطات والإمكانيات بشكل لا يؤدي إلى تطوير المطوّر وإبقاء الآخرين في جهلهم يعمهون..

ومن الطبيعي أن لا تصحّ خطط تنمية البيئة هذه في تلك، ولا المبادرات التي تنشط في تلك الحاضنة يمكن أن تناسب هذه في الوقت عينه؛ بل لا بدّ من وعي بطبيعة الأشياء والواقع، والتحرك إزاءها، لإجراء تحوّل ضروري في البنى التحتية وإغنائها بالنيّرين المُقْنعين القادرين على العطاء والحوار، ويبقى من حقّ البيئات الأكثر تطوراً أن تكون لها سبل التقدم الدائم، وأن لا تضيع في مديح الذات والشعور بالوصول إلى المجد والركون إلى الرخاء والإشباع، أو التحضّر لمواجهة تلك البيئات البائسة للقضاء عليها بأسلحتها ذاتها..!

وفي ذلك خطر مضاعف ونتائج كارثية؛ مع الإشارة إلى أنه يجب

ألا يغيب عن أذهان المعنيين أن هناك من له مصلحة في أن تبقى بؤر تتخبط في ظلمائها؛ بل ربما يعمل على أن تزيد حالها سوءاً، أو قد يستخدمها لمواجهة البيئات الأخرى القريبة أو البعيدة.. تلك البيئات التي لن تهنأ؛ لأنّ هناك من يحاول النّيل من عليائها وتقويض بنيانها حتى بيد أبنائها. ولا نُغَرّ لنُخدع بأن البيئات التي تبدو مشرقة أو متلألئة تتمنّى -جميعها- ذلك لسواها، وترعى كائناتها وتغني تربتها؛ فقد يكون العكس هو الصحيح، كي تنفرد بالساحة، وتستغلّ مواردها المادية والبشرية بأقلّ كلفة وخطر..

تلك طبيعة البشر وميولهم ونزواتهم ونزوعهم إلى السيطرة بمختلف الوسائل..

لكن هذا لا يعفينا من واجبنا تجاه بيئتنا، ولا من مسؤولياتنا في حمايتها وتطويرها، وإضاءة مواقع الخير والمواقف الإيجابية والمبادرات المقدّرة.. حتى تتحوّل إلى بيئة حاضنة للفكر الخلاق والثقافة والإبداع، لمختلف الأجيال والمجالات؛ هذه المسؤولية التي لا تنوس ولا تخفى، وليس من مسوّغات للتردّد والتحجّج والتسويف، ولإلقاء التبعات على الآخرين!

***

أبغض الحلال!

ينصرف الاهتمام عادة لدى أيّ مراجعة أو نظرة مستقبلية إلى أصحاب الفئة الأولى من العاملين في أيّ مؤسسة أو دائرة أو شركة.. وهذا طبيعي؛ لأن المركز يظل نصب العين وملء السمع ونبض الفؤاد، بما يظهره من أناقة واهتمام وتجهّم وحصانة! ومن الطبيعي؛ أن درجات المسؤولية العليا تقترب أكثر من هذه الصفوف الأولى، وينشغل الحديث المهتمّ بهذه الشريحة منذ تشكّلها؛ بل قبل ذلك؛ ففي الشهادة الثانوية تتمايز الفروع بدرجات القبول في الجامعة، وتتميّز سمعة وتداولاً وتفاخراً! أما من لا يدخلون أيّ فرع جامعي، فسيُكرهون على دخول المعاهد، ولا سيما تلك التي لا تلتزم مرجعياتها بتعيين خرّيجيها، وتكون الدراسة فيها كأبغض الحلال؛ ناهيك عمن لا يحقّ لهم ذلك، فسيتوزّعون في الورش والمشاريع والأعمال (الحرّة) الأخرى داخل البلاد وخارجها! ومن غير الطبيعي ترك هذه الكائنات الإنسانية إلى مصائرها المجهولة!

ولعل من المفيد تذكّر تلك الخطط التي وضعت على عجل

لتحويل نحو ثلثي طلاب المدارس الرسمية إلى التعليم الفني، ما أدّى إلى ضياع نسبة كبيرة منهم لعدم الجدّيّة في التعامل مع هذا المجال الهام من التحصيل والعمل؛ ربما كان للمبالغة والتسرّع

وضعف البنى التحتية و(وسواس) الوظيفة والمنصب أدوار في ذلك التشوّه، الذي أدى إلى إعادة النظر في الخطة بعد سنوات، حتى لو كانت النوايا حسنة، والفكرة مأخوذة من دول متقدمة علينا أشواطاً.

ويعرف المهندسون أكثر من سواهم أهمية هذه الشرائح من الفنيين، والعاملين في المهن المتعددة، والعمال العاديين، في حسن سير العمل، وجودته، وتوافق مكوّناته، وانسجام عناصره، ومرونة التحرك في جبهاته، نظراً لاتساع مساحات المشاريع، وتنوّع الأشغال، وتعدّد المواقع، وارتباط المراحل، والحاجة أحياناً كثيرة إلى عدد كبير من العاملين، مع اختلاف درجات تحصيلهم وتأهيلهم وبيئاتهم و(ثقافتهم) التي تحدد التزامهم وإخلاصهم ورغباتهم في الأداء المناسب والإنجاز المطلوب؛ سواء أكانوا من مِلاك المشروع موظفين أو متعاقدين، لهم ظروفهم ومتطلباتهم وهمومهم، أو كانوا ممن هم من خارج الملاك، يستعان بهم لإنجاز أشغال محدّدة ولفترة محدودة، ولهؤلاء شروطهم ومشكلاتهم أيضاً.

وإذا كانت الامتيازات والمظاهر والعلاقات والمنافسات الشريفة وسواها تتكاثف في المستوى الأول، فإن وسائلها وعناصرها وساحاتها تتوزّع في المستويات الأدنى، وتكون الشرائح الأخرى هي الأدوات؛ بل الوقود الذي لا يتورع الكثيرون عن استخدامه واستغلاله إلى أقصى درجة ممكنة! وقد فات الكثيرين من المسؤولين أن عاملاً فنياً مهمِلاً أو مهمَلاً يمكن أن يعطل عملاً هاماً، وأن عاملاً عادياً يمكن أن يثير مشكلات كبيرة في مجال وجوده، ويتغافل الكثيرون عن أن لهؤلاء مشاعر وأحاسيس وعائلات؛ أي إنّ لهم كرامات لا تنبغي الاستهانة بها أو إهمالها؛ لأن تبعات ذلك لن تكون قليلة ولا إفرادية؛ بل على صعيد جمعي وغير مباشر ربما!

ولا شكّ في أننا سرعان ما نلجأ إليهم، إذا ما مورست ضغوط غير عادية لضرورة إنجاز أسرع وفي أوقات حرجة، ونلوذ بهم من أجل أصوات مطلوبة لنا أو لسوانا، أو لحضور احتفالي ملمَّع؛ وقد (نستفيد) من بعضهم ونعتمد عليهم في (مهمات) أخرى!

أما في الأحوال العادية، فنحن متعالون عليهم، متغافلون عن حاجاتهم ومتطلباتهم وأوضاعهم في ساعات الدوام وقبلها وبعدها.. حتى إن خطط التأهيل لا تعطيهم الحقوق المطلوبة؛

بل ربما لا تذكرهم، ولا سيما فيما يخصّ أهمية العمل والجدّية والالتزام، والأهمّ من هذا وذاك إحساسهم بأنّ لهم أهمية ومكاناً ومكانة في الأعمال والمشروعات المختلفة. وإذا لم يحدث ذلك، ولم يُهتمّ به، ستتشكل فجوات يمكن العبث فيها والشغل عليها، وثغرات يمكن النفاذ منها ممن قد لا نتوقع ولا نحبّ ولا نرضى!

ويفوتنا أنّ من كان أداة لنا، من الممكن أن يصبح أداة علينا، وأنّ من لا نعدّ أن له قيمة، أو نعوّده على أن قيمته دنيا، سيكون سهلاً على الآخرين استغلاله بأية قيمة، ومن أجل أية أعمال!

وفاتنا أيضاً أنّ لهؤلاء أحيازاً أخرى خارج دوامهم، وأوقات فراغ قد تطول نتيجة قلة العمل أو بطء السوق؛ ناهيك عن العاطلين بشهادات أو من دونها! فهل فكرنا بماذا تُملأ، أو خمّنّا كيف تُصرف وأين ومع من؟!

ومثل هذي الحال ليست مسؤولية جهة معينة ولا دائرة محددة؛ بل مسؤولية وطنية إنسانية، تشترك في تحمّلها وزارات ونقابات ومؤسسات.. تربوية وثقافية واجتماعية واقتصادية وخدمية.. ولا تتوقف على وقت أو ظرف أو مناسبة..

ولعل ما يجري في بلدنا الغالي يجعلنا نقف على بعض الحالات المرّة!

ويمكن أن نتساءل بهدوء وروية: ما الذي يجعل صاحب ورشة أو عاملاً مهنياً أو عادياً يرضى بالفُتات للخروج (مسلّحاً) وراء شعارات ليست في صلب اهتمامه، ووعود في مهبّ الريح؟! في الوقت الذي علينا أن نتساءل: ما الذي فعلناه لهذا اليافع حتى نمنع انقياده الأعمى، وتورّطه الدامي؟!

من دون أن ننسى الأسرة والبيئة والتربية والحاجات والهوايات والرغبات والنزوات والأحلام والأوهام..

لا شكّ في أننا في مواجهة مؤامرة كبرى، وعدوان موصوف على وطننا إنساناً ومؤسسات، حضوراً ودوراً وأهدافاً، ولا شكّ في أن هناك الكثير مما تمّ إنجازه حتى وصلنا إلى مرحلة متقدمة من الاكتفاء الذاتي، ولا يمكن أن نتصوّر عاقلاً أو واعياً يقبل بالفوضى المدمرة مادّياً ونفسياً في مختلف المجالات والميادين العامة والخاصة، ولا شكّ في أنّ وعي الغالبية العظمى من الشرائح المختلفة من المواطنين، استطاعت وأد الفتنة وصدّ المعتدين القريبين والبعيدين..

ولكن هذا يتطلب منا أن ندرس المفازات التي دخلت منها الشرور، ونستكشف المواقع التي كانت أضعف مناعة، وأكبر استغلالاً. وليست في هذا إهانة إلى شريحة بعينها أو مجموعة

بذاتها؛ بل المقصود اولائك الأشخاص الذين هانوا وارتضوا أن يكونوا أدوات للقتل والإرهاب كالأسلحة التي أخفوها أو أظهروها، من دون أن يكون لذلك أيّ وجه من وجوه الحلال حتى البغيض منه، رغم الفتاوى والدعاوى؛ فلا شك في أنّ من يَهُنْ يسهل عليه الهوان..!

***

في الانتظار..!

اعتاد الكثيرون منا على انتظار شيء ما ليتخذ موقفاً واضحاً من موضوع ما، حتى لو لم يكن في الأمر غموض أو إشكال أو مسؤولية، ولا يتطلب سوى تنفيذ القانون الذي يقع في نطاق صلاحياته! وهذا ليس جديداً ولا طارئاً، وهو يتعلق بالتربية أولاً، وبطبيعة العمل، وبعدد آخر من العوامل الشخصية والعامة، وليس آخرها الثقة بالنفس والتوازن النفسي والاجتماعي والاقتصادي، والمناخ العام والنظام والظروف..

وليست المشكلة في تطبيق القانون، فهذا مطلوب ومرتجى ومنتظر حتى لو كان حرفياً؛ بل في عدم تطبيقه؛ وهناك من يتلكأ في تنفيذه، أو يماطل، أو يناور، أو يمايز.. حسب المصلحة والأهواء، ولا يستطيع أحد إلزام آخر بأن يتعامل مع روح القانون، أو أن يتسامح في بعض فقراته، ويتشدد في أخرى؛ فهذا يعود إلى مستوى تفهمه وخبرته وسعة أفقه، إذا لم نقل أهواءه ومصالحه وعلاقاته والأوامر التي قد تهبط عليه، أو التوجيهات أو التلميحات..

وإذا ما واجه مسؤول ما خللاً في قانون، أو ثغرة في إحدى فقراته، أو تناقضاً أو غموضاً.. قد يقف منهزماً أو مقفلاً أو معطلاً، وقد يجيب لدى سؤاله: ليست لي علاقة. وربما يفكر في نفسه: الحمد لله أنها جاءت من القانون وليس مني!

وبدل أن يسعى هذا المسؤول بأية درجة من المسؤولية إلى السؤال والاستفسار والمطالبة الجدية بإيجاد حل، يبقى في لا مبالاته ساهماً أو مرتاحاً، وتستمر حال العطالة بانتظار الرأي القانوني الذي ربما لم يشر إليه أحد رسمياً، لأنهم جميعاً في الانتظار!

لا شك في أن عدم تطبيق القانون سلوك خاطئ، كما هو تنفيذه بشكل غير صحيح، وهذا جزء من الفساد الذي يتخذ ألف لبوس ولبوس، لكن في عدم القيام بالسلوك الإيجابي، كالاهتمام والمتابعة وصولاً إلى المبادرة والإقدام، فساداً أيضاً؛ فإذا سكتُّ عما أعرف من قصور أو خلل، وارتضيت بما لا أستحق، وسعيت وراءه؛ وسكت سواي، وتردد وتغافل، وارتضى وقال: أنا ومن بعدي الطوفان.. كيف سيتم تجاوز الواقع الفاسد أو تفاديه، وكيف ستتم معالجته؟! وإذا ما قال أحد: لماذا تحمل السلم بالعرض؟! وقال آخرون: قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق؛ فإن في ذلك سبيلاً إلى قطع الأعناق والأرزاق!

أليس بعض ما يحدث في سورية اليوم من نتائج ذلك؟! فقد كانت تلك الثغور في القانون، أو في تطبيقه، معابر للفاسدين في

وضح النهار ربما، كما تلك الفجوات المهجورة أو المحروسة في الحدود، وتلك الثغرات أو سواها، في الأماكن ذاتها أو في سواها، ستبقى معبراً لكل الديدان والحشرات والجراثيم والفيروسات، التي ستنضم إلى بؤر العفونة والصدأ والتآكل التي لم تجد من يطهرها، أو يجفف عنها الموارد، أو يضع في طرق عدواها العثرات الحقيقية، أو يخفف من روائحها أو مناظرها!

ولا شك في أن بقاء مثل تلك العورات التي يراها غير الأطفال إذا كانوا مبصرين، أو راغبين بالإبصار أو قادرين على ذلك، جزء أساس من المشكلة؛ بل الأرضية المثلى لذلك. وهذا ليس وقفاً على ما كان، وذقنا من آثاره العناء والعذاب والفراق والخسران.. وما تزال صدوعه تخرش البنيان الصلب، وستبقى إلى زمن نرجو ألا يطول.. إذا عزمنا على ألا يستمر ذلك البساط المفروش أمام المنافقين والمناورين والحاقدين من أجل حفنة من إراقة ماء الوجه، وهدر نعمة الحياة..

فلا شك في أن الكائنات الشريرة والقابلة للامتهان والسقوط ستبقى في كل آن، ما بقيت النفس أمارة بالسوء، وما بقي الضلال والفجور والعدوان.. كما ستتواصل طيوب الكائنات الخيّرة مشعة، ما بقيت النفوس الكبار الساعية إلى الحياة الحرة الكريمة بشرف وكرامة، والمكافحة بصمت أو ضجيج لإبقاء الرؤوس مرفوعة، والوطن حضارياً متطوراً عزيزاً مصاناً. ومن المؤكد أن زيادة منسوب

الروح الإيجابية وأطياف الأريحية والعطاء بلا حسبان لا تأتي بأمر أو قرار، وهذا الصلاح أو الإصلاح لا يتوقف على زمن أو عصر أو مرحلة؛ لأنه أمر مطلوب دائماً، وملحٌّ دوماً، وربما شعرنا بأهميته أو ضرورته أكثر في هذه الأوقات العصبية؛ لكن الشعور وحده لا يكفي، ولا الأمل، ولا الانتظار، ولا بد من العمل ذاتياً واجتماعياً، طوعياً ووظيفياً، لنصل جميعاً إلى الخلاص المنشود.

***

حول دور المثقف.. أيضاً!

يبدو أن في الأمر مرارة وضياعاً للوقت والجهد، حين يلزم أن نتحدث عن دور شريحة هامة في الأزمات، كما هي الحال في سورية؛ أعني المثقفين تحديداً، مع أهمية الشرائح الأخرى؛ فيما المطلوب أن يكون العمل هو الدليل، والإنجاز هو الشاهد..

وإذا كان المثقفون، كباقي فئات الشعب، ليسوا كتلة واحدة؛ لم يكونوا كذلك يوماً، ولن يكونوا؛ وليس مطلوباً ذلك.. فإن الثقافة التي تعني المعرفة والاكتناز والتوازن والقدرة على التمييز والتقويم والإقدام.. من دون أن يتعلق ذلك بظرف أو شخص أو تيار، يفترض أن تكون الحامل للمشاريع الحياتية والمصيرية أو الموجّه لها أو إليها.. صحيح أن المثقفين لم يكونوا في بحبوحة، ليدافعوا عن حال أو مرحلة، ولكن حين يتعلق الأمر بالوطن ومصيره، لا يصح الوقوف عند ذلك؛ لأن القضية أبعد وأعمق وأوجع، وتحتاج إلى مواقف، لا سلبية أو عواطف، وأعمال، لا انتهازية وشعارات.. وقد تراوحت حالات المثقفين وتباعدت، وتواجهت أحياناً، وتحولت من إمكانية أن تكون منبّهة دالّة حالّة، إلى عبء أو تابع أو جزء من المشكلة، وفرق شتى!!

ومن المؤسف أن صمتاً مريباً غيّب أصواتاً كانت تتسابق على المنابر والولائم، فيما تحول البعض بقدرة رنين وأضواء وتلويحات إلى مواقع لا تخدم الوطن ولا المواطنين، ولا تلبي طموحاتهم النبيلة ولا أهدافهم المحقة؛ بل تساير المعتدين المعلنين، وتدعم المتطرفين بالتوافق والموازاة والمداراة والتعمية؛ ولا سيما أن الرعاة والحماة والدعاة الذين يحضنون هؤلاء المثقفين وأولئك المتطرفين، يشكلون في معظمهم النقيض الواقعي والتاريخي والمستقبلي للعنوانات التي يتمثلون، واليافطات التي يرفعون..

وإذا كان السكوت في البداية يمكن تفهّمه للناس العاديين المشغولين بمتطلباتهم، المنشغلين بهمومهم وضيق أحيازهم وسبلهم غير السالكة بيسر؛ فمن غير المقبول تبنّيه من قبل المهتمّين بمسار الأحداث القريبة والبعيدة، المتابعين للقضايا والتحولات ومراكز القوى العالمية، المعنيين الدارسين الواعين؛ إذ يبدو من الصعب تصوّر أن يكون هؤلاء مشوّشين حول ما يحاك حول سورية الوطن المستقل بقراره ومواقفه وعلاقاته، الواعي لقيمته ودوره عربياً وإقليمياً ودولياً، العلماني بنسبة ما، الساعي إلى الاكتفاء اقتصادياً، المتقدم تعليمياً وصحياً، الصامد، المقاوم لكل محاولات العدوان والهيمنة المباشرة وغير المباشرة عليه وعلى سواه ممن يشاطرونه الرؤى والأهداف الوطنية والقومية والإنسانية؛ ولا يمكن تحمّل أن يُستهان بأمر سلامة الوطن ومصيره، وليس مقبولاً أن يكون للمصلحة الشخصية والحقد والرغبة بالانتقام حتى لو كان: (عليَّ وعلى أعدائي

يارب) الدور الأساس في اتخاذ المواقف.. ومما يزيد من الأسف أن يكون بعضٌ ممن كانوا مسؤولين ثقافيين رسميين، ومارسوا كل ما يتناولونه الآن بالإدانة من انتفاع وارتهان، وسلطة وفوقية على من كانوا تحت (رحمتهم)، ومنهم من ما يزالون في مواقعهم الرسمية، وآراؤهم معروفة وسلوكهم ومتطلباتهم المتناقضة مع المنطق والوفاء والانسجام بين الموقف والأداء، وهذا عنوان آخر لما يمكن أن يوصفوا به وما يستحقون من تقدير واحترام!!!

إن الكثير مما يجري في الواقع من قتل على الهوية، واستهداف للكفاءات العلمية والخبرات المهنية، وتخريب للمؤسسات الخاصة والعامة، وتهديد وترويع للمواطنين، واتهامات وتكفير وأحكام قاطعة مع التنفيذ أحياناً كثيرة، لا يحتاج إلى وقت وتفكير وحسابات لرفضه وإدانته وفضحه ومواجهته قانونياً وأخلاقياً وإنسانياً؛ أليس هذا إقصاء لأي رأي أو فكر أو موقف؟! أليس هذا ما (يحاربه) المثقفون؟! وهل ما يواجه (أدونيس) وسواه أيضاً من اتهام ووعيد وتحريض مباشر على القتل يمكن أن يمر بلا تعليق؟! إن من غير المقبول أن يتحدث المثقف بلغة الشارع، أو يتصرف كما في السوق، مع الاحترام لمختلف المواقع وكائناتها، وهذا لا يعني عدم تبنّي ما يطرح فيها أو ما يدور؛ بل يشير إلى أن لكل أدواته ووسائله للعرض والمناقشة والإقناع، وفي هذا تنظيم ولياقة وابتعاد عن الفوضى التي لا تفيد قضية محقة، ولا تخدم أحداً من أصحاب الحقوق! ومن الطبيعي والمقصود أن يستغلها المغرضون الانتهازيون الظلاميون، ويخسر الجميع!

إن الموقف الثقافي لا يسرّ ولا يرضي، ولا يصل إلى مستوى الحدث؛ سواء على الصعيد الخاص والعام والأفراد والمؤسسات؛ وهو لم يكن مميزاً يوماً؛ لكن الأزمة تفاقم الحالة الثقافية غير السليمة، وما زال مثقفون يرتضون أن يكونوا سلعة سياسية أو إعلامية أو إعلانية في هذا الجانب أو ذاك؛ بل يمكن أن ينتقل بعضهم من جانب إلى آخر؛ ومنهم من عاد ظلامياً في التفكير والممارسة، ولا ينقصه إلا حمل الأدوات الحادة! من دون أن ننسى من بقي مشرقاً بصيراً معرضاً للأذى غير هياب من قول الحق والوقوف بثبات وبعد نظر، متحملاً كل التبعات والاحتمالات القاتمة!

وفي حين تتعرض فيه الوقائع للتضليل والأفكار للتشويش والشخصية للتصدع، وتشهد الأقوال والمرويات عبارات وتوصيفات وتصنيفات وسمات لم تكن مستساغة، ولم تكن مألوفة أمام الأجيال الشابة، ولا سيما الأطفال الذين باتوا يرون مشاهد مروعة، ويعيشون أحداثاً كارثية، ويعاينون تفاصيل مشينة، ويعانون من فقدان في الأمان والسلامة والصحة والحاجات.. هذا الذي لم يكن موجوداً أو معلناً أو ممارساً بفظاظة وفظاعة.. ومنهم من تورط أيضاً بشكل أو آخر..

في هذه الظروف المستجدة تماماً، والضاغطة نفسياً واجتماعياً واقتصادياً، تتصاعد مسؤولية المربين في مختلف الميادين، وتتضاعف مهمة المثقفين، في الترميم والتعويض والتوعية، والأمر يحتاج إلى رؤى متزنة وإمكانيات وتضحيات، وسنين من الجهد والبذل، ومنابر أكثر توسعاً وانتشاراً وموضوعية واحتراماً للكرامات

والحواس والملكات العقلية والإنسانية.. لقد أثبتت الأزمة أن شعباً مثقفاً يمكنه المواجهة والصمود والنهوض؛ فالثقافة ليست شهادات ومناصب وألقاباً وظهورات وأضواء؛ إذ إن هناك حالات إيجابية وسلوكات محترمة وأريحية مقدرة للكثيرين من أبناء البلد، وهناك صبر ومصابرة ومواساة وترفع عن المقاضاة الذاتية والمبادلة بالشر، وتعالٍ على الجراح والآلام.. يفترض أن تعمم وتدعم، لأنها وعي وتبصر وأثرة، وهي واقعية أيضاً، وممكنة دائماً، ومطلوبة ومرغوبة، وغالبة؛ لولا ذلك لما بقي الوطن، وسيقوم من محنته!

ليس الأمر يسيراً؛ لكن المتطلبات والتحديات والمواجهات والرغبات بالخلاص والإرادات الخيرة تستوجب الاستنفار الثقافي الحقيقي الجاد بعيداً عن السجالات والبيانات والشعارات والمطامع الصغيرة والأوهام العظمى!!

***

-

الذاكرة والتجدد

لنيسان خلاصة الهطل، وسلافة الخصب..

لنيسان نبض الانبعاث، ودفق الخطو الواثق..

في نيسان تم جلاء المستعمر الفرنسي عن تراب سورية؛ ذلك الفوز الذي تحقق، بعد نضال لم يهدأ في أي ركن من أركان هذا الوطن.. نضال شاركت فيه شرائح المجتمع السوري بأطيافه كافة، وانتثرت دماؤهم إلى البقاع والنجود.. جبالاً وسهولاً، غابات وصحارى، مدناً وقرى.. حتى كان الاستقلال المبارك.

ولم يتوقف النضال يوماً، ولم تهن قوى الشعب، ولم تنُس الشعلة، رغم الرياح التي لم تتعب؛ تهبّ من الجهات كلها، وبأشكال مختلفة وألوان متعددة، مغبرّة حيناً، وبرّاقة حيناً آخر، مخادعة أو فاضحة، تشاكس مرة، وترغّب أخرى، وتهدد مرات.. وتشاغل باستمرار حتى عن الواجبات الملحّة!

لكن هذا كله لم يمنع من البناء المتواصل، بتسارع متفاوت، ومحطات تقوية هامة..

وكأن سورية على موعد يتجدد مع المواجهة والمقاومة والصمود.

وكما سُقي الاستقلال بالدم الطاهر، حتى تحقق الجلاء في السابع عشر من نيسان عام ١٩٤٦، فإنه ما برح يُستسقى دماء طاهرة في مسيرته المتواصلة..

وإذا كان أيّ مشروع أو إنجاز صغر أم كبر، يحتاج إلى صيانة وحصانة لاستمراره بالفعالية المطلوبة، والجدوى المناسبة، وبأكلاف لا تقلّ عما كان وراء انبثاقه، وبعناصر مؤهلة حريصة؛ فما بالك بالاستقلال،؟! هذا الإنجاز الوطني الخالد، والمهدد دوماً من القوى التي لا تريد الخير والكرامة والحرية والكفاية والهناء.. لهذا البلد العصيّ على الاختراق، المصمم على استعادة أرضه المحتلة، العنيد في رفض الإملاءات والشروط المهينة ومعاهدات الاستسلام؛ البلد المساند بقوة وحزم وشجاعة للقوى المقاومة للاحتلال والمواجهة للعدوان في أيّ مكان وزمان، الساعي بجدية وتصميم لتجذير الاستقلال وتحصينه وإغنائه وتدعيمه ذاتياً تنمية وتأهيلاً واستثماراً وطنياً حراً، بوجه قومي لم يتحور ولم يتبدل رغم تحول الآخرين وتشوش رؤاهم وتشوّه بعضهم، وعلاقات إقليمية واضحة المعالم نبيلة الغاية، وحضور عالمي واثق مقدّر محترم معترف به..

كأن سورية على موعد متجدد مع التضحية والصمود.. والانتصار.

وتعود ذكرى الجلاء لتسقى من جديد بدماء زكية من أبناء سورية

الأبية على توزعهم وتنوعهم، مذكّرة بما بذل من أجل هذا اليوم، ومؤكدة وحدة العيش والمصير، في مواجهة هجمة جديدة أكثر شراسة وتعقيداً وخبثاً، لأنها تحاول أن يكون وقودها أبناء الوطن لتكون الخسارة مضاعفة والنتائج كارثية.

لكن الوعي الذي يشتهر به السوريون، والعزة التي تكتنفهم، والكرامة والإخلاص.. والحكمة في التعامل اللاحق مع الوقائع، والقراءة الدقيقة للأحداث وما وراءها ومن أثارها، والرغبة الحقيقية في الحفاظ على المنجزات، في المسارات جميعها، والرغبة الصادقة في التطوير والتأهيل والتحديث والإصلاح في المجالات كلها.. كل ذلك استطاع أن يئد الفتنة ويعطل المكيدة، في الطريق إلى الانتهاء من هذه الأوقات الصعبة، والخروج من هذه المحنة أكثر قوة ومنعة، وتصميماً على الاستمرار في البناء السليم المتكامل، والعمل الجاد على إعلاء شأن الشرفاء المخلصين القادرين على المبادرة والعطاء، والتخلص من الترهل والعجز، والأدران والبثور.. عربونَ وفاء لهذا الشعب الذي عاهد فوفى، وصبر وضحى، ونزف من دمه ما يزهو به الوطن يوم الاستقلال، وتتعمد به ذكرى الجلاء، وتتجدد..

***

غسان كامل ونوس

- مواليد٢/ ١/ ١٩٥٨- صافيتا
- مهندس مدني من جامعة تشرين/ اللاذقية منذ عام ١٩٨١م.
- عضو اتحاد الكتاب العرب منذ مطلع عام ١٩٩٣م.
- حاصل على جائزة محمود المسعدي في القصة القصيرة من مركز الوطن العربي للنشر والإعلام (رؤيا) في الاسكندرية – مصر عام ١٩٩٠.
- حاصل على جائزة إيبلا للشعر في إدلب بسورية عام ١٩٩٢.

الكتب الصادرة

- في القصة:

١ – هامش الحياة.. هامش الموت	اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٩١
٢ – الاحتراق	مطبعة الشام دمشق ١٩٩٢
٣– ظلال النشوة الهاربة	وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٤
٤– دُوار الصدى	دار الحوار اللاذقية ١٩٩٧
٥– أحمر .. أبيض	اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٩٨
٦– العائذ	مطبعة إياس طرطوس ٢٠٠٠
٧– مفازات	اتحاد الكتاب العرب دمشق ٢٠٠٣
٨– خطايا	وزارة الثقافة دمشق ٢٠٠٣
٩– في الزمن الراجع	عروة للطباعة طرطوس ٢٠٠٧
١٠– في الضفة الأخرى	شرق وغرب دمشق ٢٠١٠

- في الرواية:

١ – المدار	وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٤
٢–تقاسيم الحضور والغياب	دار الحارث دمشق ٢٠٠٢

٣- أوقات برية دار إنانا دمشق ٢٠٠٦

٤- المآب اتحاد الكتاب العرب دمشق ٢٠١١

- في الشعر:

١- تضاريس على أفق شاحب مطبعة إياس طرطوس ١٩٩٦

٢- موال الأرق اتحاد الكتاب العرب دمشق ٢٠٠٧

٣-حديث الروح اتحاد الكتاب العرب دمشق ٢٠١٢

- كتابات:

١-حالات دار شرق وغرب دمشق ٢٠١٠

٢-موضوعات ومواقف دار إنانا دمشق ٢٠١٠

٣-في الثقافة والأدب دار شرق وغرب دمشق ٢٠١٠

٤-قريباً من القلب دار شرق وغرب دمشق ٢٠١١

العنوان

بريد رأس الخشوفة - صافيتا - طرطوس - سورية

أو

طرطوس - فرع اتحاد الكتاب العرب - ص.ب / ٣٣٩/

أو دمشق- اتوستراد المزة- اتحاد الكتاب العرب- ص ب / ٣٢٣٠/

بريد إلكتروني:

Ghassan.wannous@gmail.com

هاتف: ٦١١٧٢٤٦ - دمشق

٨٠٥١٥٨ منزل صافيتا - ٠٩٣٣٨٠٢٦٩٣ خليوي

الفهرس

الجرح الجرح.. ٥
مسؤوليتنا! ٩
سيّد الأدلة! ١١
خسارة أخرى! ١٥
وهو يعلم! ١٩
الحدّ الأدنى ٢٣
فإلى أيّ جانبيك..؟! ٢٧
نجوم الظهر!! ٣٣
حـــــوار! ٣٧
الشيء بالشيء يذكر! ٤١
شـــباب! ٤٥
المثقف والحدث ٤٩
من المواجع الثقافية ٥٣
السكوت المثقف! ٥٧
ما أقسى! ٦١
سنوات.. ٦٥
ما يزال..! ٦٩
الحقّ والقاضي! ٧٣
الشعب المثقف ٧٧
الأوفياء! ٨١
عذراً سورية ٨٥

الكبار ٨٩
في الخارج أيضاً!.............................. ٩٣
مفكرون!...................................... ٩٧
الحوار الديكي! ١٠١
استقراء!...................................... ١٠٥
شاهد من أهلها!............................... ١١١
يسار يمين.. دُرْ!............................... ١١٥
واليسار العالمي أيضاً!......................... ١١٩
ربّ ضارة نافعة!.............................. ١٢٣
المصيبة التي... .... ١٢٧
خسارات إضافية ١٣١
بين الإيجابية والسلبية ١٣٥
ثواب آخر ١٣٩
الصورة!...................................... ١٤٣
التسارع!! ١٤٧
الرصيد.. ١٥١
المثال! ١٥٥
كلام في الإعلام................................ ١٥٩
الإعلام الشاحب! ١٦٣
حلقة مفرغة! ١٦٧
شعارات!! ١٧١
رم وحراسه!.................................. ١٧٥
ضعاف الرؤى!................................ ١٧٩
قَدَرُنا.. .... ١٨٣
المباشرة والوضوح!............................ ١٨٧

سرقات «أدبية»! ١٩١
شيء ما!.. ١٩٥
جبان! ١٩٩
تغييب ٢٠٣
الضــدّ! ٢٠٧
حربهم! ٢١١
إرهاب أيضاً!!... ٢١٥
مؤشرات «ثقافية»!...................................... ٢١٩
لم تكن تقصد! ٢٢٣
أضعف الإيمان... ٢٢٧
الدم السوري العزيز! ٢٣١
العمل والقيمة!.. ٢٣٥
أنفاق!.. ٢٣٩
بيئة حاضنة! ٢٤٣
أبغض الحلال!.. ٢٤٧
في الانتظار..!.. ٢٥٣
حول دور المثقف.. أيضاً!............................... ٢٥٧
الذاكرة والتجدد ٢٦٣